

الإمام جليل القدر الجليل

الْقُرْآنُ فِي

بَقْلِهِ

الشيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأدهر الشريف

وعضوية مراجعة المصاحف (سابقاً)

الناشر

الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ

كتاب قدوى دُرِّا بعين من المروعة
لهذا قلت تنبيها
حقوق الطبع محفوظة

الصحابة دار الصحابة العربية للطباعة

للنشر والتحقيق والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ: ٢٠١٠م

رقم الإيداع

٢٠١٠/١٦٤٧١

الترقيم الدولي

978-977-272-592-3



دار الصحابة دار الصحابة العربية للطباعة

صقر، خميس جابر

الإعجاز الجدلي في القرآن

بقلم خميس جابر صقر. ط. ١.

طنطا: دار الصحابة للدراسات القرآنية

والعربية 2010

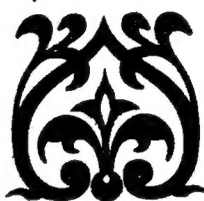
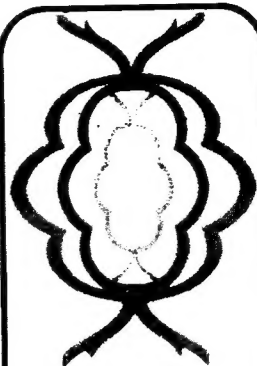
ص ٣٦٨-٢٤ سم

تدمك: ٢-٥٩٢-٧٧٢-٩٧٧-٩٧٨

١- القرآن، إعجاز

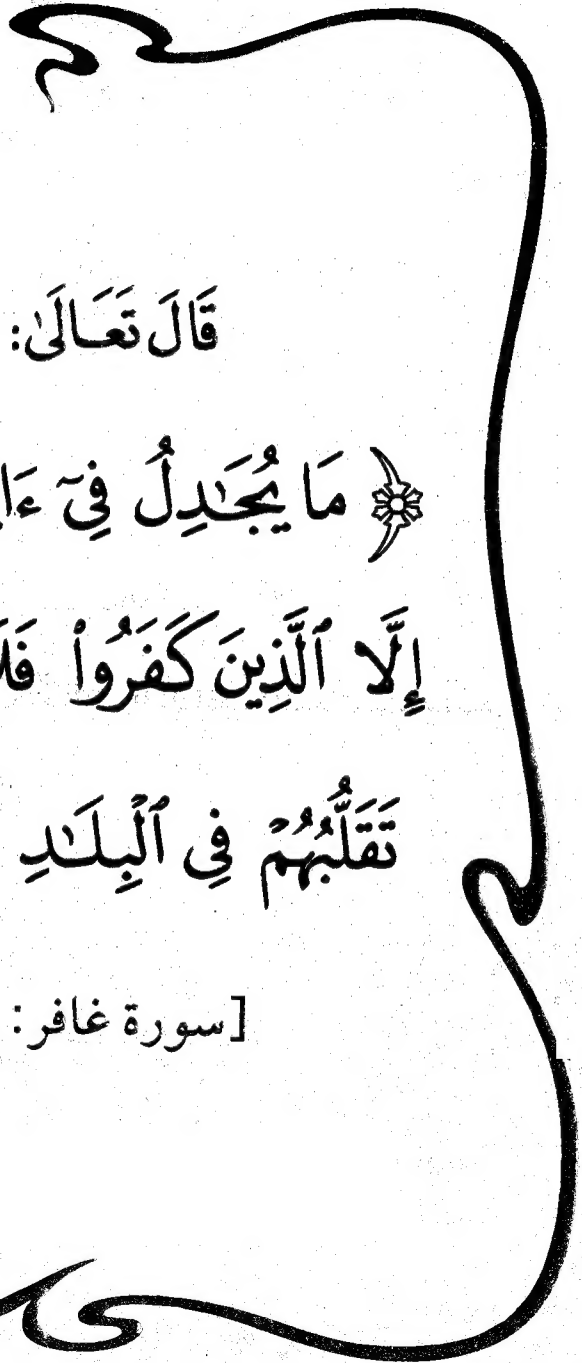
أ- العنوان

٢٢٩، ٢



للنشر والتحقيق والتوزيع

المراسلات
طنطا - شارع المديرية
أمام محطة بنزين التعاون
تليفكس: 3331587
محمول: 0123780573
ص. ب: 477
الرمز البريدي: 31599
موقعا على الإنترنت
www.dsahaba.net



قَالَ تَعَالَى:

﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي ءَايَتِ اللَّهِ

إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ

تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ ﴿٤﴾

[سورة غافر: ٤]

الإعجاز في القرآن

عدة تقع في أحد عشر باباً صُنِّفَ كل باب منها ليُعَرَّضَ من خلاله إعجاز القرآن في عرض آياته وأحكامه لإفحام خصومه في كافة مواقف المعارضة وتفنيده الآراء والتدليل عليها ودفع الهجوم الضاري من خلال عرض قرآني لآفاق الجدل والحوار في القرآن ، وبيان معنى الإعجاز في كافة نواحيه ووجوهه قصصاً وأمثالاً وأحكاماً وغير ذلك من سَوَاقِ العبر وترسيخ قواعد المحاجة وتوثيقها من خلال منظومة بحثية تقوى بها الحجة باللغة في ذلك مداها ، وتتحقق بها النصر ماحقة لنوايا عداها ، وتُطَوَّى بها صفحة الإلحاد في سكونها وصداها ، إنصافاً لهذا الدين الخفيف .

وقد تتبعت في ذلك أصول البحث في ترتيب الأبواب ذهنياً وعلمياً وصولاً بالفكرة إلى الهدف المنشود .

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه والله أوس آخرون وخزرج

الراجعي عفوريه

الشيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مراجعة المصاحف (سابقاً)



الحب والجمال



جمال الدنيا



حول القرآن الكريم

تعريف القرآن :

للعلماء في تعريف القرآن الكريم أقوال منها :

أولاً : ما جاء في مقدمة ابن خلدون :

القرآن : هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف ..
وهو متواتر بين الأمة .

ثانياً : الكتاب أو القرآن :

هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين تبياناً لما به صلاح
للناس في دنياهم وأخراهم . « كتاب التشريع للشيخ على حسب الله » .

ثالثاً : القرآن :

هو الوحي المنزل للإعجاز والبيان . « كتاب إعجاز القراءات القرآنية للأستاذ
صبري الأشوح » .

رابعاً : القرآن :

هو كلام الله المنزل على محمد ﷺ المعجز بلفظه ومعناه والمتحدى بأقصر سورة
منه « كتاب علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القفاني » .

هذا ما وقع عليه اختياري من تعريفات تكاد تكون متفقة وتدور حول التنزيل
والتواتر والإعجاز والتحدى وغيره .

الفصل الأول

أهداف القرآن

من المعلوم أن للقرآن الكريم أهدافاً عظيمة وكثيرة ويمكن إجمالها فيما يأتي:

الهدف الأول :

تعريف الخلق بالخالق الواحد الفرد.. المتفرد بالجلال والكمال والقادر على الإنشاء والإعدام.. المتقرب إليه بالعبادة والموصوف بكل كمال يليق بذاته تعالى المقدسة والآخذ بالنواصي والأقدام.. والمهيمن على كل شيء... والبصير بأمور العباد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الهدف الثاني :

إعلان أن هذا الكون يسير وفق مراد الله تعالى ويدار بإرادة عليا لا تنافس ولا تزاحم ولا يغلبها غالب ولا تختلط عليها الجواهر ولا الأعراض ولا الوسائل ولا الأغراض بيد أنها إرادة الله تعالى.

الهدف الثالث :

بيان أن القرآن إنما أنزل لإصلاح أحوال الناس ؛ ولذلك وردت الأوامر والنواهي بتشريع دقيق يثب على المعروف ويعاقب على المنكر ، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الهدف الرابع :

الإخبار عن الأمم السابقة وأحوالهم مع أنبيائهم ورسولهم مع استخلاص العبر والدروس النافعة.. والتسليم بالقوانين التي تنظم السلوك والمعاملات.. وإظهار المغيب والمجهول عن البشر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

الهدف الخامس :

لفت الأنظار إلى أهمية العمل الصالح وكونه مقروناً بالإيمان وترك الحماقات ، والبغى والعدوان ، والإنذار بإهلاك أهل الضلال ، والوعيد الشديد للظالمين والمنحرفين والمقترفين للمعاصي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

الهدف السادس :

حث الناس على طلب العلم والأخذ بأسباب التقدم والرقى والتفكير في ملكوت السماوات والأرض وحفز الهمم وتفجير كل الطاقات البشرية للوصول إلى المراتب العالية والمقاصد السامية والغايات النبيلة والصفات الكريمة والخصال الحميدة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿طه: ١١٤﴾.

وقال أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

الهدف السابع :

التعريف بالحدود والقصاص وحق النفس والمال والعرض وتحديد المسؤولية..
والجنايات والتعزير والفدية والمعاملات.

الهدف الثامن :

بيان قدرة الله تعالى في الكون: الفضاء والبحار والأجنة ، والحديث عن الإنس والجن
وسائر الكائنات والمعادن والطبائع.

الهدف التاسع :

الدفاع عن الدين والإعداد للحرب ، والجنوح للسلام ، والتفقه في الدين ، وأحكام القضاء والردة والنسب والعدة والأحوال الشخصية .. والعهود والمواثيق .. والمواثيق ..

الهدف العاشر:

بيان التدرج في التشريع ، ورفع الحرج ، وتقليل التكليف ، والسمو بالروح ، والعفو والصفح ، والتربية ، وتنمية وتغذية المجتمعات بالفضائل ، وغرس الأخلاق ، وإصلاح العقائد.



الفصل الثاني

إعجاز القرآن

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

يرجع إعجاز القرآن إلى فصاحة ألفاظه^(١).. وبلاغة أساليبه وخفته على اللسان.. وحسن وقعه في السمع. وأخذه بمجامع القلوب.. وإخباره بالمغيبات ماضية كانت أو مستقبلية.. كما أنه يشتمل على الأخلاق السامية الفاضلة.. والشرعية العادلة الكاملة.. الصالحة لكل الناس في جميع البقاع والأصقاع والأجيال وسلامة القرآن - فوق كل هذا - من التعارض أو التناقض. كما قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢].

ولقد تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز فمن قائل: إن إعجازه في شرف غرضه، وتنوع مقاصده، وإخباره وبيانه، ومن قائل: إن إعجازه في فصاحته الرائعة ومذهبه الواضح.. وأسلوبه الموثوق به فإن الذين تحدوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بلغاء مصادع وخطباء مصاقع، وشعراء فحولاً وفي القرآن من دقة التمثيل والتشبيه، وبلاغة الإجمال والتفصيل وروعة الأسلوب وقوة الحجاج ما يعجز طوق البشر، ويرمى المعارضين بالسكات والحصر.

وقد خص الله تعالى هذه الأمة في كتابهم هذا المنزل على نبيهم ﷺ بما لم يكن لأمة من الأمم في كتبها المنزلة ، فإنه تعالى تكفل بحفظه دون سائر الكتب ولم يكل حفظه إلينا .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وذلك إعظام لأعظم معجزات النبي ﷺ ؛ لأن الله تعالى تحدى بسورة منه أفصح العرب لساناً وأعظمهم عناداً وعتوّاً وإنكاراً فلم يقدروا على أن يأتوا بآية مثله ثم لم يزل يتلى آناء الليل والنهار من ألف وأربعمائة سنة مع كثرة الملحددين وأعداء الدين ولم يستطع أحد منهم معارضة شيء منه . وأى دلالة أعظم على صدق نبوته ﷺ من هذا ؟ .

وأيضاً فإن علماء هذه الأمة لم تزل من الصدر الأول وإلى آخر وقت يستنبطون منه من الأدلة والحجج والبراهين والحكم وغيرها ما لم يطلع عليه متقدم ولا ينحصر لتأخر بل هو البحر العظيم الذى لا قرار له ينتهى إليه ، ولا غاية لآخره يوقف عليه ، ومن ثم لم تحتج هذه الأمة إلى نبي بعد نبيها ﷺ كما كانت الأمم قبل ذلك لم يخل زمان من أزمتهم عن أنبياء يحكمون أحكام كتابهم ويهدونهم إلى ما ينفعهم في عاجلهم ومآبهم . قَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا أَنتُم بِنُورِهِ فَإِذَا تَخَشَعُوا لِفُؤَادِهِ لَخِطَبٌ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤] .

فوكل حفظ التوراة إليهم فلماذا دخلها بعد أنبيائهم التحريف والتبديل .

ومن إعجاز القرآن أنه أدخل ألفاظاً (معربة) لم تكن معروفة عند العرب ففى كتاب

العائلة السامية:

(١) الندوة العالمية - حول ترجمات معاني القرآن الكريم - جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (الندوة العالمية - ليبيا) الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٠٨.

[الأواب: أى المسيح].. [الجبت: أى الطاغوت].. [ورى: أى مضى].. [السكر: أى الخلل].. [شطر: أى تلقاء].. [طه: يا محمد].. [طوى: أى الجنة].. [مشكاة: أى الكوة].. [منسأة: أى عصا].. [الأرائك: أى السرر].

رابعاً، اللغة النبطية :

وأمثلتها: [الأسفار: أى الكتب].. [أكواب: أى الأكواز أو الجراير].. [تبيراً: أى تدميرًا]، [الحواريون: الغسالون أو مبيضو الثياب]^(١).. [حوب: أى إثم].. [رهوا: أى سهلاً دمثاً].. [سفرة: أى كتبة].. [طه: أى يا رجل].. [فردوس: أى الكرم].. [كفر: امح عنا].. [ملكوت: أى الملك].. [وَزَرَ: أى الجبل والمملجأ].

ولا جدال فإن هذه الألفاظ التى أوردتها السيوطى ورتبها الدكتور حلمى خليل باعتبارها (سامية) تكون (عربية) أو (عروبية) والدليل على ذلك أن اللفظ الواحد نجده فى الحبشية مرة.. وفى السريانية مرة أخرى.. وفى النبطية ثلاثة ؛ لأن المصدر واحد واللغة واحدة.

وفى كتاب (فصول فى فقه اللغة) أورد الدكتور رمضان عبد التواب خلاصة خلص بها إلى القول بأن لغة الكتاب العزيز (المعجز) ليست هى لغة قريش وحدها كما يتردد أحياناً فى بعض الكتب والروايات.

وإنما هى ما أسماه (اللغة المشتركة) بين العرب جميعاً ، وإن كانت اللهجة القريشية من أقوى اللهجات أثراً فى تكوين هذه اللغة المعروفة بالفصحى شأنها فى ذلك شأن كل لغة مشتركة ، وذلك راجع إلى عوامل دينية واقتصادية متعددة ، ولا نغالى إذا قلنا: إن أسلوب القرآن الكريم وهو يمثل قمة اللغة العربية المشتركة كان فوق مستوى العامة من العرب كما كان فى بعض الأحيان فوق مستوى الخاصة.

ويروى الباقلاني في (إعجاز القرآن) قصصاً وحوادث توضح بجلاء كيف كان فصحاء العرب ينظرون إلى عظمة أسلوب القرآن.

ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ قول الله تعالى:

﴿وَفِكَهَةٌ أَبًا﴾ [عبس: ٣١] ، وقال: ما الأب؟^(١) ، ثم قال: ما كلفنا أو ما أمرنا

بذلك.. وهذه الرواية لم يكن يعرفها عمر رضي الله عنه مع أنها لفظة عربية أصيلة دون شك بمعنى «الكلاء: أى العشب» ومثال عمر بن الخطاب^(٢) الذى لم يكن يعرف معنى كلمة (أب) في

لفظ ﴿وَفِكَهَةٌ أَبًا﴾ قد ينطبق على عبد الله بن عباس رضي الله عنه الذى رأيناه أول من قال بسريانية أو حورانية بعض ألفاظ القرآن الكريم وتبعه آخرون فالأمر إذن هنا لا يعود إلى عدم عروية هذه الألفاظ ولكنه يعود إلى أن من قالوا بذلك لا يعرفونها.

ومن الممكن بالطبع تتبع كل كلمة قرآنية قيل أنها حبشية أو عبرية أو نبطية أو سريانية ونحوها في المعاجم والقواميس الحديثة بعد أن انكشف سر هذه اللغات وتأصيلها ومقارنتها بما في العربية ولنكتف بقبول مبدأ أن هذه الألفاظ جميعها عربية بمقياس العلم اللغوى التاريخي المقارن.

ولقد خطأ بعض العلماء الآراء القائلة بأن العربية وهى لغة القرآن كانت بحاجة إلى أن تأخذ عن اللغات الأخرى ما لم يكن فيها من ألفاظ ولم يكن الدافع ما ذهب إليه هؤلاء العلماء من نفى العجمة عن الكتاب العزيز من باب التعصب للغة الشريفة ولكن هذا ما يشبه التحقيق والتنقيب والبحث العلمى النزيه.

وقد كانت الأمة العربية في جزيرة العرب التى كانت مصدر الأفواج البشرية وخزائنها

(١) الندوة العالمية ص ١١٥.

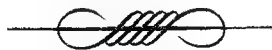
(٢) المرجع السابق ص ١١٦.

الهائل على مر التاريخ وفي الأقطار العربية من الرافدين والشام ومصر وشمال أفريقيا كانت على مدى التاريخ منذ أقدم عصوره تمثل كتلة بشرية واحدة ذات لغة واحدة ، وإن تعددت لهجاتها وتطورت دلالة ألفاظها ، وحين نزل القرآن الكريم على خاتم النبيين ﷺ كانت تلك (اللغة المشتركة) في قمة اكتمالها وذروة نموها فعبرت تعبيراً كاملاً ودقيقاً عن محتويات الأحكام والعبادات بلغة معجزة وأسلوب لا يجاريه أسلوب قط ، ولم تكن بحاجة إلى الاستعارة أو الأخذ والنقل فقد كانت هي النبع الذي صدرت عنه بقية الألسن واللغات المحيطة بها على مر الزمان ، وبذا كان هذا الكمال المعجز في القرآن الكريم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت: ٤٢] . وهذا ما تميزت به لغة الكتاب العزيز.

يقول الدكتور لبيب السعيد في كتابه « الجمع الصوتي الأول للقرآن »^(١) .
وقد قيل: في الهجوم على القرآن وفي محاولة صرف أتباعه عنه.. إنه مكتوب بلغة ميتة لا يستطيع المسلم أن يفهمها إلا بدراسة خاصة ولكن الواقع الذي يللمسه كل ذى بصر بالتاريخ أن الدنيا لم تشهد كتاباً يدانى القرآن في إقبال أتباعه عليه واستعدادهم به وتقريرهم في صدق أنهم دائماً يقرؤونه ويكتبونه ويسمعونه ، وهم مع ذلك لا يملّونه والمشهد: أنهم عرب وغير عرب ، سواء في تعلقهم بالقرآن برغم الجهود المعادية المختلفة الألوان التي كانت وما برحت تبذل لصرفهم عنه ، ومن المؤثر حقاً: أن نرى المسلمين غير العرب يرددون آيات القرآن مغالين لكتبتهم في محاولات غير هينة حتى إذا سمعوه من عربى أصغوا إليه بملء قلوبهم وأسماعهم وعدوها فرصة ثمينة يستديمونها ويستزيدون منها.

يقول الإمام على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في القرآن: «ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم... ونظم ما بينكم».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن». والمعاني القرآنية بمقاصدها المتنوعة تنغيا^(١) حفز الإنسان والأخذ بيده ليتسامى إلى مستوى الجدارة بخلافة خالقه سبحانه وتعالى له في الأرض وتتخذ هذه المعاني لذلك أساليب متعددة وموجهة لكل الأزمنة تتكشف منها روائع من دروب الهداية والإرشاد وحقائق تتجلى لعقول الأجيال، إذ يترقى الجنس الإنساني في معلوماته وأدواته فيدركها. لقد بذل العلماء منذ القرون الأولى غاية الجهد في بيان وجوه إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه، وتتابعت المؤلفات في مجاز القرآن ومعانيه، حتى ليحصى ابن النديم نحوًا من أربعين تفسيرًا للقرآن ومشكله ومجازه، وأربعة عشر كتابًا من غريب القرآن وسننه في لغات القرآن وواحدًا وعشرين من القراءات وخمسة في النقط والشكل وأحد عشر في الوقف والابتداء وخمسة في وقف التهام، وكتابين فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه وثمانية في متشابه القرآن وثلاثة في هجاء المصاحف وثلاثة في مقطوع القرآن وموصله وستة في أجزاء القرآن واثنًا عشر في فضائل القرآن وستة في عدد آي القرآن وثلاثة لأهل مكة وأربعة لأهل الكوفة وثلاثة لأهل البصرة وثلاثة لأهل الشام، كما أحصى ثمانية عشر كتابًا في ناسخ القرآن ومنسوخه وكتابين في نزول القرآن وأحد عشر في أحكام القرآن، وواحدًا وعشرين مؤلفًا في معاني شتى من القرآن «غير ما تتابع بعد ذلك مما لا يحصى عدده ولا عدد مؤلفيه ولا يكاد يمر وقت طويل حتى نأتى من القرآن ببرهان جديد وعلم جديد وفتح جديد».



الفصل الثالث

تأثير العرب به

مما لا ريب فيه أن للقرآن الكريم بما احتوى عليه من بلاغة وإعجاز وبيان قد أثر في العرب تأثيراً كبيراً حتى إنهم وقفوا أمام القرآن وقفة التأمل المسلم بل والعاجز عن الإتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو حتى سورة واحدة مثله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فالقرآن الكريم أصدق بيان وأدق وثيقة تناقلتها البشرية في شتى أبعاد الحياة زماناً ومكاناً فقد تعانقت يا ذن الله كل أسباب الحفظ وكل وسائل الصيانة على الإبقاء عليه بعيداً عن أى زيف وفوق كل اشتباه سواء أكان ذلك بالكتابة في المصحف أم بالحفظ في الصدور أم بالتلاوة الدائمة ليلاً ونهاراً في الصلاة وشتى ضروب العبادة، أو بمراجعة آياته وتمحيصها والبحث فيها عن أحكام الشريعة وسنن الحياة أم كان ذلك عن ترداد النظر فيه من أهل الديانات الأخرى وغيرهم بحثاً عن سقطة أو جرياً وراء عثرة يشنون بها الحرب عليه؛ لذا عرف العرب أن القرآن غالب وجامع فهو يسير في تلاوته لا حوائل فيه ولا موانع هو قريب من كل نفس وكل عقل كما أنه للإنس والجن والخاص والعام.

كما أنه ليس فيه من قضايا وأحكام كما في العلوم الأخرى من أمور مستغلقة أو لف ودوران وإقدام وإحجام وتحليق فوق الحقائق وتشيت للأذهان؛ لذلك ورغم أنف المكابر

الإعجاز في القرآن

١٩

وعتاة الكفر فقد كانوا يخافون من وعيد القرآن وإنذاره لهم وتشهد بذلك روايات كثيرة فعندما نادى رسول الله ﷺ على قريش من أعلى مكة قائلاً: يا معشر قريش، فبادروا إليهم مسرعين متزاحمين حتى وقفوا جميعاً بين يديه ﷺ فحدثهم وعرفهم بوحدانية الله تعالى فصرخ أبو لهب في وجهه ﷺ وقال له متحدياً: تباً لك ، ألهذا جمعتنا؟.

فأنزل الله تعالى الرد السريع في سورة المسد: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد: ١ - ٥].

قال الحميدي: لما سمعت أم جميل زوجة أبي لهب بما نزل فيها وفي زوجها من القرآن.. أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر ﷺ وفي يدها فهر (أى : حجر) ملء الكف من حجارة فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت: إن صاحبك قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، ثم قالت والله إنى شاعرة، وأخذت تقول:

مذمماً عصينا.. وأمره أبينا.. ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأيتك؟ قال: « ما رأيتى لقد أخذ الله ببصرها عني » وتحقيق هذا الأمر أنه كان من الطبيعى أن لا تدخل امرأة في هذه المعركة لأن التحدى موجه للرجال - المعارضين من زعماء قريش - فكون القرآن أتى بالظعن في امرأة أبى لهب دليل على أن هناك حدثاً هاماً أدى إلى هذا الموقف وهو أنها قالت: مذمماً عصينا.. وأمره أبينا..

وهذا ذم صريح ومعلن للرسول ﷺ فأدخلت بذلك نفسها في أتون تلك المعركة فعلياً، فأنزل الله تعالى ما يؤكد به مساندته لرسوله ومعاداة من يعتدى عليه ، فلما سمعت

❦❦❦ الإعجاز في القرآن ❦❦❦

٢٠

هذه الآيات وأنها نزلت في حقها وحق زوجها ذهبت إلى الكعبة وكان أبو بكر جالساً فقالت: أين صاحبك؟ وكان النبي ﷺ بجواره فقال أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال له: ما أرى أنها أتت إلا للإيذاء فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله عصمني منها».

ثم عادت لتسأل: أين صاحبك يا أبا بكر؟ فلم يرد عليها، فهل أصابها عمتي لم تر معه النبي ﷺ وهو أمامها، في الحقيقة لا ولكن السبب هو أن الله جعل بينها وبينه حجاباً مستوراً مع أن كل أسباب الإيذاء موجودة ولم يتحقق أصل هذا الحجاب أكان مرثياً أم لم يكن مرثياً فالحجاب موجود ولكنه مستور ومن طبيعة الحجاب أن يستر ما خلفه فلماذا وُصِفَ هذه المرة بأنه مستور.

والجواب على ذلك: بأن الحجاب نفسه كان مستوراً فلم تره امرأة أبى لهب وهذا هو الأبلغ ولو أعماها الله تعالى لادعت أن العجز ليس بسببها ولكنه أمر خارج عن إرادتها فتركها على حالتها ليثبت عجزها وضعفها مع القدرة على التحدي.

كما ذكر القرآن كذلك نوعاً من التحدي الكوني والذي عجز العرب عن فهم حقيقته ليجدوا أنفسهم أمام سبق علمي لم يصل إليه أحد - هذا إذا جاز التعبير وإلا فهو علم إلهي وقدرة إلهية - كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] فكون السماء مرفوعة فهذا شيء طبيعي، أما كونها ترفع بعمد والعمد لا ترى فهذا مكنن الإعجاز وبيان أثر القرآن في النفوس المؤمنة بتحويل الأفراد من جحودهم، وكفرهم إلى كونهم قادة وزعماء في الإسلام، وإذا كان الإعجاز في حقيقته هو كون أسباب القدرة موجودة بالفعل ثم تسلب هذه القدرة - ليس هذا عبثاً وإنما هو تحقيق لمراد الخالق.

وفي موقف آخر حينما أخذ المشركون يتشاورون فيما بينهم عمن يرسلونه إلى الرسول ﷺ ليحدثه في الأمر الذي يدعو إليه ووقع اختيارهم في إرسال (الوليد بن المغيرة) عظيم مكة وكان يلقب بالوحيد وهو القائل أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لي في العرب نظير

إليه حزينا؟ فقال له الوليد : مالى أراك حزينا؟ فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن ألى كبشة وابن ألى قحافة لتنال من فضل طعامه فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه وانتم تعرفون قدر مالى واللات والعزى ما بى حاجة إلى ذلك.

وانما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا لا والله.. قال : وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا لا والله قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله ، قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، والله لقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا لا والله.

فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكر في نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فنزل فيه قول الله تعالى:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ ﴾ ١١ حتى : ﴿ عَلَيْنَا تِسْعَةُ عَشْرَ ۖ ﴾ ٣٠ [المذثر ١١ : ٣٠]

فهذه الآيات المكية عليها طابعها الخاص من الجزالة وقصر الفقرات وخشونة الخطاب.. وكلمات الزجر والتخويف ؛ لذلك كان جل اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم البحث في آياته وحفظه وأسباب نزوله وشرح قضاياه وأماكن نزوله حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه : «والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت.. ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فى أى شئ نزلت ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

وقال أيوب: « سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل.. وأشار إلى (سَلْع) » كذلك كانت عنايتهم بكتاب الله حتى عدّوا آياته وحروفه ، بل عدّوا كل حرف فيه ، واتفقوا على أن بالقرآن تسعاً وعشرين سورة مدنية ، وإحدى وسبعين سورة مكية ، وأربع عشرة سورة مختلفاً فيها بين مكية ومدنية ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ شأنه فىنا أى عظم شأنه فىنا.

وقد ذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ :

﴿ فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

فسجد الأعرابي ، وقال : سجدت لفصاحته وسمع رجلاً آخر يقرأ :

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠].

فقال الرجل : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي أنه سمع جارية فقال لها : ما أفصحك ، فردت : أو يعد هذا فصاحة

بعد قول الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا

تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين وحكى يحيى الغزال : أنه رام شيئاً من معارضة القرآن فنظر في واحدة من ثلاث هن أقصر السور في القرآن عدد آياتها ثلاث وحاول أن ينسخ على منوالها فرجع قائلاً : اعترنتي منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

وروى أن نصرانياً مر بقارئ فوقف يبكي فقبل له : لم بكيت ؟ قال : للشجاء والنظم.

وسئل الإمام جعفر الصادق :

(لم صار الشعر والخطب يمل منها والقرآن لا يمل ؟)

فأجاب : لأن القرآن حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الأول ، فكل طائفة تراه عصرًا جديدًا ؛ ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه في كل مرة علومًا غضة ، وليس هذا كله في الشعر والخطب.

وسمع أحد اللصوص قارئ الفجر يقرأ :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] ،
فعاد عما كان قد نواه من السرقة ، وقال : قد آن يا رب قد آن يا رب .

ولكن لماذا كان القرآن معجزاً ؟

كلمة إعجاز مصدر : أعجز إعجازاً فهي اسم مصدر وكلمة «أعجاز» بفتح الهمزة جمع
«عَجَزَ» بضم الجيم قَالَ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٌ ۝٧﴾ [الحاقة: ٧] مادتها اللغوية
من عجز أما عَجَزَ الشيء بإسكان الجيم فهو مؤخرته .

وعَجَزَ بفتح الجيم: أى ضعف والعلاقة بينهما أن المؤخرة فيها معنى الضعف - وسميت
المرأة بالعجوز لضعفها عن أداء مهمتها أو عن القيام بمهمتها، ومنها دعاء النبي ﷺ
«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...» .

إذاً فمادة «عجز» تدور حول الضعف وهى إما عجز أو أعجز - أى ضعف أو أضعف
يضعف أو يضعف أو يعجز أو يعجز غيره - ، ومعنى هذا فإن إعجاز القرآن هو إضعافه
لغيره بإضافة المصدر إلى المفعول بإظهار ضعف الذين نزل عليهم ، وهذا من معجزات
النبي ﷺ .

والمعجزة : هى أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعى النبوة .

والقرآن : هو كلام الله المنزل على قلب نبينا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدّى بأقصر
سورة منه ، وبعضهم قال : هو كلام الله من الفاتحة إلى الناس .

وقال بعضهم :

اللفظ المنزل لأن التوراة والإنجيل كلام الله ، فالقرآن مُعْجَزٌ أعجز غيره بدليل أن من
حاول إعجاز القرآن أعجزه الله .

مراحل التحدى : مرّ القرآن الكريم بعدة مراحل على ما يأتى :

الأول: تحدّاهم بالإتيان بمثله فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٣) **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** (٢٤) ﴿ [الطور ٣٣: ٣٤] فهذا أول إعلان عن التحدى فى سورة الطور وهى سورة مكية.

الثانى: تحدى بعشر سور منه فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٣) ﴿ [هود: ١٣].

الثالث: تحدى بسورة من مثله قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعَمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) ﴿ [يونس: ٣٨].

الرابع: تحدى بسورة من مثله قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) ﴿ [البقرة: ٢٣].

وقوله: ﴿ وَإِنْ ﴾ تفيد الشك ولم يقل (إذا) لأنهم ليسوا صادقين - أى إن كنتم صادقين وجواب الشرط ﴿ فَأْتُوا ﴾ و﴿ فَلْيَأْتُوا ﴾ دليل.

الجواب : ولم يقل الله تعالى ﴿ فَأْتُوا ﴾ بقرآن لأن التقول جمع أقاويل أى : أساطير وأكاذيب الأولين - كما أن التقول أيضًا معناه الحديث والحديث محل التقول والقيـل أما القرآن فليس محل التقول ولا القيل.

وما يقولون يابى الله تعالى أن يكون قرآنًا ؛ لأنه ليس محلاً للتقول ، ومعنى التقول: هو كلام ليس له حقيقة وهو الأساطير والأكاذيب عندما عجزوا عن التحدى الكلى ومعلوم أن سورة هود مثلاً مكية قبلها تسع سور وهى العاشرة ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ

مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴿ [هود: ١٣] .

وقلتم إن الجن يساعده وإن السحرة تعاونه فاجعلوهم يعاونوكم كما كانوا يعاونوه واستعينوا بهم ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ أى كله - ليس هذا فقط - إنما ﴿ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ واستعينوا بهم على الإتيان بمثله - لذا سجل التحدى عليهم فقال:

﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾ ﴿ [الإسراء: ٨٨] .

الفرق بين المثل والتشبيه في القرآن :

أتى القرآن بالمثل ولم يأت بالتشبيه ، قال في شأن الجنة : ﴿ وَأَتُوا بِهِمْ مِّثْلَهَا ﴾ ﴿ [البقرة: ٢٥] وفي شأن البقرة ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ ﴿ [البقرة: ٧٠] .

والمثلية : هى التطابق بين أفراد الجنس جميعها في كل مراحل التحدى .. أما التشبيه فهو إلحاق المشبه بالمشبه به لوجه جامع بينهما فتقول : قص القرآن ولا تقول : حكى القرآن لأن الحكاية معناها: التشابه بعد أكثر من استفهام.

أما المشاكلة: فهى اشتقاق شئ من مثله فمادة الإتيان استعملت دون غيرها فلم يقل: احضروا أو تعالوا - والإتيان لا يكون إلا عن ملك تام - والعطاء يكون من بعض الملك .. ونرى من إعجاز القرآن الفرق فى العرض القرآنى بين الزوجة والمرأة فعندما يتدخل عامل العقيدة فى حالة الانفصال العقيدى يأتى لفظ (المرأة) كقول الله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ ثَوْبٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ ﴿ [التحريم: ١٠] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ ﴿ [التحريم: ١١] وهو ظاهر فى كونه مثلاً مضروباً للقراءة ثم يأتى نفس اللفظ (المرأة) فى مقام الاتفاق

العقيدى بشكل وعرض مغاير يفهم من السياق دون لبس كما هو واضح في قول الله تعالى:
﴿وَكَانَتْ أَمْرًا نِيَّ عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، وكقوله أيضًا: ﴿إِذْ قَالَتِ أَمْرًا عَمْرَنَ رَبِّ
إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

وأيضًا: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتُ نَفْسَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وهو أسلوب مناسب للبداءة والسمة العامة لحياة المتحدث عنهم - ثم يأتي لفظ:
الزوجة والزواج ليتغير مفهوم الخطاب دالاً على الرابط والواقعية والميثاق الغليظ وما يترتب
عليه من آثار.

كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُمْ
وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله: ﴿تَبْلَغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ وأيضًا: ﴿إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾
[التحريم: ١: ٣]، و﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ﴾ [التحريم: ٥].

وكقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

أسباب تكذيب العرب:

كذب العرب القرآن الكريم لأنه سفه أحلامهم وعقائدهم وأصنامهم ، ولم يحاولوا
الرضوخ في الإنصات لندائه وتوجيهاته النافعة - وكان أن بذلوا قصارى جهدهم للقضاء
على هذا الدين وعلى كل ما يؤيده ويرسخه فادَّعوا تلك الادعاءات :

أولاً: أن الرسالة لم تأت على يد زعيم من قريش وإنما جاءت بدعوى فقير يتيم.. وكان
هذا - على زعمهم - مدعاة للسخرية والاستهزاء بصاحب هذه الرسالة.

ثانياً: أن صاحب هذه الرسالة إما شاعراً أو ساحراً أو كاهناً وبالأحرى فهو صاحب

مصلحة.. وبما أنه كذلك في فهمهم واعتقادهم فلا مانع من عرض المصالح عليه فأرسلوا (الوليد بن المغيرة) إليه لهذا الغرض ولم يفلح الوليد؛ لأن محمداً ﷺ أثبت لهم بالفعل أنه لم يكن طالب دنيا ولا صاحب مصلحة وإنما هو رسول من عند الله.

ثالثاً: ادعاهم بأن هذا القرآن إنما يتلقاه الرسول ﷺ من عند بشر وكذب القرآن هذا الادعاء قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانُ عَرِيبٍ مُّثَبِّتٍ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال كذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [٤١] لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

ولو كانوا صادقين لأتوا بمثله واستراحوا؛ ولكن هيهات هيهات!!

وإذا كان البعض يقول: إن التاريخ ذكر الذين آمنوا ولم يذكر الذين عارضوا؟.

فإن الرد عليهم: هو أن التاريخ شاهد عدل فإن عمرو بن العاص لما قابل مسيلمة الكذاب قال له بجلاء: «إني أعلم أنك تكذب» لأن عمراً علم بأن القرآن ليس من ملكة العرب أو ليس من المملكة العربية، وهذا حق فلقد وصف الله ﷻ القرآن بأوصاف ذاتية فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِثْقَالِي نَقْشِيرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَنْتُمْ فِي

يَا أَهْلَ كُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ [يوسف: ٩٣].

فالسباق كما في الآية الأخيرة يدل على معنى الرجوع فكأنه قال: ارجعوا ولكنه عدل عن السياق بقوله: اذهبوا ؛ لأن الرجوع لا تصحبه عودة أما الذهاب فلا بد بعده من الرجوع وعليه جرت الأحداث وإذن: فدعاوى العرب - تلك - ليست منطقية ولا عقلية وإنما خاطروا بهذا الكلام حقداً على الدين - كما سبق - وإلا فلماذا صدقوا أشياء لم يروها بالمعينة كوصف الرياح مثلاً بأن منها ذكراً والتي كما قال تعالى واصفاً لها :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

واللقاح لا يكون إلا بين جنس مذكر وجنس مؤنث - كما صدقوا بنزول المائدة على بنى إسرائيل مع أنهم لم يروها كما قال تعالى:

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧].

وغير ذلك مما رأوه من سنن كونية وتاريخية وطبيعية.

وهكذا تأثر العرب بعظمة القرآن وترك كثير منهم الشعر بعدما تجلت لهم تلك العظمة وضعف شعر حسان بن ثابت بعد أن تمكن القرآن من وجدانه وملك عليه مشاعره ، وهذا هو السر المكنون في كتاب الله.



الفصل الرابع

روايات منصفة قيلت في القرآن

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

(جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن وجميع القرآن شرح لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا).

وقال سفيان الثوري رحمه الله :

(لا يجتمع فهم القرآن والاشتغال بالحكام في قلب مؤمن أبداً).

وقال عبد العزيز بن يحيى رحمه الله :

(مثل القرآن مثل الأسد لا يمكن من غيله سواه).

وقال ذو النون المصري رحمه الله :

(أبى الله عبيده إلا أن يحرم قلوب الباطلين مكنون حكمة القرآن).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى :

﴿ أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] قال : القرآن .. يقول أرشدنا إلى علمه.

وقال الحسن البصري رحمه الله :

(القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال).

وقال ابن مسعود أيضاً :

(من أراد العلم فليثور القرآن - أى لينقر عنه - فإن فيه علم الأولين والآخرين).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

(لو أردت أن أملئ وقر بعير على الفاتحة لفعلت).

وقال سهل بن عبد الله رحمته الله :

(لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه لأنه كلام الله.. وكلامه صفته وكما أنه ليس لله تعالى نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه.. وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة).

وقال أبو هلال العسكري رحمته الله :

(عجز الخلق عن فهم محاسن القرآن.. وتحيرت عقولهم فيها).

وقال السكاكي رحمته الله :

(إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ولا يمكن توصيله لغير ذوى الفطرة إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والحدق فيها).

وقال الرماني رحمته الله :

(إن إعجاز القرآن في بلاغته التى يتوصل بها إلى المعانى ومنها إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ).

وقال الخطاى رحمته الله :

(لا نرى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا نرى نظماً أحسن تأليفاً.. وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها.. والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.. وقد توجد هذه الفضائل

متفرقة في أنواع الكلام.. فإما أن توجد مجموعة فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً).

وقال الأستاذ / مصطفى صادق الرافعي رحمه الله :

(آيات منزلة من حول العرش^(١)) ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب، بل هي الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم، وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فافتحم أفعالها، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالهـا، وكم صدوا عن سبيله صدأ؟ ومن ذا يدفع السيل إذا هدر؟.

واعترضوه بالألسنة ردّاً! ولعمري: من يرد على الله القدر؟ وتحاطروا له بسفهاثهم كما تحاطرت الفحول بأذنان، وفتحوا عليه من الحوادث كل شديق فيه من كل داهية ناب، فما كان إلا نور الشمس لا يزال الجاهل يطمع في سرابه، ثم لا يضع منه قطرة في سقائه، ويلقى الصبى غطاءه ليخيفه بحجابه ثم لا يزال النور ينبسط على غطاءه، وهو القرآن - كما ظنوا - مما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر، كل ظن في الحقيقة آثم، بل كل ظن بالحقيقة كافر، وحسبوه أمراً هيناً لأنه أنزل في الأرض على بشر، كما يحسب الأحق في هذا السماء أرضاً ذات دواب نورانية.. لأن هلاها كأنها سقط من حافر.

وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل، وأثاروا من الباطل في بيضاء ليلها كنهارها ليجعلوا نهارها كالليل، فما كان لهم إلا ما قال الله ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

لا جرم أن القرآن سر السماء فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون، وظلت آياته تلقف ما يافكون، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

قال القاضي عياض رحمه الله :

(رام ابن المقفع معارضة القرآن.. فسمع صبياً يقرأ: ﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَتْلَعِي مَاءَكَ
وَيَسْمَاءُ أَتْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

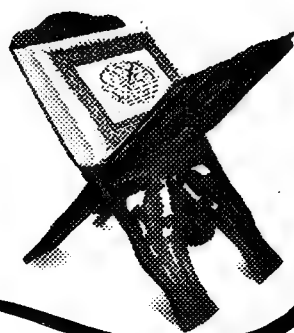
فرجع ومحا ما عمل ، وقال : (أشهد أن هذا الكلام لا يعارض ، وما هو من كلام
البشر!) .. وابن المقفع متهم بالمجوسية والزيغ .





الحب والجمال

الحب والجمال



الفصل الأول

معنى الجدل^(١)

للجدل معانٍ ومشتقات كثيرة عرفها علماء الأصول والفروع منها:

- ١- الجدل: هو: (دفع الخصم بحجة أو شبهة).
 - ٢- الجدل: هو: (تحقيق الحق ، وتزويق الباطل).
 - ٣- الجدل: هو: (نظر مشترك بين اثنين).
 - ٤- الجدل: هو: (طلب الحكم بالفكر مع الخصم).
 - ٥- الجدل: هو: (إظهار المتنازعين مقتضى نظريتهما على الترافع والتنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإثارة والدلالة) ، وهذا ما اختاره الجويني.
- وقد دفع بعضهم بأن المنقطع والمستمر في محاوره وكلام خصمه يعد مناظرة لا مجادلاً وإن لم يدفع خصمه بحجة أو شبهة.
- وحاول الجويني افتراض وجود علاقة قائمة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للفظ «الجدل» فشرع في توجيه هذا السؤال:

س: إن قيل: ما وجه تنزيل حد العلماء للجدل على معناه في اللغة؟

وأجاب بقوله: إن قلنا: إنه في اللغة للإحكام وكل واحد من الخصمين يحاول كشف صحة كلامه لصاحبه وإسقاط كلام صاحبه جملة سمي «متجادلين».

إنه مأخوذ من القتل كقولهم: حبل جديل فيكون ذلك واقعاً بين طرفي الحبل.. فقيل: يقع بين الخصمين جدال؛ لأن كل واحد يقتل صاحبه عما يعتقد.

إلى ما هو صائر إليه.

وإن قلنا: إنه في اللغة مأخوذ من الضرب بالأرض بالمصارعة يقال: جدلته فانجدل وتجدل إذا ضربته على الجدالة وهي الأرض المطمئنة الصلبة المحكمة.

فيكون كل واحد من الخصمين يروم صاحبه بإسقاط كلامه بتقوية كلام نفسه عليه كالمتصارعين يروم كل إسقاط صاحبه بغلبته وقوته عليه.

الجدل في اصطلاح الفلاسفة:

هذا وقد تواترت آراء الفلاسفة حول المعنى الاصطلاحي للجدل على ستة آراء:

يقول الفارابي: «صناعة الجدل: هي الصناعة التي بها يحصل الإنسان القوة على أن يعمل من مقدمات مشهورة قياساً في إبطال وضع موضوعه كلي».

ويقول ابن رشد: «هذه الصناعة هي بالجملة الصناعة التي نقدر بها إذا - كنا سائلين - أن نعمل من مقدمات مشهورة قياساً على إبطال كل وضع يتضمن المجيب حفظه - وعلى حفظ كل وضع كلي يروم السائل إبطاله إذا كنا مجيبين» ويفسر ابن رشد هذا التعريف بقوله: ولذا كان اسم الجدل عند الجمهور إنما يدل على مخاطبة بين اثنين يقصد كل واحد منهما غلبة صاحبه بأي نوع اتفق من الأقاويل.

ويقول الجرجاني: «الجدل هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض من إلزام الخصم وإقحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان».

كما يقول في رأي آخر: «الجدل هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة.. أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة، أما الجدال: فهو عبارة عن مرء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها».

ويقول أبو البقاء: «الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن قوله بحجة أو شبهة وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده».

مشتقات اللفظ (جَدَل)

(١) القاموس المحيط للفيروزابادی ... ج ٣ دار إحياء التراث العربی ... بیروت لبنان ص ٥٠٨.

الشاه المثنية الأذن، وشقشقة جدلاء: مائلة.

والجدلة: مدقة المهراس، والجدل: القبر وذهب على جدلائه: على وجهه وناحيته وكأمر فحل للنعمان بن المنذر. وأجدلت الظبية مشى معها ولدها.. انتهى..

وفي الجدال إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في كل شيء وقد يصل به الحال إلى الجدال في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وأحكامه وأسمائه وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم والمخاصمة معهم في كل شيء، وطبيعي أن يسهم هذا في المباحكات العلمية المخلوطة بالجد والهزل والتعصب وقد عاب فريق من الناس الاستدلال والبحث والنظر والجدال واحتج هذا الفريق بوجوه:

أحدها: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهذا يقتضى نفى جميع أنواع الجدال.. ولو كان الجدال في الدين طاعة وسبيلاً إلى معرفة الله تعالى لما نهى عنه في الحج وهو ركن ثابت من أركان الإسلام.. بل على ذلك التقدير كان الاشتغال بالجدال في الحج ضم طاعة إلى طاعة فكان أولى بالترغيب فيه.

وثانيها: قول الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

[الزخرف: ٥٨] عابهم بكونهم من أهل الجدل وذلك يدل على أن الجدل مذموم.

ثالثها: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُفْسَدُوا وَيَمْلَأُوا صُلُوحَكُمْ وَأَصِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الضَّالِّينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] ففيها نهى عن المنازعة.

ولكن جمهور المتكلمين ردوا على هذا بقولهم: إن الجدل في الدين طاعة عظيمة

واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ [النحل: ١٢٥].

وبقوله تعالى حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُّنَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] ومعلوم أنه ما كان ذلك الجدال إلا لتقرير أصول الدين.

وللتوفيق بين هذه النصوص:

نقول: بحمل الجدل المذموم على الجدل في تقرير الباطل وطلب المال والجاه.. والجدل المحمود على الجدل في تقرير الحق ودعوة الخلق إلى سبيل الله.. والذبّ عن دين الله تعالى وفي هذا حسم للخلاف.. وبداهة فإن النصوص يتقرر بها فهم المسائل الجوهرية والمتعلقة بدوافع مختلفة كلٌّ لمعرفة مراده.



الفصل الثالث

هل المناظرات من الجدل؟^(١)

الواقع أن بين الجدل والمناظرة عموم وخصوص.. فهما يتفقان من جهة كونهما يرسلان سهام الاحتجاج ودحض آراء الخصوم عندما ينشب خلاف فكري أو عقلي بين العلماء.. كما أنهما يقطعان طريق اللجاجة من جهة الخصوم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة.

ويختلفان من حيث إن الجدل هو محاولة السعى لإدراك حقيقة من الحقائق وإعمال الفكر الفلسفي والكوني وبلورة ذلك في نقول الصور والأخيلة ويزداد ذلك بازدياد المدنية والحضارة وبروز المسائل الخلافية التي تتولد منها الخلافات المذهبية فلسفية كانت أو دينية.. أما المناظرة فإنه يراد بها تحديد أهداف وقواعد وآراء للجدل وتنظيم أدبيات البحث من حيث الاعتراض وعدمه ومتى يجب الكلام والسكوت.. ومن هنا فقد عنى علماء الإسلام بالجدل والمناظرة عناية شديدة من يوم أن نشأت الخلافات بين علماء الأمة حتى انتهت عنايتهم بوضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة لكي يكونا في دائرة المنطق والفكر المستقيم وأسما ذلك «علم الجدل» أو علم أدب البحث والمناظرة كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته بقوله:

(وأما الجدل فهو معرفة آداب المناظرة التي تجرى بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم.. فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا أحكاماً وآداباً يقف عندها وعند حدودها المتناظران في الرد والقبول

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ١، ٢ دار الرّيّان. بتصرف.

وكيف كان حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ، ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ؛ ولذلك قيل فيه : إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأى أو هدمه سواء كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره وأول من كتب فيه البزدوى والعميدى).

اتجاهات مختلفة

الاختلاف بين الناس قديم قدم الإنسان^(١) في هذه الأرض ونشأ عندما أخذ الإنسان ينظر إلى عظمة وتماسك هذا الكون المشيد البديع فأخذته الدهشة والحيرة في إدراك كنه الكون وحقيقته وما أبدعه الله فيه ، وإذا كان العلماء يقولون : إن الإنسان من يوم نشأته أخذ ينظر نظرات فلسفية إلى الكون فلا بد من القول :

إن الصور والأخيلة التي تثيرها تلك النظرات تختلف في بنى الإنسان باختلاف ما وقعت عليه أنظارهم وما أثار إعجابهم وكلما خطا الإنسان خطوات في سبيل التقدم المدني والحضارى اتسعت فرجات الخلاف حتى تولد من هذا الاختلاف المذاهب الفلسفية والديانات غير المنزلة.

وترجع أسباب الخلاف إلى حقائق منها :

ذات الموضوع .. محل النزاع .. الاختلاف .. تباين الأمزجة .. اختلاف الاتجاه .. التقليد والمحاكاة .. عدم اتفاق المدارك .. حب الرياسة .. الأوهام .. التعصب ..

ذات الموضوع :

لقد تصدى الفلاسفة من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة في ذاتها لم تكن بالطبع معبدة الطرق ، فكل يهتدى إلى ما يميل إليه ويهواه وما تقع عليه عيناه وما يحقق له

هدفه ، وفي هذا المقام قال أفلاطون: إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه ، ولا أخطئوه في كل وجوهه ، بل أصاب كل إنسان جهة .

ومثال ذلك : عميان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل منهم جارحة منه فجسها بيده ومثلها في نفسه فأخبر الذي مس الرجل أن خلقة الفيل طويلة مستديرة شبيهة بأصل الشجرة ، وأخبر الذي مس الظهر أن خلخته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة .

وأخبر الذي مس أذنه أنه منبسط دقيق يطويه وينشره فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك وكل يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والجهل فيما يصفه من خلقة الفيل ، فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حتى فرقهم .

وإنه أيضاً من الموضوعات التي يسبب غموضها الاختلاف «حقيقة النفس» و«حقيقة المنشئ للكون في فترة من الرسل» و«مسألة صفات الله سبحانه وتعالى» .

محل النزاع :

كثيراً ما يختلف المتجادلان ويشتد بينهما الخلاف لأن موضوع النزاع غير معين .

وكان سقراط يقول : إذا عرف موضوع النزاع بطل كل خلاف ؛ وذلك لأن كلا المتناظرين المختلفين في طلب الحقيقة يقع نظره على ما لا يقع عليه نظر الآخر ويبني حكمه على ما وقع عليه نظره فكانه في الحقيقة لم يتلاق مع خصمه في موضوع وذلك كما إذا رأى أحد الناظرين وجهاً لقرطاس فحكم بما رأى .

ورأى الآخر وجهاً آخر فحكم بما رآه ، وكذلك كان سقراط يعنى كل العناية بدلالات الألفاظ ليفهم كلا الخصمين كلام الآخر فيتلاقيا في نقطة واحدة وعندئذ ينحسم الخلاف» .

الاختلاف :

قال اسبينوزا : إن الرغبة هي التي ترينا الأشياء مليحة لا بصيرتنا وإذا كانت الرغبة

الإعجاز في القرآن الكريم

تستولى على مقياس الحسن والقبح على النفس ذلك الاستيلاء كما قال ذلك الحكيم ،
ورغبات النفس مختلفة متضاربة فلا بد إذن من أن يختلفوا باختلافها وتباين آرائهم لتباين
رغباتهم.

تباين الأمزجة :

قال ويليام جيمس : «إن تاريخ الفلسفة هو تاريخ التصادم بين الأمزجة البشرية..
وهذا الاختلاف بين الأمزجة له أيضًا شأنه في ميدان الأدب والفن والحكومة..» .

وذلك قول حق فإن كثيرًا من اختلاف الآراء سببه اختلاف أمزجة القائلين لها ، فذو
المزاج العصبي الحاد يرى مالا يراه الورع الهادئ ، وإذا كانت الأحوال العارضة للإنسان
من هدوء أو غضب واستقرار واضطراب تجعل آراءه مختلفة باختلافها فلا بد أن يعتقد أن
اختلاف شخصين في المزاج داع لكثير من اختلافهما فيما يذهبان إليه من آراء.

اختلاف الاتجاه :

القياسات مختلفة الأنواع.. كثيرة الفنون.. كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم
وقوانينها مثال ذلك:

أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء ، ولا قياس المنجمين يشبه قياس
النحويين ولا المتكلمين ، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين ، وهكذا قياس
المنطقيين في الرياضيات لا تشبه قياسات الجدليين ، ولا تشبه قياساتهم في الطبيعيات ولا
الإلهيات ، وإذا كان لكل علم أقيسة خاصة به فمن غلبت عليه أقيسة علم إذا بحث في
موضوع مع صاحب علم آخر يختلف نظراهما ، وكل ينبعث في تفكيره روح علمه ،
واعتبر ذلك بالخلاف بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين في مسألة خلق القرآن فإن الاختلاف
بينها كان سببه اختلاف مناهج البحث أو بين عقليتين مختلفتين ، إحداها تستنبط القواعد
من الآثار كما تستنبط الأحكام العملية ، والأخرى تسير وراء العقل مهتدية به ، كما أنها
تندفع في تياره.

التقليد والمحاكاة :

كثيراً ما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليد آبائهم ونعى عليهم إهمال العقل في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولا تزال نزعة تقليد السابقين في نفوس الناس وإن كانوا يتفاوتون فيها قوة وضعفاً وإن سلطان الأفكار التي أكتسبتها الأجيال قداسة يسيطر على القلوب فيدفع العقول إلى وضع أقيسة وبراهين لبيان حسننها وقبح غيرها ، وطبيعى أن يدفع ذلك إلى الاختلاف والمشاخنة والمجادلة غير المنتجة ؛ لأن كلاً يناقش وهو مغلول بقيود الأسلاف من حيث لا تشعر ولو فككت قيود المتناظرين للاح لهما وضوح الحق المبين وأشد ما يكون الاختلاف بسبب التقليد في المسائل الاجتماعية.

عدم اتفاق المدارك :

منح الله بعض الناس عقلاً راجحاً وبصيرة نافذة وفكراً ثاقباً يدرك الموضوع من كل نواحيه ، ويلم بظواهره وخوافيه ، وأعجازه وقوافيه ، وبعضهم فيه قصور نظر ، فلا يستطيع إحاطة الموضوع بنظرة شاملة وفي فكره قصور ، فلا يدأب في البحث عن الحقيقة إلى النهاية ولا بد أن تختلف النتائج التي يحصل عليها من كان على هذه الشاكلة عن الآخر الذي يحصل على نتائج معاكسة .

وقد جاء في رسائل إخوان الصفا: إنك تجد كثيراً من الناس يكون جيد التخيل ، دقيق التمييز سريع التصور - ذكُوراً - ومنهم من يكون بليداً بطيء الذهن أعمى القلب ، ساهى النفس ، فهذا أيضاً بعض أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب لأنه إذا اختلفت

إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك.

حب الرئاسة :

كثيراً ما يدفع الغرض ذا السلطان إلى الأخذ بآراء ساقته إليها رغبة ملحة جامعة ويحمل كثيراً من العلماء الذين جعلوا قلوبهم سلعة تباع بثمن بخس على المناذاة بها والمجادلة لنشرها، وقد يندفع هؤلاء في دعوتهم حتى يخيل إليهم أنهم مخلصون فيما يدعون إليه أو أنه محض الحق والصواب وينبرى للرد عليهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فندبوا أنفسهم للزود عن الحقيقة وحفظ دمارها، فتكون بين الفريقين نار مشبوبة وربما يكون من وراء ذلك فتنة في الأرض وفساد كبير.

وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي رجل منافق عليم اللسان، غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه، ويضلهم بجهله وقلة معرفته»^(١).

الأوهام :

تستولى على كثير من الناس أوهام تجعلهم يسلمون بأفكار غريبة في ذاتها وهم باعتنائهم لها يخالفون من لم يقعوا تحت تأثير أوهامهم.. وليست تلك الأوهام مقصورة على العوام بل إنها قد تكون في أشد أحوالها عند بعض خواص العلماء.

ولقد قال بعض الحكماء الأوربيين: إن خيرة العلماء ينسون قواعد العلم ومناهجه حينما يكونون إزاء حوادث السحر.. وما ذلك إلا لسلطان الأوهام.

التعصب :

إذا تغلبت على الإنسان فكرة فتجتاز عقله وتسيطر عليه وتمنعه من أن تصل إليه فكرة تناقضها، أو خاطرة تنازعها تهتاج أعصابه ويثور ثورته إن هوجم فيها، ومنشأ هذا

(١) صحيح : رواه أحمد (١٤٣)، ورواه صاحب كنز العمال (٢٨٩٦٩)، انظر : صحيح الجامع رقم

(٢٣٩) ولفظة : [إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان] .

التعصب الثائر إما قوة الإيمان بالفكرة ، أو أعصاب ضعيفة تمنع من إدراك ما لم يشب إليه أولاً ، أو غرور وخيلاء ، وحيثما كان التعصب لزمته المجادلة أو المكابرة .

وقد يخفى على الإنسان موضع التعصب في نفسه ، فيحسب أنه مخلص في طلب الحق .. وهو منظور على عصبية تدفعه .. وقد تبين له الحقيقة إذا راقب نفسه وحاسبها حساباً عسيراً .

محاورة الجدل :

من المعلوم أن القرآن العظيم قد اشتمل على براهين وأدلة مختلفة وما من برهان أو دلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به .. لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

الأول : بسبب ما قاله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٤] .

الثاني : أن المائل إلى دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام .. فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء .

وعلى هذا حمل الحديث المروى : « إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً » (١) . لا على ما ذهب إليه الباطنية ، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ؛ ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولى العقل ، ومرة إلى السامعين ، ومرة إلى المفكرين ومرة إلى المتذكرين تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقته منها .

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط كل البراهين العقلية على طريق المتكلمين.. فمن ذلك الاستدلال على حدوث العالم بتغير الصفات عليه وانتقاله من حال إلى حال وهو آية الحدوث وقد ذكر الله تعالى في احتجاج إبراهيم الخليل عليه السلام استدلاله بحدوث الأقل على وجود المحدث والحكم على السموات والأرض بحكم النيرات الثلاث وهو الحدوث طردًا للدليل في كل ما هو مدلوله لتساويها في علة الحدوث وهي الجسمانية..

ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام.. ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجرؤ الفعل إن فرض الاتفاق أو لاجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزًا.

وقال ابن أبي الإصبع:

زعم الجاحظ أن المذهب الكلامي لا يوجد منه شيء في القرآن وهو مشحون وتعريفه أنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام.. ومنه نوع منطقي تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة فإن الإسلاميين من أهل هذا العلم ذكروا من أول سورة الحج إلى قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]..

خمس نتائج من عشر مقدمات هي :

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] ؛ لأنه قد ثبت عندنا أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظمًا لها وذلك مقطوع بصحته ؛ لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبت قدرته ، منقول إلينا بالتواتر فهو حق ، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق فالله هو الحق.

وأخبر تعالى أنه يحيى الموتى ؛ لأنه أخبر عن أحوال الساعة بما أخبر وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشهدوا تلك الأحوال التي يعملها الله من أجلهم ، وقد ثبت أنه قادر على كل شيء.

ومن الأشياء إحياء الموتى فهو يحيى الموتى وأخبر أنه على كل شيء قدير ؛ لأنه أخبر أنه من يتبع الشياطين ومن يجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من كان هو على كل شيء قدير فهو على كل شيء قدير.

وأخبر أن الساعة آتية لا ريب فيها لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتتهز وتربو وتنبث من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ثم يعيده بالبعث وأوجد الأرض بعد العدم فأحيها بالخلق ثم أماتها بالمحل ، ثم أحيها بالخصب وصدق خبره في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عيانًا ، صدق خبره في الإتيان بالساعة ، ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور ؛ لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، فهي آتية لا ريب فيها وهو سبحانه وتعالى يبعث من في القبور.

وقد دلل سبحانه وتعالى على المعاد الجسماني بضروب^(١):

أحدها: قياس الإعادة على الابتداء قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤) [الأنبياء: ١٠٤].

وقال أيضًا: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥].

ثانيها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى نحو: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].

ونحو: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿[غافر: ٥٧].

ثالثها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات وهو في كل موضوع ذكر فيه إنزال المطر غالباً نحو:

﴿وَمِنِّي الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿[الروم: ١٩].﴾

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر، وقد ورد أن أبي بن خلف لما جاء بعظام بالية ففتها وذرها في الهواء، وقال: يا محمد من يحي العظام وهي رميم!

فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس: ٧٩] فعلم سبحانه كيفية الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعبارة الحدوث ثم زاد في الحجاج بقوله:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ﴿يس: ٨٠﴾.

وهذا في غاية البيان في رد الشيء إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليها.

خامسها: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ [النحل: ٣٨: ٣٩].

وتقريرها كما قال ابن السيد عبد الله البطلوسى « المتوفى ٥٢١ هـ »:

إن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد ، فلما ثبت أن هنا حقيقة موجودة لا محالة ، وكان لا سبيل لنا في حياتنا هذه الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف المركوز في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلية ، ونقلها إلى جبلية غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف والعناد وهذه هى الحال التى وعد الله بالمصير إليها فقال:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]..

ولابد من كون ذلك باضطرار إذ كان جواز الخلاف يقتضى الائتلاف ؛ لأنه نوع من المضاف وكان لابد من حقيقته فقد صار الخلاف الموجود كما نرى أوضح دليل على كون البعث الذى ينكره المنكرون.

أركان الجدل :

هذا وللجدل أركان وثوابت نجم لها في ما أتى :

١ - اختلاف الجدل باختلاف الزمان والمكان.

٢ - اختلاف درجات الجدل والجدال والمجادل.

٣ - وجود قضية ما بين طرفين مختلفين.

فالأول: اختلاف الجدل باختلاف الزمان والمكان:

فإن للجدل مراحل زمنية مختلفة يزداد في بعضها ويقل في بعضها الآخر.. ويزكو في بعض أوقاتها ويخبو في بعضها الآخر ويعود ذلك في الغالب إلى دوافع معينة سياسية كانت أو فقهية أو فكرية.. ويكون مسرح الأحداث آنئذ هو قطر معين أو جهة معينة وغالبًا ما يتصل هذا الجدل بأمر فاشٍ بين الناس أو اعتقاد سائد لفكرة ما ومحاولة الانتصار لها.

والثاني: اختلاف درجات الجدل والجدال والمجادل:

وكثيرًا ما تتفاوت درجات المتجادلين في فحوى القضية محل الجدل، فيظهر نبوغ المتخصص ويقوى على الحاجة بإظهار البراهين والحجج، بينما يضعف أداء المتصايحين والمغفلين وأصحاب النبرات العالية مما يجعلهم يخرجون عن مضمون القضية.. وطبيعي أن إيجابيات جماعة تظهر سلبيات جماعة أخرى والعكس.

والثالث: وجود قضية ما بين طرفين مختلفين:

وهي عادة ما تكون «قضايا الساعة» والتي تشغل الأذهان، وتجذب الانتباه. وقد شهد الجدل أطوارًا وأدوارًا حبست فيها الأنفاس حينًا، وتُنفس فيها الصعداء حينًا آخر، ولا ريب أن الحد الفاصل لتغيير المواقف وإعادة النظر في الأمور الملحة ذات الأهمية هو إقامة الحجج الدامغة حتى يدعن طرف لطرف.



الفصل الرابع

سبب الخلاف عند الغزالي^(١)

حينما تولى الخلفاء الراشدون الخلافة بعد رسول الله ﷺ ووضعوا أمام أعينهم خطة المرحلة الجديدة لبث الدعوة وتوجيه الأمة لم يحيدوا عن المنهج النبوي قيد أنملة فالتزموا بالفقه وأحكامه واستقلوا بالفتاوى والأقضية ونادرًا ما كانوا يستعينون بالفقهاء في أمور معينة لا يستغنى فيها عن المشاورة.

فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم.

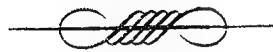
وكان من علماء الدين من استمر على ملازمة الدين والمواظبة على سمت أهل السلف فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى الناس عز العلماء وإقبال الأئمة والولاء عليهم مع إعراضهم عنهم فاشربوا لطلب العلم توصلًا إلى إدراك المال والجاه من قبل الولاة فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وطلبوا الولايات والصلات منهم.

فمنهم من حرم ومنهم من أحل وسقطوا في فح المهانة والابتذال وأثخا في طلب الدنيا فذلوا بعد عزة وأهينوا بعد تكريم، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع

مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فامتلت الأجواء بالرغبة في المناظرة والمجادلة في الكلام فأكثر الناس في التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات.

ثم ظهر بعد ذلك من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما ترتب عليه من الخصومات والمنازعات فمالت أنفسهم إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة عليه السلام على وجه الخصوص فانشغل الناس على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد عليهم السلام وزعموا أن غرضهم هو استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى وأكثروا فيها من التصانيف والاستنباط ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمررون عليه إلى الآن وهذا هو الباعث لهم على طلب الخلاف والمناظرات وساقوا في ذلك العلل والحجج بل واضطر بعضهم لعداء غيره.

وما زال هذا سائداً حتى الآن بين كثير من العلماء ولو أنهم احتكموا إلى الكتاب والسنة والتمسوا منها الشرح والأحكام لكان أجدى وأنفع ولعمت الفائدة واختصر الزمن وقضيت الحاجات .



الفصل الخامس

صور من المناظرات (الجدلية)

المناظرات علم له آدابه وقواعده^(١) وكتبه المختلفة منذ كان البرهان دليلاً على العقيدة وسبيلاً لإثبات الحقيقة في كل أمر من الأمور، وتعاضم شأن هذا العلم بإقبال المتناظرين الأكفاء واحترام الناس لهم والإفادة من علمهم وكانت المناظرات تدور بين المتكلمين وأهل السنة وبين أهل الظاهر وغيرهم والشافعية والحنفية أفراس رهان في مجالس النظر بمثل ما كان الأدباء والشعراء، ثم أصبحوا وأمثالهم يعمرّون مجالس الأمراء والكبراء وعن هذه المجالس آل إلينا تراث فقهي وأدبي وعلمي عظيم.

لقد بدأ المأمون من أول القرن الثالث بعقد المجالس في حضرته وأعقبه الواثق بن المعتصم، ثم أمسى ذلك تقليداً لدى الكبراء فرأينا الخليفة المسترشد يجلس في مناظرات الأشاعرة سنة ٥١٦ هـ بعد موت الغزالي بإحدى عشرة سنة وحتى الآن تعقد مجالس المناظرة في المجتمع الإسلامي وإن خفت أصوات المتناظرين في بعض العصور.

والمناظرة مدارس وممارسة وطلب العلم فريضة في المجتمع الإسلامي فهو مجتمع علمي إذا التزم قانونه، والاقتدار في الجدل من تراث الشافعي وقد سلم له الجميع بذلك ففيه يقول الإمام أحمد بن حنبل: «كانت أقضيتهما في أيدي أصحاب ألي حنيفة ما ننزع حتى رأينا الشافعي.

وكان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وكان إسحاق بن راهويه - إمام خراسان - يطلق على الشافعي (خطيب العلماء) قال لداود إمام أهل الظاهر: (ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعي بمكة فسألته عن أشياء فوجدته فصيحاً حسن الأدب فلما

(١) القرآن والمنهج العلمي المعاصر، عبد الحليم الجندی، المصدر السابق ص ١٢٤.

فارقناه أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم أهل زمانه بالقرآن وأنه قد أوتي فيه فهماً فلو كنت عرفته للزمته).

قال داود: (ورأيت يتأسف على ما قد فاتته منه) وأصبح من المؤلف للمتفقه أن يشهدوا مجالس المناظرات بين الحنفية المشهورين (بأصحاب الرأي) وبين الشافعية وهم علماء الأصول لكن الزمان تغير فساء فهم الناس للجدل فصار حرفة تراود نفس بعض أصحاب شهوة الظهور.

فكان الغزالي يقول: (إنه ما دفع العلماء إلى الجدل إلا اتباع شهوة الأمراء وإن كانوا يلبسون على أنفسهم ويخدعونها بأن غرضهم عرض ما يوافق الشرع وتمهيد أصول الفتاوى وتقريب علل الأحكام).

واهتم المتناظرون بفنون الجدل: كالذي يستدل بعام فإذا استدل خصمه بالعام قال له: (دلالة العام ظنية ولا يعمل بها حتى نبحت عن مخصص لأن كل عام يدخله التخصيص) وكالذي يستدل بقضية عين لا عموم لها وكالذي يستدل بحديث للرسول ﷺ فإذا استدل خصمه بحديث قال له: يحتمل أنها خصوصية وما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال..

ولقد توارد إلينا هذا المثل العظيم من مناظرة الشافعي مع محمد بن الحسن في أواخر القرن الثاني للهجرة وفيما يلي أمثال تدل على استمرار المناظرات في مستوى عظيم يستفيد به العلماء والمتعلمون وإن ضاق صدر الغزالي بالمناظرات في ذلك العصر..

فالشافعية والمالكية والحنابلة يذهبون إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر والحنفية يرون أنه يقتل به ولكل رأى سنده من المنقول والمعقول وقد أورد المناظرة أبو بكر بن العربي^(١) في تفسيره (أحكام القرآن) قال: ورد علينا بالمسجد الأقصى (بيت المقدس) سنة سبع وثمانين

وأربعمئة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزنى ، وشهد علماء البلد فستل عن قتل المسلم بالكافر فقال: يقتل به قصاصاً فطلب بالدليل فقال: الدليل قوله تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وهذا عام في كل قتيل.. فانتدب معه في الكلام فقيه الشافعية عطاء المقدسي وقال: ما استدل به الإمام لا حجة له من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الله تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ فشرط المساواة في المجازاة ولا مساواة بين المسلم والكافر فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته.

الثاني: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها وجعل بيانها عند تمامها فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ فإذا نقص العبد عن الحر بالرق.. فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر..

الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر فدل على عدم دخوله في هذا القول.

فقال الزوزنى: دليل صحيح^(١) وما اعترضت به لا يلزمني منه شيء أما قولك: إن الله تعالى شرط المساواة في المجازاة فكذلك أقول، وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم في القصاص معدومة فغير صحيح فإنهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأييد وإن الذمي محقون الدم والمسلم محقون الدم وكلاهما في دار الإسلام.. والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة ماله.

وأما قولك: إن الله ربط آخر الآية بأولها فغير مسلم فإن أول الآية عام وآخرها خاص

وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها بل يجري كل حكمه من عموم وخصوص.

وأما قولك: إن الحر لا يقتل بالعبد فلا أسلمه بل يقتل به قصاصاً فتعلقت بدعوى لا تصح لك.

وأما قولك: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ يعني المسلم فكذلك أقول ولكن هذا خصوص في العفو فلا يمنع من عموم القصاص.

ويرجع رأى الجمهور في عدم مساواة المسلم بالكافر أن الله يجعل الكافر يجعل الدابة كما وردت بذلك الآية في [الأنفال: ٥٥]: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، والله يقول كذلك في [التوبة: ٢٨]: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ .

فالمسلم والكافر لا يتساويان.. والمسألة خلافية كما هو ظاهر.. ومن قبل ذلك رأى أبو سعيد البرادعى ت (٣١٧) وهو حنفى من المعتزلة مناظراً من الحنفية ضعف بين يدى داود بن على فانتصر أبو سعيد للحنفى فسأل داود عن بيع أمهات الأولاد فقال: يجوز لأننا أجمعنا على جواز بيعهن قبل علوق الجنين فلا يزول هذا الإجماع إلا بإجماع مثله..

قال أبو سعيد : أجمعنا بعد العلوق وقبل الوضع أنه لا يجوز بيعها فيجب أن تتمسك بهذا الإجماع ولا نزول عنه إلا بإجماع مثله.. ومن قبلهم كان المأمون ت (٢١٨) نظاراً جديلاً ولقد عين (علياً الرضى إمام الشيعة) ولياً لعهد ومعه ذلك جلس يناظره فى حق جده علي ابن أبى طالب فى الخلافة دون غيره.. قال المأمون: بم تدعون هذا الأمر؟ قال الإمام: بقرابة علي ابن أبى طالب من النبى وبقرابة فاطمة عليها السلام .

قال المأمون : إن لم يكن ههنا إلا القرابة ففى القرابة مثله - يقصد - العباس عم النبى وابنه عبد الله جدى المأمون وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق للحسن وليس لعلى فى هذا حق وهما حيان.. وإذا كان الأمر كذلك فقد ابتزهما وهما حيان واستولى

على ما يجب له.

ومن بعد المأمون خرج أبو الحسن الأشعري على المعتزلة فجلس يوماً يناظر زعيمهم (أبا علي الجبائي) ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م في مبدأ المعتزلة أن العدل واجب على الله تعالى فسأله عن ثلاثة إخوة: الأكبر مؤمن زاهد والأوسط كافر فاسق والأصغر صغير لم يبلغ الحلم..

قال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات وأما الكافر ففي الدرجات لأن ثواب المطيع وعقاب العاصي واجبان على الله.. وأما الصغير فلا يثاب ولا يعاقب فهو من أهل السلامة قال الأشعري: إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة؟ قال الجبائي: يقول الله تعالى له: الدرجات ثمرة الطاعات..

قال الأشعري: فإن قال الصغير: ليس مني النقص والتقصير فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعنك ودخلت الجنة..

قال الجبائي: يقول الباري تعالى: قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب المقيم في الجحيم فإن الأصلح لك أن تموت صغيراً..

قال الأشعري: إن قال العاصي المقيم في العذاب الأليم منادياً من بين دركات النار وأطباق الجحيم: يا إله العالمين ويا أرحم الراحمين لم راعيت مصلحة أخى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيراً ولا أصير فى السعير أسيراً فيماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائي فى الحال وانقطع الجدال..

ولم يشتهر علماء المالكية والحنابلة بالجدل وإن كان أبو الوليد الباجى ت (٤٩٤) مجادلاً فى الذروة يقول عنه ابن حزم: ولو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى إلا مثل لى الوليد الباجى لكفاهم وابن حزم علامة عصره طالت المناظرة بينه وبين الباجى ثلاثة أيام قال الباجى فى نهايتها: أعذرنى فقد طلبت العلم على مصاييح الشوارع..

وأجاب ابن حزم: (أنا أبلغ منك عذراً فقد طلبت العلم على قناديل من الذهب

والفضة).

هذا وبقي الختابة يزورون عن الجدل حتى جاء منهم ابن تيمية الذى لم يثبت لجداله أحد
وكان معارضوه يملؤون منه بالسلطان!!.

ويخلص لنا مما سلف هذه الأمور:

١- أن النزاهة العلمية فريضة دينية سواء في تحصيل العلم أو في تعليمه أو المناظرة فيه.

٢- وجوب استقراء المشاهدات والجزئيات والاستنباط المصاحب للاستقراء مع التثبت وبذل الجهد.

٣- نسبة النتائج فيما لم يحط فيه الاستقراء بجميع الجزئيات وقطعية النتائج فيما أحيط فيه بجميع الجزئيات.

٤- البدء في النظر إلى المواضيع بالتجرد من الالتزام برأى خاص.

٥- طرح الأوهام والخرافات والدعاوى التي لا ينهض عليها دليل.

٦- دلالة الشاهد على الغائب ودلالة صنع الله على وجوده وقدرته.

٧- حتمية سنة الله في أكوانه.. جل شأنه.

نموذج من جدال الخوارج:

روى ابن عبد البر في كتابه: (جامع بيان العلم وفضله) قال ابن عباس للخوارج: ماذا نقتلهم عليه؟ أى على أمير المؤمنين قالوا: ثلاثاً - قلت ما هن؟ قالوا: حكم الرجال فى أمر الله وقال: إن الحكم إلا لله. قال: فقلت: هذه واحدة وماذا أيضاً؟ - قالوا: فإنه قاتل ولم يسب ولم يغنم فلئن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم ولئن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم.. قال: قلت: وماذا أيضاً؟ قالوا: ومحا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.. قال: قلت: أرأيتمكم أن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما

ينقض قولكم هذا أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع؟

قال: قلت: أما حكم الرجال في أمر الله فإن الله تعالى يقول في كتابه:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقال في المرأة وزوجها: ﴿قَالَ تَعَالَى: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] فصير الله ذلك إلى حكم الرجال فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين وإصلاح ذات بينهم أفضل.. أو في حكم أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة.. قالوا: بل هذا أفضل.. قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

فأما قولكم: قاتل فلم يسب ولم يغنم أفتسبون أمكم عائشة فإن قلتم نسبها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم وإن قلتم ليست بأما فقد كفرتم فأنتم تترددون بين ضلالتين أخرجت من هذه؟ قالوا: بلى.. وقال: وأما قولكم: محاً نفسه من إمرة المؤمنين فأنا أتيكم بما ترضون به.. إن نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو وقال رسول الله ﷺ: اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.. فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك.. قال رسول الله ﷺ: اللهم إنك تعلم أني رسولك امح يا علي واكتب هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو. قال فرجع ألفان وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا..

مناظرة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى شاذب - واسمه بسطام^(١) من بنى يشكر كتاباً فيه:

بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك مني فهل أنظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا فأرسل إليه من ينظره وكان من بين ما تناظرا فيه.. (أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيري قالوا: أفرأيت لو وليت ما لا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه أترك كئت أديت الأمانة إلى من اتئمتك؟ قال: فقال أنظراني ثلاثاً).

نماذج من الحوار بين فقهاء التابعين:

قال ابن سعد: سأل رجل سعيد بن المسيب في رجل نذر في معصية.. فقال سعيد: يوفي به فسأل عكرمة فقال: لا يوفي به قال: فذهب الرجل إلى سعيد فأخبره بقول عكرمة فقال سعيد: لا ينتهي ابن عباس حتى يلقي في عنقه حبلاً ويطاف به. قال: فجاء الرجل إلى عكرمة فأخبره الخبر فقال عكرمة: أنت رجل سوء.. قال: لم؟ فقال: فكما بلغتني فبلغه.. قل له: هذا النذر لله أم للشيطان؟ فوالله إن زعم أنه لله ليكذبن ولئن زعم أنه للشيطان ليكفرن.

فابن المسيب نظر إلى النص وهو قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] حيث لم يفصل وكذلك الأحاديث مطلقة.. ولكن عكرمة يخطئه في ذلك وينظر إلى المعنى المقصود من الوفاء بالنذر وأنه معلل بكونه قرينة وعبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى فإذا خرج عن هذه الدائرة امتنع الوفاء به مبيناً علة الحكم بأن هذا النذر إن كان لله فلا يصح.. حيث يمتنع التقرب إليه بالمعاصي وإن كان للشيطان كفر من أمره بالوفاء به.

نماذج من جدل المتكلمين:

أبو الهذيل العلاف ويهودى:

بلغ أبو الهذيل العلاف في براعته في الجدل أن رجلاً يهودياً قدم البصرة وقطع جماعة من متكلميها.. فقال لعمه:

يا عم امض بى إلى هذا اليهودى حتى أكلمه.. فقال له عمه: يا بنى كيف تكلمه وقد عرفت خبره وأنه قطع مشايخ أهل الكلام.. فقال: لا بد أن تمضى بى إليه.. فمضى به

قال: فوجدته يقرّ الناس على نبوة موسى عليه السلام فإذا اعترفوا له بها قال: نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجمع على ما تدعونه فتقدمت إليه فقلت: أسألك أم تسألني؟ فقال: بل أسألك - فقلت: ذاك إليك - فقال لي: أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك؟ فقلت له: إن كان موسى الذي تسألني عليه هو الذي بشر بنبيي عليه السلام وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق وإن كان غير ما وصفت فذاك شيطان لا أعترف بنبوته فرد عليه ما لم يكن في حسبانته.. ثم قال لي: أتقول إن التوراة حق؟ قلت: هذه مسألة تجرى مجرى الأولى.. إن كانت هذه التوراة التي تسألني عنها هي التي تتضمن البشارة بنبيي عليه السلام فتلك حق وإن لم تكن كذلك فليس حق ولا أقر بها.. فبهت وأقحم ولم يدر ما يقول.

نماذج من مناظرات المتكلمين:

.. ومن هذه النماذج ما جرى بين واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حيث جلس واصل في الحلقة وسئل أن يكلم عمرًا فقال واصل له: لم قلت إن من أتى كبيرة من أهل الصلاة استحق اسم النفاق؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ثم قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١٧] فقال واصل: أليس قد وجدت الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فعرّف بآلف ولام التعريف اللتين في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فسميت منافقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) فأمسك عمرو ثم قال له واصل: يا أبا عثمان أيما أولى أن يستعمل في أسماء المحدثين في أمتنا؟ ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة أو ما اختلفت فيه فقال عمرو: بل ما اتفقوا عليه أولى.. فقال له واصل: أأستجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً ويختلفون ما عدا ذلك من أسمائه لأن الخوارج تسميه مشركاً فاسقاً والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً.. والحسن يسميه منافقاً فاسقاً والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً فاجتمعوا على تسميته بالفسق واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه.. فالواجب أن يسمى بالاسم الذي اتفق عليه وهو الفسق.. لاتفاق المختلفين عليه ولا يسمى بما عدا ذلك من الأسماء والتي اختلف فيها فيكون صاحب الكبيرة فاسقاً ولا يقال إنه مؤمن ولا منافق ولا مشرك ولا كافر فهذا أشبه بأهل الدين.. فقال له عمرو بن عبيد:

« ما بيني وبين الحق عداوة.. والقول قولك » .

قال الجاحظ :

نازع رجل عمرو بن عبيد في القدر فقال له عمرو: إن الله تعالى قال في كتابه ما يزيل الشك عن قلوب المؤمنين في القضاء والقدر قال تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [الحجر ٩٢: ٩٣] ولم يقل لهم لنسألهم عما قضيت عليهم أو قدرته فيهم أو أردته منهم أو شئته لهم وليس بعد هذا الأمر إلا الإقرار بالعدل أو السكوت عن الجور الذي لا يجوز على الله تعالى.

مناظرة بين والد وولده :

حكى أبو القاسم البلخي أن عبد الله قال لابنه محمد: كل خصالك محمودة يا بني إلا قولك بالقدر.. قال: يا أبة أفشئ أقدر على تركه أو لا أقدر على تركه؟.

فورد الكلام على رجل عاقل فقال: لا عاتبتك عليه أبداً.. قال أبو القاسم: يقول إن كنت أقدر على تركه فهو قولى.. وإن كنت لا أقدر فلم تعاتبني على شيء لا أقدر عليه.

أبو الهذيل ومجوسى:

قال أبو الهذيل: قلت لمجوسى: ما تقول فى النار؟ قال: بنت الله، قلت: فالبقرة؟ قال: ملائكة الله قص أجنحتها وحطها إلى الأرض يحرث عليها، فقلت: فالماء؟ قال: نور الله قلت: فما الجوع والعطش؟ فقال: فقر الشيطان وفاقه، قلت: فمن يحمل الأرض؟ قال: بهمنُ الملك.. قلت: فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ثم غسلوها بنور الله ثم شووها ببنت الله ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقه ثم سلخوها على رأس بهمنُ الملك أعز ملائكة الله فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه.



الفصل السادس

المعارضات

.. اتفقت كلمة العلماء قديماً على أن أحداً^(١) لم يستطع أن يعارض القرآن وعلى أن التاريخ لم ينقل كلاماً يمكن أن تنطبق عليه صفة المعارضة وقد أجمعت كلمة أصحاب الرأي في هذا الشأن من أهل الفصاحة والبلاغة على أن المعارضة بين الكلامين لا تعد إلا إذا كان بينهما مقاربة ومدانة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر أو يكون مقارباً له وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشئ له كلاماً جديداً ويحدث له معنى بديعاً فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيق وتلفيق..

ولم نر فيما وصل إلينا من أخبار العرب في عهد النبي ﷺ ولا في العهود القريبة التي جاءت بعده أن فصيحاً من الفصحاء الذين يعتد بهم ألف قولاً تكون سبيله سبيل المعارضة. وما قالوه عن ابن المقفع من أنه عارض القرآن بكتابه «الدرة اليتيمة» فهو عندنا كما يقول الرافعي: ليس هناك لا قصداً ولا مقاربة وفي اليتيمة عبارات وأساليب مسروقة من كلام الإمام على..

ويرى الباقلاني أن ابن المقفع إنما نسخ هذا الكتاب من كتاب بزرجمهر في الحكمة.. ولم يصلنا كذلك أن أحداً من هؤلاء حاول معارضة القرآن استجابة للتحدي إلا ما روى عن ابن رشيقي في العمدة من أن فصحاء قريش عكفوا على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم فلما سمعوا قول الله ﷻ :

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ

عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ [هود: ٤٤] يَسْأَلُونَ مَا طَمَعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مَخْلُوقٍ.

وهذا النص يعطينا أن فصحاء قريش طمعوا في معارضة القرآن وأعدوا أنفسهم لها واستعانوا عليها بالأسباب التي توهموها معينة على بلوغ الغاية غير أن في آخر النص ما يشكك في أوله؛ ذلك أن انقطاع قريش عند هذه المحاولة لما سمعوا الآية السالفة الذكر يوهم أن ما سبق من آيات القرآن على هذه الآية لم يكن كافياً في أن ينقطع طمع قريش وأن في هذه الآية من روائع البلاغة ما ليس فيما تقدم من آيات وهو كلام مدخول قصد به إلى إيهام أن نهاية الإعجاز تتحقق في بعض الآي دون بعض ثم جازت هذه الخدعة على المؤلفين من أصحاب النيات السليمة والإيمان الصحيح فرووها دون أن ينتبهوا إلى ما يحمل في طياتها من مغزى غير لائق بجلال القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، ثم هل بلغ البله من قريش أن يغفلوا عن أن البيان سليقة وطبيعة وأنه لا حاجة إلى هذه «المظاهرة» ويستعينوا بلباب البر وسلاف الخمر ولحوم الضأن كأن هذا الطعام وهذا الشراب مما يولد في الإنسان بياناً لم يكن فيه ولو أن قريشاً أرادت معارضة القرآن لكان لها من سلائقها ومن طبائعها ما يعينها على ذلك لو كان ممكناً.

والحق ما يقوله الجاحظ عن المعارضة: (ولم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ويتحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقارب وناقض).. أما ما ورد عن مسيلمة وأشابهه من المتنبيين ومدعى الفصاحة فقد رفض العلماء أن يكون ذلك داخلاً في باب المعارضة لأن حدها السابق لا ينطبق عليه.

وبعض العلماء تناول هذه المعارضات بالنقد والتجريح وبيان ما فيها من ضعف وتهافت وهم بذلك يسلمون بورودها عن مسيلمة ومن إليه.. ويعتقد أن هذه المعارضات من افتعال الرواة وتفكهاات أصحاب القصص وأصاحيك السُّمَّار في المجالس

والمجتمعات وأن العرب انقطعوا عن المعارضة حقها وباطلها ولم يكن يرجى من مسيلمة أو غيره من الأعراب النزول إلى هذا المستوى الوضع من الهراء. على الرغم من أنهم أهل فصاحة وبيان ولم يعرف إطلاقاً فيما وصل إلينا من كلام العرب أو خطبهم أو أشعارهم أو أمثالهم في جاهليتهم مثل هذا الكلام المسف أو المعاني المتهاكمة.. فكيف بمسيلمة وهو على حد قول الرافعي: أفصح من المتنبي كيف يرسل بهذه الكلمات الواهية ويقر على نفسه هذه التفاهة في معرض دعواه للنبوّة خاصة وأنه يعرف تماماً من يجابه ومن يتحدى.

ويجزم أصحاب هذا الرأي بأن قول الجاحظ السابق نص وثيق وصريح في أن شيئاً من المعارضات لم يكن وصل إلى علمه.. وقد جاء في كتاب «الحيوان»^(١) عند الكلام عن الضفدع قول الجاحظ: ولا أدري ما هيح مسيلمة على ذكرها.. ولم ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدع بنت ضفدعين.. نقى ما تنقين^(٢).. أعلاك في الماء وأسفلك في الطين.. لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين..

فلم يكن مسيلمة يقصد من وراء هذا الكلام إلا السخرية وإنه موقن أن ذلك من موضوعات الرواة الظرفاء، وهذا ما يؤكد قوله السابق في نفى المعارضة حقها وباطلها.

على أن هذه المعارضة رويت في سيرة ابن هشام بصورة أخرى تقول: يا ضفدع نقى نقى.. لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، لكن قریشاً قوم يعتدون.. وقد رواها ابن إسحاق عن شيخ من بنى حنيفة ورواها الطبري عن جابر ويحمل ذلك كله على الاعتقاد بأنها موضوعة.

وقد جاء في رسالة الخطابي رواية المعارضات عن سعيد بن نشيط وهو متهم - قال ابن حجر في تهذيب التهذيب عن سعيد هذا شيخ ابن لهيعة لا يعرف مجهول - ذكره ابن حبان في ذيل الضعفاء قال: روى عنه عبد الله بن عقبة - لا يصح. قلت: وابن عقبة هو ابن لهيعة

(١) الحيوان - للجاحظ.

(٢) حول إعجاز القرآن، د/ العماري ص ٢٦.

نسبة لجدّه ، وقال ابن خلكان: ابن لهيعة كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ففيل له في ذلك فقال: ما ذنبى إنما يجيئونى بكتاب يقرءونه عليّ ويقومون ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى.. وقال عنه ابن سعد فى الطبقات الكبرى: (إنه كان ضعيفاً).

وحديث سعيد هو: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى البحرين فتوفى رسول الله ﷺ.. قال عمرو: فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطانى الأمان ثم قال: إن محمداً أرسل فى جسيم الأمور وأرسلت فى المحقرات.. فقلت: أعرض عليّ ما تقول.. فقال: يا ضفدع^(١) بنت ضفدعين^(٢)..

الكلمات الأنفة ثم أتى ناس يختصمون إليه فى نخل قطعها بعضهم لبعض فتسجى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال: والليل الأدهم، والذئب الأسحم، ما جاء بنو مسلم من محرم.. ثم تسجى الثانية فقال له: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما حرمته رطباً إلا كحرمته يابساً، قوموا فلا أرى عليكم فيما فعلتم شيئاً، قال عمرو: أما والله إنك تعلم وأنا لنعلم أنك من الكاذبين! فتوعدنى..

وفى القصة مع تسليمنا جدلاً بورودها أمران:

الأول: أن عمرًا لم يذكر أن مسيلمة كان يعارض القرآن بكلامه هذا وإنما هو كلام قاله على حد ما يفعل الكهان.

الثانى: قول مسيلمة «أرسلت فى المحقرات» لا يتفق هذا مع ما هو مشهور من أن مسيلمة كتب إلى النبى ﷺ يقول: إن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها وأنه جعل يعفى أتباعه بل وأتباع سجاح التميمية من بعض التكاليف الإسلامية.. هذا وقد تنبه إلى ضعف

(١) حول إعجاز القرآن، العمارى، المرجع السابق ص ٢٨ وما بعدها.

الرواية بعض العلماء الذين عاشوا في هذا القرن وإن لم يبينوا لنا وجه الضعف على نحو ما ذكر.

وقد جاء في مقدمة «إعجاز القرآن» للأستاذ / مصطفى صادق الرافعي والتي كتبها السيد رشيد رضا قوله: ولما نقل بعض أهل التصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة في القول أنهم تصدوا لمعارضة القرآن في بلاغته ومحاكاته في فصاحته دون هدايته ولكنهم على ضعف رواية الناقلين عنهم لم يأتوا بشيء تقرُّبه أعين الملاحظة والزنادقة فيحفظونه عنهم ويحتجوا به لإلحادهم وزندقتهـم..

ومن الدلائل على أن هذه المعارضات من مختلقات الرواة أن بعضها يروى عن غير واحد كهذه الكلمة: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، فقد نسبها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في رسالته في الإعجاز لمسيلمة.. ونسبها ابن عبد ربه في كتاب «العقد الفريد» لمتنبى في العصر الأموي في عهد خالد بن عبد الله القسري وزاد في آخرها: ولا تطع كل كافر وساحر.

وقد نسجت قصة قصد بها الخط من شأن مسيلمة وسجاح إذ رووا أن مسيلمة أنشد سجاح شعراً ونثرها نثراً لا يقوله إلا أفجر رجل لأوضع امرأة.. فكان مسيلمة إذا انتهى من الشعر بكلمة داعرة عاهرة أجابته سجاح عنها إجابة المرأة الهلوك المتهاكمة بكلمة لا تقل فحشاً عن كلمة مسيلمة وكان يزعم لها أنه بهذا أوحى إليه كأن قرآن مسيلمة لا يعف أن يرشد الرجل إلى أدق الشئون في اتصال الرجل بالمرأة اتصالاً جنسياً.

فقد زعموا أن سجاح أقامت في حصن مسيلمة ثلاثاً ثم انصرفت فقال لها قومها: ما عندك؟ قالت: كان على الحق فاتبعته وتزوجته..

قالوا: فهل أصدقك شيئاً؟ قالت: لا.. قالوا: ارجعي فقبیح بمثلك أن ترجع بغير صداق.. فرجعت فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال: مالك؟ قالت: اصدقني صداقاً.. قال: من مؤذذك؟ قالت: شبت بن ربيع الرياحي. قال: علىَّ به فجاء فقال: ناد في

ومع ذلك فإن مسيلمة كان كذاباً بالفعل ولا نقصد بهذا العرض تبرئة ساحته ولا الدفاع عنه بل لأن إثبات مثل ما يسمي بهذه المعارضات لا يخدم القرآن لأنه فوق كل كلام وبيان ورأينا من أتباع مسيلمة من يقول: أشهد أن مسيلمة كذاب ولكن ربيعة خير عندنا من صادق مضر «يقصد محمدًا ﷺ».. وأمر طليحة وسجاح خير من أمر مسيلمة فقد أسلم طليحة وحسن إسلامه.. وكذلك أسلمت سجاح فأصبحنا في غير حاجة إلى أن نتابع وُضَاعَ الأخبار لنحط من شأن هؤلاء.

أكثر الناقلون لمعارضات مسيئة من إلقاء الضوء على سرعة مبادرته وإقامة نفسه في أمور كان يمكنه الاستغناء عنها خاصة وأنها لم تكن مطلوبة أو مرغوبة ولو حدث لكان القرشيون أولى بالتصدي لها والتفاعل معها والترويج لها ولكنهم لم يفعلوا ذلك لعجزهم التام ولتسليمهم ببلاغة القرآن وفصاحته.

ومما نسبته الناقلون قوله: «والمبذرات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزًا، والشاردات ثردًا، واللاقحات لقمًا،

إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتر فأووه، والباغى فناوئوه.

وقوله أيضاً:

(والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجون).

ومنها: (الفيل - ما الفيل، له ذنب، ويبل - وخرطوم طويل).

وفي رواية الخطابي: (الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له شعر طويل، وذنب أثيل، وما ذاك من خلق ربنا بقليل).

روى عن بعضهم قوله: (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحلي، أخرج منها نسمة تسعى، بين شرا سيف وحشى).

وقال في حضرة سجاح: (إن الله خلق النساء، وجعل الرجال لهم أزواجاً) فلما أتم هذه الكلمة على أفحش ما تتم به الكلمات قالت له: أشهد أنك نبي..

أبو العلاء المعري (معارض):

ومن نسبت إليهم المعارضة فيلسوف الشعر أحمد بن سليمان المشهور بأبى العلاء المعري.. قيل إنه عارض القرآن في كتابه (الفصول والغايات) وهذه نماذج من معارضته:

«أقسم بخالق الخيل.. والريح الهابة بليل، ما بين الأشراف ومطالع سهيل، إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل، ابق مدارج، والسييل وطالع التوبة من قبيل تنج وما أخالك بناج».. «أذلت العائدة أباه وأصاب الوحدة ورباه، والله بكرمه اجتباها، أولاه الشرف بها حباها، أرسل الشمال صباها، ولا يخاف عقباها».

أبو العلاء يدافع عن نفسه:

قال أبو العلاء في معرض رده على ابن الراوندي^(١):

(أجمع ملحد ومهتد وناكب عن الحق والحجة ومقتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإيجاز، ولقى هدوءه بالإعجاز ما حذى على مثال ولا أشبه غريب المثال، ما هو من القصيدة الموزونة ولا في الرجز من سهل وحزن ولا شاكل خطابه العرب ولا سجع الكهنة ذوى الأرباب، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جذوب ذات نسق).

وهذه قصة المعارضات تبين لنا أن المعارضة في الواقع لم تقع وما كان لها أن تقع، وسيبقى هذا القرآن معجزاً للبشر.. لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.





﴿وَجَدَلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

مُقَدِّمَاتُهَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

على هذا الأساس يرسى " القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج العظيم للرسول ﷺ وأصحابه وللدعاة من بعده بدينه القويم فليُنظر في دستور الدعوة الذى شرعه الله فى هذا القرآن فليس للداعى من دعوته إلا أن يؤدى واجبه لله لا فضل له يتحدث به لا على الدعوة ولا على من يهتدون به وأجره بعد ذلك على الله وحده والدعوة بالحكمة والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذى يعينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالكلمات قبل استعداد النفوس لها والطريقة التى يخاطبهم بها والتنويع فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه.

وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق وتعمق في المشاعر برقة ولطف لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية فإن الرفق في الموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ولكن الإقناع

والوصول إلى الحق فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهي التي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها..

والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ويشعر المجادل أن ذاته مصونة بقيمته كريمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر.

ولكى يطامن الداعية من حماسه واندفاعه يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمتدين فلا ضرورة للحاجة في الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله تعالى ، هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل والحجة فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله إعزاز الكرامة الحق ودفعاً لغلبة الباطل على أن لا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفطيع فالدعوة إذا كانت في حدود القصد والعدل حفظت كرامتها وعزتها.. والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعاً وبهذا تتحقق الأمانة لإقامة الحق في هذه الأرض.



الفصل الأول

هل من ضرورة للجدل؟

بالطبع هناك ضرورة للجدل لحسم القضايا الكبرى التي تمس العقائد والأديان.. إذ لم تخل ساحة من الساحات أو دولة من الدول أو قطر من الأقطار من الصراعات التي كما قلنا تمس جوهر العقيدة والدين ولازم عند ذلك أن يشتد الاحتكاك بين الجانبين ويأخذ هذا الصراع في التنامي والتطاول ليصل إلى أحد أمرين:

الأول: المقارعة بالحجج والمناظرات وبيان صور الجدل المختلفة.

الثاني: تقارع الأسلحة وحمل السيوف وإسالة الدماء.

والتاريخ يروى ذلك إذ حاول ذونواس - اليهودي - نشر اليهودية بين نصارى نجران بالسيف بعد أن عجز عن استمالتهم بالحجة والبرهان - كما أن الحروب كانت قائمة وشديدة بين القبائل الوثنية بالمدينة وبين اليهود - وكذلك كان هناك نزال بالبيان وجدل^(١) باللسان وانبرى المجادلون لنظرائهم في كل الميادين - يقتحمون عليهم كل خلوة ويهتكون لهم كل ستر وحجاب فلقد كانت القبائل العربية المشركة التي تجاور القبائل النصرانية المبشرة بالجنة والمحذرة من النار والمتحدثة عن البعث والنشور وهي أمور كان ينكرها العرب على نحو ما حكى القرآن الكريم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا﴾ [الرعد: ٥] - خاصة بعد أن أصبح القساوسة والرهبان يردون الأسواق العربية ويعظون ويذكرون.. كما جاء في كتب المؤرخين عن (قس بن ساعدة الإيادي) وخطبته الشهيرة والتي حكى النبي ﷺ طرفا منها بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن نسييت فلن أنسى قس بن ساعدة الإيادي وهو يقف على جمل أورق في سوق عكاظ وكان يقول: من عاش مات، ومن مات

فات، وكل ما هو آت آت، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟^(١) إلخ...

فضلا عن فريق آخر من القبائل النصرانية القائلة (بالتثليث) مما أحدث تصادما قديما بين الفريقين بسبب عدم استساغة العقل العربي لعقيدة (التثليث) ولا الإيمان برب مصلوب واحتدم النقاش والجدال..

والتاريخ يذكر: أن الأساقفة أرادوا أن ينصروا (المنذر الثالث) ملك الحيرة حوالى عام ٥١٣ من الميلاد وبينما كان المنذر يصغى إليهم إذ دخل عليه قائد من قواده فأسرَّ إليه ببضع كلمات ولم يكده ينتهى منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق فتقدم إليه أحد القسيسين وسأله عما أحزنه، فأجابه الملك: خبر سىء.. لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات فواحسرتاه عليه.. فقال القسيس: هذا محال وقد غشك من أخبرك فإن الملائكة خالدون ويستحيل عليهم الفناء.. فأجابه الملك: أحقا ما تقول؟ وتريد أن تقنعنى بأن الله ذاته يموت؟ ومع أن النصرارى كانوا يلحنون عليه بالحجة مما كان يجعل لهم الغلبة - أحيانا - فى المجادلة إلا أن استقامة الفكر العربى كان يجعل من المنازلة سجالا لا انتصار فيها لأحد.

وعلى جانب آخر كان اليهود يحاولون نشر دينهم فى البلاد العربية كلها والعرب ينفرون من دعوتهم لما عليه اليهود - دائما - من مغالاة وافتراء وزعموا كذبا أنهم:

﴿ اٰبَتُوْا اللّٰهَ وَاٰحَبَّتُوْهُ ﴾ [المائدة: ١٨] ، وكانوا ينظرون إلى العرب كأنهم فى المنزل الهون والمكان الدون.

وقد ذكر ابن هشام أن سلمة بن سلامة - وكان من أهل بدر - قال: كان لنا رجل من

(١) انظر: السلسلة الضعيفة حديث رقم (٥٩٠٦)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩ / ٦٩٧)، وهو

يهود في بنى عبد الأشهل فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل.. قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً على بردة لى مضطجع فيها بفناء أهلي.. فذكر اليهودى القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار - وهذا الكلام قيل لأهل شرك وأصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت - فقالوا له: ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً وأن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة أو نار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال نعم.. والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في النار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً، فقالوا: ويحك يا فلان.. فما آية ذلك؟ قال: نبى مبعوث من نحو هذه البلاد - وأشار بيده إلى مكة واليمن فقالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلى وأنا من أحدثهم سناً فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدرّكه..

وبالطبع فهذه الصورة وضح فيها عقيدة البعث وقد ناقشوه فيها وجادلوه ولقد دفعت الضرورة بعض - الحنفاء - بالمجادلة مع أقوامهم الذين ناصبوه العداء ومن هؤلاء زيد ابن عمرو بن نفيل الذى قال فيه الرسول ﷺ: «إنه يبعث أمة وحده»^(١)، وذلك أنه نبذ عبادة الأوثان ولم يدخل في اليهودية أو النصرانية وقال: أعبد رب إبراهيم.

قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبى بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ثم يقول: (اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلم) ثم يسجد على راحته - وكانت زوجته صفية بنت الحضرمى تناقشه وتنكر عليه عبادته بل كانت عينا عليه لعمه الخطاب بن نفيل وكان يدفع عن نفسه ذلك بمجادلتهم ومناقشتهم.

ولما بعث النبى ﷺ صارت الجزيرة العربية كلها تتحدث في شأنه وتجادل في أمره بين

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١٧٤ / ١٣) حديث رقم (٧٢١٢)، وجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩ / ٤١٦).

حائر مضطرب بین قدیم قد آلفہ و جدید قد عرفہ و انحصار الجدل فی عصر النبی ﷺ فی
ثلاثة محاور:

الأول: جدل النبي ﷺ مع المشركين:

الثاني: جدل النبي ﷺ مع اليهود والنصارى.

الثالث: جدل العرب والروم والحبشة مع بعض القرشيين.

وقد تكفل القرآن الكريم بقطع السنة المشركين ومن والاهم من اليهود والنصارى وبمجادلتهم بالتى هى أحسن - على نحو ما سبق - .

ونضيف إلى ذلك : أن مشركى قريش لما جفت حلوقهم من الجمدال مع رسول الله ﷺ وباتوا منهزمين مؤججين ذهبوا إلى اليهود يستشيرونهم فى شأن النبى ﷺ ويسألونهم علما بالكتاب لكى يستطيعوا المواجهة فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاث: فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فرؤا فيه رأيكم.. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول؟ ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب.. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.. ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هى؟

فسأل المشركون النبي ﷺ عن هذه المسائل.. فانتظر النبي ﷺ حتى نزلت سورة الكهف مشتملة على الأجوبة على ما يلي:

الأول: أما الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول فهم أصحاب الكهف.

الثاني: وأما الطَّوَّاف فهو ذو القرنين.

الثالث: وأما الروح فكما ذكر القرآن قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] - ومن المعلوم أن جدل اليهود مع النبي ﷺ كان كجدلهم مع موسى ﷺ فيه كثير من العناد والمغالاة والباطل...

ولقد ذكر ابن هشام : أن نفرا من أحبار يهود جاء إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: أخبرنا عن أربع نسائك عنهم فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك.. فقال لهم الرسول ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقوني قالوا: نعم - قال: فاسألوا عما بدا لكم.. قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل؟ فقال لهم: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتها غلبت صاحبها كان لها الشبه: قالوا: اللهم نعم.. قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ فقال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذى تزعمون أنى - لست به - تنام عينه وقلبه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم قال: فكذلك نومى تنام عيني وقلبي يقظان قالوا: فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرّم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله تعالى: قالوا: اللهم نعم ، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمونه جبريل وهو الذى يأتينى قالوا: اللهم نعم ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك إنما يأتى بالشدة ويسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعناك - فأنزل الله ﷻ فيهم:

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

إلى قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وكان جدل الرسول ﷺ مع اليهود ضروريا والاحتكاك بهم مستمرا نظرا لما بينه وبينهم من جوار - أما جدله عليه الصلاة والسلام مع النصارى فكان يهاجم فيه عقيدة التثليث ويبين كفرهم بها كما قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿[المائدة: ٧٣] - كما أنكر عليهم ادعائهم أن عيسى وأمه إلهان من دون الله وأنكر عليهم أن الله هو المسيح وأنكر عبادة الصليب وأكلهم لحوم الخنازير وادعائهم أن الله ولدا ومن أكثر من جادلهم النبي ﷺ هم نصارى نجران بالمدينة المنورة وذلك حينما وفدوا على رسول الله ﷺ وناقشوه فقرأ عليهم من القرآن الكريم فآمنوا جميعاً.. فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ربكأ أحق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصباأتم؟ فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترنا فأنزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُوْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَىٰ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصاص: ٥٢: ٥٥].

وكان لثقل الدعوة وعظمتها أن تجاوزت حدودها إلى دول أخرى مجاورة وبعيدة حتى ليروى أن قيصر الروم كان له حديث مع أبي سفيان كما جاء في صحيح البخارى في كتاب بدء الوحي: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ معادٍ فيها لقريش ولأبي سفيان - فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بترجمانه وجرى هذا الحوار:

هرقل: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً إليه.

هرقل: ادن مني - وأمر بأن يكون أصحابه عند ظهره - قريباً منه ثم قال لترجمانه:

قل لهم: إني سائل هذا - يقصد أبو سفيان - عن هذا الرجل؟

قال أبو سفيان: والله لولا الحياء لكذبت عليه - وكان أول ما وجهه هرقل من أسئلة أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

هرقل: هل قال هذا القول أحد منكم قبله قط؟ أبو سفيان: لا...

هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟ أبو سفيان: لا...

هرقل: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ أبو سفيان: ضعفاؤهم.

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟ أبو سفيان: بل يزدون.

هرقل: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ أبو سفيان: لا...

هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. أبو سفيان: لا..

هرقل: فهل يغدر؟ أبو سفيان: لا... ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها.

هرقل: فهل قاتلتموه؟ أبو سفيان: نعم...

هرقل: فكيف كان قتالكم؟ أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه..

هرقل: بماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آبائكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.. فسكت هرقل برهة

ثم قال لترجمانه: قل له سألتك عن نسبه - فذكرت أنه فيكم ذو نسب.. فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول.. فذكرت أن لا.. فقلت: لو

كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله.. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك.. فذكرت أن لا.. فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على

الله... وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون.. وكذلك أمر الإيمان

كما أرسل الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة واسمه -أصحمة - وذلك ليطلعه على الإسلام ويجادله في العقيدة الإسلامية.

وقال له : يا أصحمة : إن عليَّ القول وعليك الاستماع.. إنك كأنك في الرقة وكأننا في الثقة بك منك لأننا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه .. ولم نَحْفَظْكَ على شيء قط إلا أمتناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ... الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور.. وفي ذلك الموقع الحزِّ وإصابة المفصل وإلا فأنت في النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم وقد فرَّق النبي ﷺ رسله إلى الناس.. فرجاك لما لم يرجُّهم وأمنك على ما خافهم عليه بخير سالف وأجر يتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي يتظره أهل الكتاب وإن بشارة موسى براكب الجمار كبشارة عيسى براكب الجمل وإن العيان ليس بأشفي من الخبر..! ثم كتب النجاشي إلى النبي ﷺ بإسلامه.

ومن الواضح أن الحوار القائم على البرهان والدليل يحقق أغراضا كبيرة ويقطع مراحل واسعة في تحقيق الهدف وتغيير المواقف وقد كان هذا دأب النبي ﷺ مع منائيه وخصومه عندما تدعو إلى ذلك الضرورة والحاجة على نحو ما عرضنا.. من أمثلة وروايات يشد بعضها من أزر بعض لتثبت في النهاية أن الجدل قد يكون ضروريا عند شدة الخصومة واللباجة.

الفصل الثاني

وهل الجدل علم؟ ...

والجدل علم من أعظم العلوم إذا اكتملت أدواته ونُصّب للدفاع عن الحق والفضيلة والدين وحفظ النفس والدليل على ذلك ما سلكه القرآن من إثباتات ودلالات وبراهين تعلّى من شأن الحق وتتسامى فوق كل بيان وتعتلج في كل نفس.. ولما كان العناد والجحود أمران لا ينفكان عن أعداء الإسلام، كذلك لما كان التلفيق والتلبيس مذهباً لا يمكن التخلي عنها لخصوم الإسلام.. والكيد والتربص حقيقتان أساسيتان في منهج المكابرين والمحاquدين.. كان لازماً وضرورياً أن تكون هناك قوة دافعة تبطل (أكسير) الضلال والبهتان وتدمر بنيان الشرك وتمحو آثار الكفر.. فكان الجدل هو الواقع الذي لا مفر منه ولا محيص عنه وهذا المفهوم مستقى من نوايا وضراوة الخصوم وأن (المدافعة) من هذا المنطلق لابد وأن تأخذ حيزاً كبيراً من الاهتمام ورأينا كيف اهتم القرآن الكريم بالجدل وكيف وضعت السنة كل تشريعاتها لدفع الباطل وكيف رأت كل فساد وتوعدت كل مناضل من أجل الكفر أو مساند للباطل استناداً إلى قول الله تعالى:

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٨).

كما أن القرآن سلك في صدّه وردّه لأعداء الإسلام كل مجال في الاستدلال بالواقع البين والمنطق والبرهان والجدل والإلزام حسب الطبائع المختلفة والمشارب المتباينة والأهواء المتضاربة والمسالك المختلفة..

فمن غلبت عليهم الدراسات العقلية والفلسفية فهؤلاء لا يتزعون عن الباطل إلا بسوق البرهان والقياس التام ومنهم من تأثر بمذهب ديني أو ملي أو شيوعي وسيطر ذلك على هواه أو سقط في مستنقع النحل المذهبية أو تعصب لرأية عمية لا يرى وجه الصواب

فهؤلاء يحتاجون إلى محاولات كثيرة ومعالجات مضنية وهؤلاء - أيضاً - لابد لهم من طرق جدلية تزيل ما لبس عليهم من أفكار ومفاهيم بالتى هى أحسن حتى تُقتل أدواؤهم الدفينة وتُشفى أمراضهم المخبوءة.. ويبقى صنف من الناس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فهم في تفكيرهم أقرب إلى الفطرة وهم يحتاجون إلى التأثير الوجداني والميل النفسى والبياني..

هذا وقد تصدى ابن^(١) رشد لإثبات أن الحكيم الفيلسوف يستفيد من أدلة القرآن الكريم كما يستفيد العامي الجاهل ويرى فيه ما يرضى شهوته العقلية وبين ذلك في لباب فصل المقال حيث قال: (لما كانت طرق التصديق منها ما هى عامة لأكثر الناس أعنى وقوع التصديق من قبلها وهى الخطائية والجدلية والخطابية أعظم من الجدلية... ومنها ما هى خاصة بأقل الناس وهى البرهانية وكان الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف:

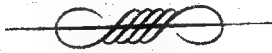
الأول: أن تكون - مع أنها مشتركة - خاصة بالأميرين جميعاً أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة أو مظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن أخذت نفسها دون مثالاتها.. وهذا الصنف من الأقاويل الشرعية ليس له تأويل.. والجاحد له أو المتأول كافر.

الثانى: أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد إنتاجها وهذا يتطرق إليه التأويل.. أعنى لنتائجها.

الثالث: عكس هذا.. وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد لنتائجها نفسها.. وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن يعرض لها أن تكون يقينية وهذا أيضاً لا يتطرق إليه التأويل - أعنى لنتائجها - وقد يتطرق لمقدماته.

الرابع: أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية

وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه وهذه فرض فيها - الخواص - التأويل ، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها وبالجمللة: فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ففرض الخواص فيه هو ذلك التأويل وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها في الوجهين جميعا - أعنى في التصور والتصديق إذ كان ليس في طباعهم أكثر من ذلك وقد يعرض نظار في الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض في التصديق... وللخصوصية في الفكر الإسلامي (إيدلوجيا) وسلامته من العاهات والآفات التي أصابت الفكر الآخر عند أهل الديانات القديمة في الدول المجاورة للدولة الإسلامية وما اعترى الفكر الإسلامي ذاته من أفكار جدت على الساحة بعد الفتوحات وفرض الأنماط الفردية التي لم تتمخض عن شيء يمكن احترامه أو قبوله اللهم إلا في النزر اليسير كما حاول أعداء الإسلام بث أفكارهم الهدامة كما فعل الزنادقة والقرامطة وخروج بعض الطوائف عن ديانة الإسلام محتمين بالفرس قبل زوال دولتهم وحلول المصائب بهم مما جعلهم يكيّدون بالإسلام ويحاربونه مرة ويستميلون بعض ضعفاء المسلمين مرة أخرى وينشرون التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستشناع ظلم عليّ - كرم الله وجهه - كما سلكوا مسالك أخرى كنسبة أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر وقالوا بالحلول والنسخ.. لكل هذا عرفت ضروب الجدل وعلومه ومعايره وهو سلاح له قيمته العلمية والميدانية والدفاعية.



الفصل الثالث

كيف تكون مجادلاً حاذقاً؟...

إن الدافع والدربة والظروف التي تحيط بالمجادل والأحداث التي تشير الرأي العام وكثرة الاحتكاك والمناظرات تجعل من نصب نفسه للدفاع والنزال أكثر حذقا ونزوعا إلى الإجابة والإتيان وتكسبه - مع الوقت - سعة في أفقه وغزارة في علمه وأرجحية في اختياره وتنميها لعرضه وتسجيلا لموقفه..

وهذا بالفعل ما حدث في عصر الذروة على نحو ما ذكرنا سلفا - فلقد ذكر أنه لما كثرت القالة في شأن عثمان رضي الله عنه وعماله اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فكلّموا عليّ بن أبي طالب فدخل على عثمان وقال له: الناس ورائي وقد كلموني فيك والله ما أدري ما أقول؟ وما أعرف شيئا تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه - إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه - ولا خلونا بشيء فنبلّغك... وما خصصنا بأمر دونك.. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك.. ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وإنك أقرب إلى رسول الله ﷺ رجما ولقد نلت من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينال.. ولا سبقاك إلى شيء.. فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإن الطريق لواضح بيّن.. وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهُدَى فأقام سنة معلومة.. وأمات بدعة متروكة.. فوالله إن كلا لبيّن.. وإن السنين لقائمة لها أعلام.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به فأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة.. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر - وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم - فيدور في جهنم كما تدور الرّحى ثم يرتطم في غمرة جهنم» وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته،

فإن عذابه أليم شديد ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول - فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة - وتلبس أمورُها عليها ويتركهم شيعة - فلا يبصرون الحق لعلو الباطل .. يمجون فيها موجا .. ويمرحون فيها مرحا .

فقال عثمان رضي الله عنه: قد والله علمت ليقولنَّ الذي قلت أما والله لو كنت مكاني ما عفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكرا إلا وصلت رحما - وسددت خلة وأدبت ضائعا ووليت شيئا بمن كان عمر يولى - أنشدك الله يا علي: هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك...؟ قال: نعم - قال: فتعلم أن عمر ولاه قال: نعم قال: فلم تلومني أنى وليت ابن عامر في رحمه وقرباته، قال علي: سأخبرك.. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإننا يطأ على صماخه.. إن بلغه عنه حرف جلبه - ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقاربك - قال عثمان: هم أقاربك أيضا..! فقال علي: لعمرى أن رحمهم منى لقريية ولكن الفضل في غيرهم..! قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته، فقال علي: أنشدك هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر.. من يرفأ غلام عمر منه؟ قال: نعم قال: فإن معاوية يقطع الأمر دونك وأنت لا تعلمها فيقول للناس: هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية ثم خرج من عنده ^(١)... انتهى .

وهذا النوع من الجدال فيه دربة ومهارة فائقة فعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر والضدية الواضحة في وقائعها إلا أنها نهت ونوهت وبصّرت وكشفت وحذرت وفيها من الحذق والإتيان بالمطلوب ما يدل نصها عليه وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة كاليهود والنصارى وفيهم من يثبت القدر ومن ينفيه، وابتدأت المناقشة في القدر مثلا تأخذ شكلا لا يلتئم مع ما أرشد إليه النبي ﷺ وهذا موضوع في غاية من الأهمية - فلقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى له بسارق فقال: لم سرق؟ فقال: قضى الله عليّ.. فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطاً فقل

له في ذلك فقال: القطع للسرقة.. والجلد للكذب على الله فالرجل زعم أن القدر يبرز الجريمة لأنها مكتوبة وساق ذلك عذرا.. وقد زعم بعض الناس أن الاعتقاد بالقدر يوجب عدم الحذر.. وقد قيل لعمر رضي الله عنه عندما امتنع عن دخول مدينة بها طاعون: أفرارا من قدر الله؟ قال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله.. واحتد النقاش حول القدر في عهد علي - كرم الله وجهه - فقدم إليه شيخ وقال: أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة.. وبرأ النسمة.. ما وطننا موطنا ولا هبطنا واديا إلا بقضاء الله وقدره.. فقال الشيخ: فعند الله أحسب عناي؟ ما أرى لي من الأجر شيئا - فقال مة أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون.. وفي منصرفكم وأنتم منصرفون.. ولم تكونوا في حالاتكم مكرهين ولا مضطرين فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقانا فقال: ويحك لعلك ظننت قضاء لازما.. وقدر حتما.. لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب.. والوعد والوعيد.. والأمر والنهي.. ولم تأت لائمة من الله للذنوب.. ولا محمدا لمحسن.. ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء.. ولا المسيء أولى بالذم من المحسن.. تلك مقالة عبادة الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى والضلال.. وهم قدرية هذه الأمة وجوسها.. إن الله أمر تخيرا ونهى تحذيرا.. وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا.. ولم يطع كارها ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا.. ولم يخلق السموات وما بينها باطلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

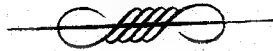
فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ماسرنا إلا بهما؟ فقال: هو الأمر من الله والحكم.. ثم تلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فنهض الشيخ مسرورا وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا جزاك ربك عنا فيه إحسانا
وإذ قد تقرر بالفعل أن الدوافع والظروف تلقى بظلالها على (نوعية الجدل

وخصوصيته) وأن المجادل لا يجادل إلا عن قناعة وعلم واستعداد لما قد يطرأ من أحداث غير محسوبة ربما تثير الشك والشطط ولقد كان جدال الصحابة في الفروع رائده الإخلاص وطلب الحقيقة بلا تناحر ولا تعصب بل طلباً للحق أينما كان وبحسب عن الحقيقة أينما وجدت آخذين بمبدأ عام أرساه القرآن حيث قال الله تعالى:

﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

والمرويات - سالفه الذكر - لمحننا فيها قوة العرض والسرِّد مما كان له أثره الظاهر في
حسم القضايا الهامة.



الفصل الرابع

متى تجادل؟..

أما الإجابة على هذا السؤال:

فهي إذا وسع المجالد إيجاد المخرج والزام الخصم في الأمور التي - تغص - بالانفعالات والحرج وربما تنتهي إلى القتال وإسالة الدماء وهذا ما حدث بين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - مع الخوارج عندما قال لأصحابه ، وكان قد بعثهم إليهم: لا تبدء وهم بقتال فليس من أراد الحق فأخطأه كمن أراد الباطل فأدركه ، والمواقف هي التي تمل على المجالد الواعي كيفية التعامل مع الموقف بما يلائمه ويوازيه بحيث يحقق لهدفه (مكاسب) تخدم قضيته وترفع لواءه - فضلا عن حقن الدماء - وهذا - كما سلف - ذكره جعل موقف علي بن أبي طالب يهادن الخوارج في أول الأمر وكان قد أرسل إليهم العباس ابن عبد المطلب (مفاوضا) وقال له : لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك لكنهم عاجلوه وخاصموه حتى أنقذ الموقف حضور علي بن أبي طالب فقام بينهم وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(إن هذا مقام من أفلح فيه كان أولى بالفلج^(١) يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال: من زعيمكم؟ قالوا ابن الكواء ، قال علي: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين ، قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلت: نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال، امضوا على ححكم وصدقكم فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنا ومكيدة

فرددتم على رأبي وقتلتم: لا ، بل فتقبل منهم فقلت لكم: اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي فلما أبيتهم إلا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحيا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أبيتنا فنحن من حكمهما براء قالوا: فخيرنا أترأه عدلا تحكيم الرجال في الدماء - فقال: إنا لسنا حكّما الرجال وإنما حكّما القرآن ، إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إلا بما يتكلم به الرجال قالوا: فخيرنا عن الأجل لم جعلته بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة، ثم سكت برهة ، وقال: ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم).

والجدال في موضعه واختيار زمانه ومكانه يكون أجدي نفعا وأدعى للقبول ما دام قد تحقق له المناخ الملائم والإرادة الحرة، فعن طارق بن شهاب قال: جاء وفد من أسد^(١) وغطفان إلى أبي بكر رضي الله عنه فخيرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزية ، فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها، فما المخزية؟ فقال: ننزع منكم الحلقة والكراع ونغنم ما أصبنا منكم وتردون علينا ما أصبتم منا وتدون^(٢) لنا قتلتنا ويكون قتلاكم في النار وتركون أقواما يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة رسوله ﷺ والمهاجرين أمرا يعذرونكم به ، فعرض أبو بكر ما عرض على القوم فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأيا وسنشير عليك: أما ما ذكرت من الحرب المجلية أو السلم المخزية فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منا فنعم ما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قولك : تدون قتلتنا ويكون قتلاكم في النار ، فإن قتلتنا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله فليس لها ديات فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه ، هذا ومن ضرورات تدخل المجادل إذا وجد خطرا محققا يدق على الأبواب فعندما تكلم الجعد

(١) السيرة السلفية - شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ ص ٦.

(٢) بمعنى تعطى الدية.

ابن درهم في العصر الأموي عن خلق القرآن والقول به حتى كان يوم الأضحى فصلى خالد ابن عبد الله القصرى والى الكوفة صلاة العيد وخطب فقال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحوا بضحاياكم قبل أن نعارضكم فإني أريد اليوم أن أضحي بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ثم نزل وحز رأسه بالسكين فقتله، وكان الخوض فى شأن القرآن قد اشتد فى عصر الرشيد ولم يكن الرشيد ممن يشجعون الخوض فى العقائد.

والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين فى العقائد من المعتزلة ولما بلغته مقالة بشر بن غياث المريسي فى شأن القرآن قال: إن أظفرنى الله به أقتله فظل بشر مختفياً طول خلافة الرشيد، ومعلوم أن الخوارج^(١) جميعاً يقولون بخلق القرآن، وقد ذهبوا إلى ذلك استناداً إلى قولهم بالتوحيد على غرار المعتزلة ولقد ذهبوا هذا المذهب مستندين إلى تأويلهم لقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ويقوم تفسيرهم على أن الله خالق كل شيء والقرآن شيء من الأشياء وهو كلام الله خلقه الله وقدره بحسب الحوادث التى ستكون من العباد كما اقتضاها قضاؤه وقدره فإن دلائل الحدوث فى نفسه ظاهرة وهى شاهدة محلقة ولو كان غير مخلوق لكان قديماً.. ولو كان قديماً لكان مشاركاً لله فى صفة القدم..

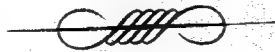
ولو شاركه فى صفة القدم لتعددت القدماء ولو تعددت القدماء انتفى قدمه الخاص به الذى اتصف به فإنه صار له فيه شركاء وهذا ظاهر الفساد ساقط الاعتبار ولو كان متكلماً كخلقه لزم له ما يلزم لخلقه من اللسان التى هى آلة الكلام ولزم له أشداق وفم يخرج منه الكلام وهذا باطل عقلاً.

وجاءت الاعتراضات (مقحمة) لتصيب فى مقتل كل مدَّعٍ لخلق القرآن حتى إن المأمون نكّل بالإمام أحمد بن حنبل رحمته الله حينما طلب منه أن يفتى بخلق القرآن فلم يزد على

أن قال: القرآن كلام الله.. وقام المأمون بسجنه وتعذيبه وتصفيده بالأغلال حتى لقي ربه شهيداً وقد انتفض العلماء أمام الحكام خاصة بعدما أشيع أن عبادة (المضحك) دخل على الواصل فقال له: يا أمير المؤمنين.. أعظم الله أجرك في القرآن..! قال: ويلك القرآن يموت؟ قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت..! بالله يا أمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مامات القرآن؟ فضحك الواصل وقال له: قاتلك الله أمسك..

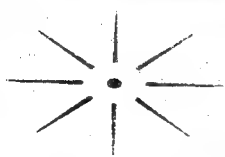
ولم تقف المحنة عند الإمام أحمد مع المأمون بل تعدته إلى يوسف بن يحيى البويطى الفقيه المصرى صاحب الشافعى ونعيم بن حماد الذى مات فى سجن الواصل، وأحمد بن نصر الخزازى الذى قتله الواصل وصلبه وغيرهم من المناهجين والمجادلين عن الحق والدين.. فالجدال إذن هو ضرورة دينية ملزمة لكل من ملك القدرة على الدفاع والذود عن المنهج الحق كما أنه رسالة طوف الآفاق شرفها وعلت المنابر أصواتها..

وكما قلنا إن الزمان والمكان والمواقف هو الوضع الطبيعى لظهور المجادل الملمّ العارف بحدود ما يجادل من أجله.. فإن انحرف الأمر عن هذه القواعد الجامعة والأعراف المتبعة فلا بد وأن يسقط المجادل وتنكسر مشاعره بينما تقوى - على حساب ذلك - مزاعم الآخر فلا ريب إذن من اضطلاع المجادل بدوره والإدلاء بدلوه فيما وجب عليه من حق دعت إليه الضرورة واندفعت به الشكوك والأباطيل.





الكتاب المجلد الثاني



الجزء الأول



الفصل الأول

حجة الله على المعاندين

يخطئ من يظن أن المعاندين - يملكون من الحجج والبراهين ما يمكنهم من المخاطرة أو القدرة على - دحض - خصومهم أو إبطال دوافع الاستمرار لديهم.. وذلك لأن القول - عمومًا - قد يصيب في بعض الأشياء ولكنه لا يضمن - بأي شكل - الإصابة - في كل شيء ووجود الخطأ حتمًا ينفي العصمة.. فقد يكون العقل - المجل - موجودًا عاملاً وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير ؛ ولأن (التقسيم المنطقي) يخطئ أيضًا كما يخطئ العقل المجل في أحكامه المجللة - ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير فالعقل الذي يميز هو الذي لا يقاوض - حقا بباطل ولا يسعى للجاجة أو العناد فليس وجود الله - تعالى - عند (أرسطو) وأمثاله مسألة دينية أو مسألة عينية يختلف الأمر فيها بين الإثبات والنفي كاختلاف الهدى والضلال.. ولكنها عندهم - حقيقة عقلية - كالحقائق الهندسية يتم بها تصور الحركات والأشكال في الأفلاك والسموات، وهم لا يحجمون عن الاعتراف بالله تعالى - مباشرة - ولكنهم يعقلون أن خلف هذا الإبداع والنظام قوة تحركه وتنظم دورته وكنهه ولكن عند ظهور الأديان^(١) التي دعت إلى التوحيد كان الجدل في صفات الله تعالى أكثر وأعنف من الجدل في وجوده فقضى (اللاهوتيون) زمنًا وهم لا يشعرون بالحاجة إلى إقناع أحد بوجود خالق لهذه المخلوقات، ولم يشعروا بهذه الحاجة إلا بعد اختلاط العقائد الدينية بالآراء الفلسفية ومناظرتهم للفلاسفة والمناطق في صناعة الجدل والبرهان.. وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله - تعالى

(١) الله: كتاب في نشأة العقيدة الألوية ، عباس محمود العقاد دار المعارف من ص ٢٠٦ وما بعدها.

بالحجة والدليل والبراهين جميعاً لا تغنى عن الوعى الكونى فى مقاربة الإيمان بالله تعالى والشعور بالعقيدة الدينية وأن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شئ لا ينحصر فى عقل إنسان ولا فى دليل يتمخض عنه عقل الإنسان، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون.

ونوع الأدلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون؛ فإذا كانت أدلة الترجيح للمؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناؤه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا المجال، وهى في الواقع أرجح وأصلح للإقناع بالفكر، فضلاً عن الإقناع بالبدهة كما يبدو من كل موازنة (منصفة) بين الكفتين ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفى في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل.. فليس للعقل البشرى خصومة في الإثبات ولا خصومة في الإنكار.. وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله في البحث عن حقيقة الوجود - وليس للمنكر أن يستريح في مرقدده ليقول للمؤمن: إنها قضيتك فابحث عنها وحدك واجتهد لها جهدك ثم أيقظنى لتسمع منى ما أراه فيها تراه قريباً كان المنكر هنا هو صاحب الادعاء وهو أحق الخصمين بالجهد في طلب الدليل - أما المؤمن فوجود الله تعالى عنده لا يحتاج إلى دليل بعد ظهور البراهين الواضحة والأدلة الدامغة والتحكم المطلق في الكون قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿الأنعام: ١٨﴾.

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٥٠﴾

[الأَنْعَام: ١٤٩].

وقد أنكر بعض الإلهيين أن يحيط العقل البشرى بحكمة الله وأن تكون لله جل وعلا غايات تناط بالأحياء والمخلوقات وفهموا الغاية على أنها نوع من الحاجة التي يتنزه عنها

الواحد الأحد المستغنى عن كل ما عداه.

وليس أضعف من هذا الاعتراض سواء عممناه على الخلق كله أو فصلناه بالنظر إلى جميع الخلائق من الأحياء وغير الأحياء ، فإذا كان الله غنيًا عن الحاجة فالمخلوقات لا تستغنى عنها وإذا كانت حكمة الله أجل وأسمى من طاقة العقل البشرى فالعقل البشرى يستطيع أن يميز بين الأعمال المقصودة والأعمال المرسلّة سُدىً بغير قصد وعلى غير هدى. وإذا كانت القدرة السرمدية لا تحدّها الغايات فالكائن المحدد لا بد له من غاية ولا بد لتلك الغاية من تقدير وتدبير ومن أين يكون التقدير والتدبير في نظر الإلهيين إن لم يكن من الله تعالى؟.

واقتضت عظمة الله أن تبقى حجته قائمة على المعاندين والمنكرين وسوف نعرض لها - مع ما سبق - من خلال هذه السياقات والأدلة وتتمثل في الآتي:

١ - السياق العام. ٢ - السياق الخاص.

فالأول: السياق العام في القرآن الكريم ، وينبني على خاصيتين:

(أ) الخاصة الأولى:

وتشمل عروض (الترغيب) والتي لم تخل منها سورة في القرآن سواء كان الترغيب عامًا أو خاصًا.. للذكر أو للأُنثى.. للأفراد أو الجماعات.. وهذا تأكيد على إبطال الدعاوى الملحدة التي تروج لمفهوم خاطئ، وهو عدم المجازاة على الأعمال.. ودحض مفاهيم الملحدين واليهود والسوقة حول (عدمية الجدوى من الأعمال) وعبثية البحث عما يحسن أو يثيب.. وهذا بالطبع يهدف إلى نشر الماديات واللاوعى ويصافح عالم الروح والتفكير والنظر والتدبر والاعتبار بلطمة ساخنة بلا مبرر ولا معنى لأن الواقع الإيماني يثبت المجازاة على الأعمال ويعتبر بنتائج المقدمات - وبالثواب والعقاب والجنة والنار إلخ.. وفي هذا العرض القرآني كفاية.

قَالَ تَمَالَى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الباقية: ٢٤].

وَقَالَ تَمَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

وأيضاً: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود: ٢٣].

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

هذا هو ما ينتظره العبد من الجزاء على صالح الأعمال حتى تتحقق ذاتيته الدينية والتي

يتمحضر عنها السياق إلى العمل والدفع إلى ساحة الإيمان تهيئة لدخول الجنة قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]..

وهذه الدالة - الدافعة تعد من أكبر الحجج على إبطال - دعاوى الملحددين والمجادلين بغير حق ، إذ من الحقائق الثابتة أن جنى الثمار يتحقق بعد النضوج والإثمار وأن القراءات الدقيقة للمعارف تعطى نتائج دقيقة ، وأن جدبة الأعمال تسرع بالحقائق إلى الوصول والظهور والدعوة الإلحادية إلى (قلب الحقائق) واضح وبين.

(ب) الخاصة الثانية :

وتشمل عروض (الترهيب) حتى لا ترتكب المحرمات والجرائم التي يعاقب عليها الشرع - إذ لا بد من رادع للشر.. ولا بد من تصد للعدوان - ففي ارتكاب المعاصي والآثام إضرار بالغير فضلاً عن خرق القوانين الشرعية التي (شرعها) الله تعالى لحماية البشر والظلم ورفع الأذى وإبلاغ المخطئ بأنه سينال جزاء خطئه وبأنه واقع تحت طائلة «المطلوبين للعدالة الإلهية» والوقوف للحساب بين يدي الله الخالق الواحد وفي هذا السياق القرآني يتبين ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠]..

وقال كذلك: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٨]..

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾

[الماعون: ٤: ٥].

وهذا أيضًا ما يليق بالعاقل - أن يتوقعه لأن الأمور وجميع موازين القوى في الكون لم ولن تخرج عن قبضته وسلطانه المهيمن.. والمحاسبة لازمة على الأفعال كبرت أو صغرت ومرتكبوا الجنایات لابد من تعقبهم وإن تفلتوا في الدنيا فلن يفلتوا في الآخرة.

الثاني: السياق الخاص في القرآن الكريم وينبني على ثلاث خاصات:

(أ) الخاصة الأولى:

إبطال - دعاوى - نفاة العقيدة من اليهود والنصارى والدةهرية.. وبقية الفرق الأخرى.. والرد على هؤلاء وهؤلاء يأتي حاسمًا إذ على نحو ما سلف من أن أدلة المؤمنين على وجود الله عز شأنه وهيمته وسلطانه على الكون أرجح من أدلة الكافرين لقوة البراهين فيها والحجج وبسط الحق والواقع الدال على تلك القوة التي يعارضها سياق الآيات القرآنية وفحواها ومدلولاتها والشواهد والثوابت الكونية التي لا محالة تحسم الشكوك وتنذر بأشد العواقب للمنكرين والجاحدين الذين ضرب الله بعضهم ببعض وفضح فكرهم وميل

هواهم إلى الضلال والتعلق بخيط العنكبوت حيث قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ

وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أَمِينَهُمْ

وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيَتَّبِعْكُنَّ ؕ إِذَا نَكَرْتَهُمْ فَلْيَعْبِرْتُمْ خَلْقَ

اللَّهِ ؕ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا

مُبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٧: ١١٩].

فإنهم حين اتجهوا إلى عبادة الأصنام والأحجار متمثلة في اللات والعزى ومناة دلووا

على جهلهم وجحودهم وجنوحهم إلى الضلال المطلق الذي لم يستطيعوا الخروج من (نفقه) المظلم فلما سقطوا في غيابهاته استولت عليهم عبادة الشيطان ذاته وجعلوه رمزاً للتمرد على كل عقيدة وكل قيمة حتى أصابته اللعنة وحينما يصور القرآن الكريم هذا الواقع فإنه - يحذر كل الأخيار من مغبة السقوط والخضوع حتى لا يصيبهم الهلاك من اتباعه واستهوائه لهم - كما أن القرآن صور منزلة التحدى التى صرخ بها الشيطان منزلة (السقوط والهبوط) التى تليق - عادة - بالمتكبر الذى لا يملك أى أداة حقيقية للثبات والدوام فمثل هؤلاء والشيطان كمثال العميان الذين لم يستعينوا بأهل البصر والرؤية وانساقوا خلف سراب ببيعة حسبه ماء ولكن الحقيقة أحرست ألسنتهم وقتلت جموحهم وأزالت بقايا البقايا من آمال كانت تراودهم.

ونفاة العقيدة - رغم مكابرتهم وعنادهم إلا أنهم - أحياناً يغيرون من مواقفهم لأنهم لما علموا أن الأصنام لا تنفع ولا تضر قالوا مضطرين:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].

وهم هنا في هذه المرة غيروا موقفهم فاللات والعزى ومناة بالنسبة لهم ليست معبودة ولا مقصودة بالعبادة ولكنها في نظرهم تقرهم إلى الله وتشفع لهم وتعلو منزلتهم عنده فأى عقل هذا الذى يطلب شفاعته من حجر أو وثن؟ وعند من؟ إن المشركين واليهود والنصارى والدهرية دخلوا خندقاً واحداً يناضلون من داخله كل حقيقة وكل واقع فهم لا يفكرون كما يفكر الحكماء..

ولا يعقلون كما يعقل النبهاء بل ولا يعي أحدهم بعقله المجرد أن يكون خلف ضلاله وعناده دار تنتظره يقال لها (الجحيم) وإذا كان الدهريون يدعون أنهم صنعة الدهر وبيده وحده إيجادهم وإعدامهم - فهل يا ترى الدهر لهم وحدهم أم أنه أيضاً صار لغيرهم ممن

اهتدوا وقويت بصائرهم ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

إن اللا دينيين يقفون عند محور العقيدة - موقفاً متأرجحاً بين العقل والطبيعة فهم مرة ينقبون عن الحجج التي يردون بها على (الدينيين) وهذا تسليم في الواقع بأن المطروح عليهم يستحق الرد بما أنه مقنع - تقريباً - من جهة الخصوم وإلا فبداهة لا يمكن الرد على ما لا قيمة له وقد ثبت بالعقل (أن كل ذى قيمة يُرد عليه وتُستجمع له كل القوى ومرة أخرى - يحيلون الثوابت إلى الطبيعة وأن كل شيء مرده إلى الطبيعة التي تتحكم وتصير وتجسد وكأنهم يعتقدون - وهم يدعون المعرفة - أن الطبيعة ذاتها برهان كوني على وجود قدرة محركة تفوق كل القوى وأن الطبيعة تختلف جواهرها من قارة إلى قارة وباختلافها تتعارض أو تتفق طبائع البشر - وباختلاف الجميع تثبت عدم القدرة والتحقق إلا بيد مالك قادر قاهر).

(ب) الخاصة الثانية :

إبطال دعاوى نفاة القدر والخلق والإبداع الإلهي.. والقول بنسخ الأرواح والحلول.. وما شابه ذلك ودعاوى هؤلاء كذلك شابهها كثير من المغالطات فمن حيث إنهم ينفون القدر ويدعون عمداً أن اللجوء إلى هذا الاعتقاد يلغى العقل من الإبداع والابتكار - على حد زعمهم - وهو بالتالي يلجئ المعتقدين بذلك إلى الصنعة والتسليم ولا يمكن إقامة حضارة أو نهضة شاملة إلا بالعمل والتقدم وإيجاد الآليات والقواعد والضوابط التي تواكب التحضر والتقدم وهذا القول مردود عليه بأن الإيمان بالقدر لا يعنى الاستسلام أو إلغاء العقل.. بل على العكس من ذلك فالإيمان بالقدر يؤكد تحقيق كلمة الله تعالى في الأرض ويدفع إلى التقدم والنهوض الجماعى للأخذ بأسباب هذا التحضر وأنه لا مجال لأحد على الإطلاق في أن يفكر مجرد تفكير أنه قادر على إيجاد المقدرات - أو صانع للحضارة دون تدخل إلهي جبار لا ينتهى بزمان أو مكان ولا يحد بحدود ولا يقيد بقيود..

بل إن الإيمان بالقدر أصلاً تحضر علمي باعتباره وصول إلى التسليم بغيب لا يعرفه أحد من الخلق وهو - أى هذا الغيب - خيراً كان أو غير ذلك متحقق وواقع في الحياة بإرادة

مدبر المسيطر لا يقدر - مخلوق - على منعه أو دفعه أو الهروب منه مع أننا نعلم علم اليقين بأن هؤلاء يرتبطون بعلماء الكهنوت والتنجيم ويبحثون عن المتنبئين لإخبارهم بالغيب والنهاية والاقتصاد وغير ذلك، أليس هذا من قبلهم تسليم بغيب لا يجادل أحد في نفى علمهم به أو معرفة وقت وقوعه أو زمن حدوثه .

وعليه فالمؤمنون بالقدر محقون في هذا الإيمان لأن القدر قدرة يتحقق معها المقدر والمغيب وهل يمكن أن نسميه بغير ذلك فماذا كان إذاً إذا لم يسم (قدرًا) .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي^(١) والنسائي وابن ماجه عن يحيى ابن يعمر في رواية ابن عمر قال: (كان أول من تكلم في القدر بالبصرة «معبد الجهني» فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميدي حاجين أو معتمرين.. فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه داخلًا في المسجد فاكتفته أنا وصاحبي فظننت أن صاحبي سيكمل الكلام إليّ.. فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم يزعمون أنه لا قدر وأن الأمر أنف... فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منى براء ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. إلخ»^(٢).

وعن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ المتوفى سنة ١٢٥٨ هـ - مطبعة

دار الحديث ص ٥٥٢، ٥٥٣) باب ما جاء في منكرى القدر ورواية ابن عمر ... إلخ.

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد في مسنده رقم (٣٤٦)، وصاحب كنز العمال (١ / ٢٧٢)، والطبراني في

الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، وكتاب الإيمان لابن تيمية

الإيجاز في الجس في القرآن ١٠٧

رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر.. من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه.. وهم شيعة الدجال.. وحق على الله أن يلحقهم بالدجال» (١).

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار» (٢).

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله لما سئل عن القدر قال: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله تعالى.

والمعنى كما قال المؤلف: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء.. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى.. فضلوا عن سواء السبيل (٣).

وقد قال بعض السلف:

«ناظروهم بالعلم فإن أقرؤا به خُصموا. وإن جحدوه كفروا».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿[القمر: ٤٩]».

وقال أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢)

[الطلاق: ١٢].

(١) ضعيف: رواه أبو داود رقم (٥٥٢)، شرح العقيدة الطحاوية للألباني رقم (٢٤٢)، وانظر السلسلة الضعيفة (٥٧١٤).

(٢) فتح المجيد ص ٥٥٤.

(٣) نفس المرجع ص ٥٥٥.

وتأسيساً على هذا :

فالقول بأنه لا قدر وأن مصانع التكوين ومختبرات التقدير - تحكمها الآليات وتسيرها الطبيعة كلام لا يعتد به بل يجب على المسلم أن يزيل الشبهة عنه - عند الفتنة - بسؤال أهل العلم والمعرفة به، والمنكرون للقدر منكرون ومعهم ثلة من الجاحدين أيضاً للثواب الكونية وهي التي صنعتها القدرة الإلهية بتحكم وتصيير وإبداع لا مثيل له كما نرى في نور الشمس وضوء القمر وظلمة الليل وبياض النهار والفصول المختلفة والبرد والحر والماء والنبات وما شابه ذلك من أشياء نعلمها وأخرى غيبى لم يتح للإنسان العلم به إلا إذا أذن الله تعالى له في ذلك في يوم وساعة ولحظة يقدرها جل شأنه، والإبداع الإلهي يمحو أى إبداع بشرى - على حدّ قولهم^(١) - .

ولأن العلم المنوط بالإنسان تعلمه هو معلومات تناسب بشريته وعقليته وإنسانيته وهو - أى الإنسان - إبداع أبدعه العليّ القدير وسوّاه وعدله ولقد ذهبت فرقة «التناسخية»^(٢) إلى القول بتناسخ الأرواح في الأحياء والانتقال من شخص^(٣) إلى شخص.. وما يلقي الإنسان من الراحة والتعب والدعة والنصب فمرتب على ما أسلفه من قبل وهو في بدن آخر جزاء على ذلك.. والإنسان أبداً في أحد أمرين:

أ- إما في فعل.. ب- وإما في جزاء.

وما هو فيه : فإما مكافأة على عمل قدمه.. وإما عمل ينتظر المكافأة عليه.. والجنة والنار في هذه الأبدان.

وأعلى عليين: درجة النبوة.. وأسفل السافلين: دركة الحية.. فلا وجود أعلى من درجة الرسالة.. ولا وجود أسفل من دركة الحية...

(١) إذ لا مبدع إلا الله عز وجل.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني دار الفكر ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) أى عن طريق الحلول.

وقد ساق (الشهر ستاني) قطوفاً من حكم (هرمس^(١)) يقول في بعضها:

(أفضل ما في الإنسان^(٢)) من الخير العقل.. وأجدر الأشياء ألا يندم عليه صاحبه هو العمل الصالح.. وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد.. وأظلم الظلمات الجهل وأوثق الإسار الحرص).

وقال: من لم يعرف عيب نفسه.. فلا قدر لنفسه عنده.

وقال: الفصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطق له. والجاهل منطق عليه.

وقال: الغضب سلطان الفظاظة والحرص سلطان الفاقة، وهما منشئا كل سيئة.. ومفسدا كل جسد.. ومهلكا كل روح..

وقال: كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع، وكل شيء يُقدَّر على إصلاحه غير الخلق السوء.. وكل شيء يستطيع دفعه إلا القضاء.

وقال: أحمد الأشياء عند أهل الأرض والسياء: لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة، والحق في الجماعة.

وقال: أدهش الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته..

وقال: لا تكن أيها الإنسان كالصبي إذا جاع ضغاً^(٣)، ولا كالعبد إذا شبع طغى، ولا كالجاهل إذا ملك بغى.

وقال: كل إنسان موكل بإصلاح قَدْرٍ باع من الأرض.. فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها، وإذا أضاعه أضاع الجميع وقَدَّر ذلك نفسه.

وقال أخيراً: ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل، ولا بنور ما لم يمحق الظلمة، ولا بطيب ما

(١) قيل: هود عليه السلام.

(٢) الملل والنحل: ص ٣٠٠ وما بعدها.

(٣) ضغاً: أى صاح.

لم يدفع التن ، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ولا بصالح ما لم يخالف الطالح .

ولقد ساق الشهرستاني هذه الحكم الهرسية ردًا على مزاعم الفرق التي شرّعت لنفسها أنماطًا عجبية واتخذت لنفسها مناحي لا تخلص إلى حقائق.. وإذا كانوا اتفقوا على تقييد المنهج

﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] .

فلا ريب أن فيما سبق من حكم يقف بهم عند حدود رادعة ومقيدة، والخلاصة: أنه قد ثبت نفى هذه الدعاوى بالكتاب والسنة وانحصرت تلك الدعاوى في بيان الشبهات - الخارجة - عن المنطق الصائب والتي بلغت حدًا من الجهل والعناد - لا مبرر له - وانكشفت مجانبتها - للصواب - بعد ما أقيمت الحجج ودعمت بالبراهين ، وأبطلت كل زعم وشك وسوء فهم .

(ج) الخاصة الثالثة: إبطال - دعاوى - نفاة (العمل):

وهذه كبرى - المفاجآت - وأشدّها خطرًا على الثوابت والقواعد الإيمانية ؛ لأن - المعاندين - يحاولون إقناع العامة بأن الثواب والعقاب وما جرى مجراها من الجزاء والحساب - أمور غيبية - تشغل أحلام البسطاء والعجزة ولكن ليس لها في النهاية عائد أو مردود - مادي ملموس - إذ لا حاجة إلى عمل لا جدوى من ورائه وإن المُنح يقابله العطاء حاضرًا وإن أحلام العجزة والبسطاء حيال هذا الغيب والعائد المجهول لا يعدو كونه استسلامًا ومحض أوهام.. ولكننا نقول لهؤلاء : إذا كان العمل الذي تقصدونه عملاً نفعيًا تترتب على إنجازه مصالح معينة أو مادية فهذا مقبول ؛ لأن الإسلام حث على إعطاء الأجرة مقابل العمل ، والكل منتفع وهو كالشركة والصناعة والتجارة وما شاكل ذلك .

أما العمل الروحي الذي نؤمن به ونسلم بثوابه - نحن المسلمين - فهو ما تختلفون معنا فيه فديننا دين حركي وعملي لا يكون بالرمز أو بالإشارة ولا باستكانة - المؤمن - أو ابتعاده عن حقل العمل الإسلامي الذي - يظاھرہ ويسانده - الصدق والإخلاص والصبر والاحتساب وهذه مسائل لا يعرفها المعاندون ولا يعتقدون بها منسوبة إلى غيب يجازي عليه الإنسان في الآخرة وعندنا - نحن المسلمين - قاعدة (الجزء من جنس العمل).

وكذلك كان الجزء^(١) مماثلاً للعمل من جنسه في الخير والشر (فمن ستر مسلماً ستره الله ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن أقال نادماً أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن ضار مسلماً ضاراً الله به ، ومن شاق شق الله عليه ، ومن خذل مسلماً في موضع يحب نصرته فيه خذله الله في موضع يحب نصرته فيه ، ومن سمع سمع الله به والراحمون يرحمهم الرحمن وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، ومن أنفق أنفق عليه ، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه ، ومن تجاوز تجاوز الله عنه ، ومن استقصى استقصى الله عليه).

فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه وكله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظر بالنظر واعتبار المثل بالمثل لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتدة في الأحكام القدريّة والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت واقتضائها

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيم الجوزية - تحقيق وتعليق عصام الدين الضابط دار الحديث

لأحكامها وعدم تخلفها عنها إلا لما منع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف أثرها عنها كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥].

وأيضاً: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتِنَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [الليل: ١٩، ٢١].

وإنما كان الجزاء من جنس العمل ومضاهاته به للدلالة على العدل الإلهي المطلق ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [٧] ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [٨] [الزلزلة: ٧، ٨].

وفي مقام الجزاء الطيب على الأعمال آيات كثيرة نقف منها على هذه الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].

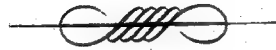
وقوله: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وكذلك: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ

اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَتْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

وفي الحديث الشريف: «لا تأكلوا في آنية الذهب والفضة ولا تشربوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»^(١).

ومن هذا كله يتبين أن: أولئك الذين يتفنون الجزاء على العمل سلباً أو إيجاباً إثباتاً أو نفياً^(٢) إنما يحاولون إخفاء انفعالاتهم وضغائنهم تجاه الإسلام، ويكابرون ويعاندون لصد المسلمين عن التسليم بالثواب الشرعية التي - يعتقدونها - ويولونها اهتماماً عظيماً ولا يجاوزونها إلى غيرها ويطرحون ما عداها؛ لأن القيمة - العملية - إذا كان توأمها الروح وحسن الظن استقرت على الدوام ويتعذر استئصال جذورها أو نزع ثوابتها وبات حقيقةً بالمسلم ألا ينساق أمام هذه الدعاوى المغرضة.



(١) صحيح: أخرجه البخاري رقم (٥٤٩٩)، ومسلم رقم (٥٥٢١)، وأحمد وأبو داود والنسائي انظر

صحيح الجامع الصغير (٥٦١).

(٢) في مفهوم الفعل والترك.

الفصل الثاني

آيات الاحتجاج

وفي القرآن الكريم آيات يسوق الله تعالى من خلالها الحجة - على المعاندين منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاءً مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٦].

٢- قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

٣- قول الله تعالى: ﴿ قُولُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

٤- قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٥- قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾

[آل عمران: ٢٠].

٦- قول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

٧- قول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تُحَاجُّوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ [آل عمران: ٦٦].

٨- قول الله تعالى: ﴿ لِمَ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ

وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ [آل عمران: ٦٥].

٩- قول الله تعالى: ﴿ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ

إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٧٣﴾ [آل عمران: ٧٣].

١٠- قول الله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ

اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥].

١١- قول الله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾

[الأنعام: ٨٠].

١٢- قول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

١٣- قول الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩].

١٤- قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ [غافر: ٤٧].

١٥- قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مَحْضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

١٦- قول الله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحاثية: ٢٥].

ومن هذا العرض العام لآيات الاحتجاج نجد القرآن الكريم قد أحاط بكل المفاهيم وحاج كل الخصوم - مع اختلاف الدوافع والنوازع - ودحض بالحجج الدامغة أفكارهم الضالة - ومعتقداتهم الضالة - ووضح من خلال عرض الآيات أنهم - لو حقوا - في كل ما ذهبوا إليه - سواء كان ذلك ضد أنبيائهم أو ضد رسلهم عن طريق - البيان والحوار الجليل - كما ظهر ذلك مع سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه ثم انتصاره عليهم وكما لمحنا ذلك أيضاً في البيان العام لكل - المعاندين - كما في قول الله تعالى: ﴿لَيْتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ورأينا ذلك أيضاً في (محاجة) أهل النار بعضهم لبعض وإلقاء اللوم من كل فريق على الآخر بعد أن كانوا يظنون أن العقاب غير واقع.. وأن العذاب غير حاصل.. ثم في بيان أن حجة الله تعالى هي الغالبة على جميع خلقه في جميع شؤونهم وعلى جميع أعيانهم وهي الحجة الكبرى التي وصفها - ذو الجلال والإكرام بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

إن دوافع المكر والعناد لم تأت لأصحابها بأى عائد من عوائد الخير ولم تنجح في فرض

ولايتهم أو قدرتهم على فرض ما يعتقدونه فضلاً عن نزولهم إلى الدركات السفلى وهذا

واضح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَنَّاهُمْ

دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ [الشورى: ١٦].

ثم يأتي فاصل من الإقناع الأكيد بأن الماكرين والمعاندين إذا أعتهم الحيل وضقت بهم

السَّيْلُ سَدُّوا آذَانَهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

وَأَسْتَغْفِرُوا لِذَنبِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ ۖ إِنَّكُمْ تُرْجَوْنَ

فكان رد القرآن على أمثال هؤلاء: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا

حُجَّةَ يَبْنَا وَيَبْنَكُمُ ﴿الشورى: ١٥﴾.



الفصل الثالث

إشارات واضحة

وفي القرآن الكريم «إشارات» وضع جلاؤها وإحاطتها^(١) بأسس عامة تمثلت في:

أولاً: إحاطة القرآن الكريم بعلم الغيب وحقيقته:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥)

[النمل: ٧٥].

قال الله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣)

[الأنعام: ٧٣].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ

فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣) [هود: ١٢٣].

قال الله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦)

[الجن: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا

يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) [النمل: ٦٥].

(١) وهي لإحاطات جامعة للآيات ذات الموضوع الواحد في إطار معين كالتفسير الموضوعي.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُيُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [البقرة: ٣٣].

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩].

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ [التوبة: ٩٤].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ﴿١٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٩].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَثْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَجٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٧٧﴾ [النحل: ٧٧].

قال الله تعالى: ﴿أُطْلِعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ [مريم: ٧٨].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَ كُنُوزُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ [سبا: ٣].

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٦﴾

[الكهف: ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١٠٩﴾

[المائدة: ١٠٩].

قال الله تعالى: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ﴿٧﴾

[الأعراف: ٧].

ثانيًا: إحاطة القرآن الكريم بالحاضر ومعطياته:

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[النحل: ٩٧].

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾

[النساء: ١١٥].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْفُلُونَ مِثْلَ بَعْضِكُمْ مَظْهَرًا لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ [آل عمران: ١٣٠].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [٥١] ﴿[غافر: ٥١].

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [٨] ﴿[الرعد: ٨].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ نَفْسٍ وَلَا يَمُوتُ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١] ﴿[فاطر: ١١].

قال الله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٨] ﴿[الأنفال: ٨].

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ [٥] ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ [٦] ﴿فَسَيُسِّرُهُ﴾ [٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [٨] ﴿وَكَذَبَ بِالْحَقِّ﴾ [٩] ﴿فَسَيُسِّرُهُ﴾ [١٠] ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥: ١٠].

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [٨٨] ﴿[النمل: ٨٨].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْآلِنَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا بِهِ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٢١].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ [محمد: ٧].

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ
بَخُلْفِهِنَّ بِمَقْدِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

[الأحقاف: ٣٣].

ثالثاً: إحاطة القرآن الكريم بالمستقبل وتوقعاته:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا
 تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِرُونَ
 ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِأَلْفِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتْ الرُّومُ﴾ ١ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ٢ ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ ٣ لِلَّهِ

الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
يَنْصُرُهُمُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

[الروم: ١: ٥].

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

قال الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾ [النحل: ١].

قال الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً
يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ [القمر: ١: ٣].

قال الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ
مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ [الأنبياء: ١].

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ
كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾ [غافر: ١٨].

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ طَبِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢].

قال الله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾ [النحل: ٨].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ [البروج: ١٢: ١٦].

رابعاً: إحاطة القرآن بالمتقابلات وعرض الأضداد:

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ
الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٦٦﴾ [آل عمران: ٦٦].

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١﴾ [المجادلة: ١١].

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿٢﴾ [الحديد: ٣].

قال الله تعالى: ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٩].

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٦٨].

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

الفصل الرابع

دلالات الاحتجاج

القرآن الكريم يسرد الحجج ويسوقها صريحة. أو بمعنى الصريحة للتدليل على الوقائع الكونية والتأكد من إثبات ما حقه الإثبات ونفى ما حقه النفي وقد عرّض القرآن الكريم باليهود الذين كانوا يعلمون أن القرآن حق وأن النبي ﷺ حق بدليل أخذ العهد على الأنبياء بتصديقه ونصرتة ودعمه ولكنهم - لعنادهم، رفضوا المواجهة خوفاً وجبنًا حتى لا يسلّموا بالواقع خاصة وأن الحاجة تتطلب مواجهة طرفين - متحاجين - يبرهن كل طرف على قوة حجته.. وأن ضعف الحجة يشير إلى ضعف قضية المحتج وهدفها - فليس له آنذاك - إلا التسليم، قال تعالى فاضحاً كلاً من اليهود والمناقين بأنهم يخافون محادثة - المؤمنين - حتى لا يحاجوهم عند ربهم لتعمدهم - الكذب والعناد - تارة والتلفيق والتبجح تارة أخرى قال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِغَضُومِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: ٧٦].

ولا يظن^(١) بأهل الكتاب أنهم يعتقدون أن إخفاء ما في الكتب يدفع الحاجة بكونه فيه في العقبي؛ لأنه اعتقاد منهم بأنه تعالى لا يعلم ما أنزل في كتابه وهم براء منه والقول بأن المراد (ليحاجوكم) يوم القيامة وعند المسائل فيكون زائداً في ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رءوس الأشهاد في الموقف العظيم..

فكان القوم يعتقدون أن ظهور ذلك في الدنيا يزيد ذلك في الآخرة للفرق بين من

اعترف وكنتم وبين من ثبت على الأفكار.. أو بأن (المحاجة) أنكم بلغتكم وخالفتم - تندفع بالإخفاء - يرد عليه أن الإخفاء - حينئذ - إنما يدفع الاحتجاج بإقرارهم لا بما فتح الله عليهم، على أن المدفوع في الوجه الأول زيادة التوبيخ والفضيحة - لا المحاجة - وحمل عند ربكم على يوم القيامة والتزام أن الإخفاء يدفع الاحتجاج ليس بالبعيد ولعله أولى من بعض الوجوه فليستدبر.. ففوة الحجة والدليل يضعف - موقف الخصم - ويفتح عليه أبواباً من الحجج الأخرى وفي القرآن - أيضاً آيات ذات دلالات - وقناعات - يلجم الله بها

الخصوم منها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ ﴾

[الكهف: ١٠٣: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ۝١٧ ﴾

[سبا: ١٧].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقول الله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُلُّهُمْ بِرَهْنٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ

نُورًا مُبِينًا ۝١٧٤ ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى عَائِثِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

[الحديد: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

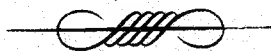
[الأنعام: ١٤٩].

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِيَ الْآبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتْلَعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمَلُوا لَكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ٩٩].



الفصل الخامس

تعليق

قال الإمام محمد عبده رحمته الله :

(إن الإيمان يعتمد اليقين ولا يجوز الأخذ فيه بالظن وإن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله وقدرته).

.. وفي موضع آخر قال:

(بلغ هذا الأصل^(١) بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج).

(إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه - ويحتمل الإيمان من وجه - حمل على الإيمان) ؛ ولذا كان القرآن دائما كتاب إقناع وهداية يجتمع كله على أصل واحد هو فهم الواقع الذي يلمس ويحس ليبصر به الناس بعيونهم أو يحسوا به بحواسهم ويقدروه ببصيرتهم أى بعقولهم ومداركهم وليس فيها (أوامر مفروضة) بل هى مشاهدات ثابتة تستنبط منها نتائج لازمة، وأول ما يبيده العقل من صور الإقناع تسليم الجميع باستحالة صدور القرآن من مصدر بشرى على ما سلف من بيان، وتتابع بعد ذلك حجج الله على الناس بما يقرءونه فى صفحات الكون العظيم، ويستنبطون منه فالقرآن يذكر الآيات، ويورد النبوات، ويستعمل القسم ويخاطب الفطرة، ويبين السنن التى لا تختلف، ويستعمل التحدى للمكابر وفى كل أولئك احتجاج بواقع لا يمكنهم أن يتماروا فيه^(٢)!!

(١) ولد فى محلة نصر - بشراخيت - بحيرة - توفى ١٩٠٥.

(٢) القرآن والمنهج العلمى المعاصر - ص ٣٤.

(٣) نفس المرجع ص ٣٦.

والقرآن يتحدى -المكابر- بالفطرة التي يتجه بها إلى خالقه كهيئة ما يتجه الوليد إلى أمه^(١) إذا حزبه الأمر لأنها سبب وجوده وإليها ملاذه ومن ذلك قوله تعالى في القرآن مثلاً:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

ويتحدى بعظمة خلقه فيبهت المكابرين إذ يستسلمون مبلسين قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا خَلَقَ اللَّهُ فَارُوقِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١].

فضلا عما ساقه القرآن الكريم من حجج على المعاندين التائبين في وصف الكون وسننه، والطبيعة وأطوارها، والخلائق وأوصافهم والأمم والأفراد والقرون والأزمان، وكلها لا تختلف في الأكوان بل إن مصدرها جميعاً إلى الله ﷻ ، ونجد دائماً في كل حجة قرآنية شهادة بالحواس لينزل عليها حكم العقل^(٢) ويتخذ الأكوان كلها والأشياء كلها مجالات تعمل فيها الملكات للاستقراء والاستنباط وهي جماع وسائل المعرفة.

(١) نفس المصدر ص ٣٨.

(٢) القرآن والمنهج المعاصر ص ٤٣.

وفي موضوع آخر يقول (١) :

(ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه لغلبة الظنّ عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته، وإنما ذلكم هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه..

ومرة أخرى يقول الإمام (٢) :

(يقول واهمّ إن العجز حجّة على من عجز، فإن العجز هو حجة الإقحام والزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلّمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل).

ونعود إلى الأستاذ / محمد فريد وجدى وهو يصف القرآن بأن أصوله تقرر سعادة الأمم وتقيم الحجة على المكابرين والمعاندين بقوة حجته وبيانه ومصارمته أهل الباطل والوقوف لهم بالمرصاد دائماً فيقول:

(أحدث القرآن انقلاباً اجتماعياً في الأمة العربية^(٣) لم يكن متوقفاً في جميع أدواء حياتها فبعد أن كانت قبائل جاهلية بعيدة من مظان التطورات الاجتماعية التي تأخذ بالشعوب إلى منصات الرفعة والسؤدد أصبحت أمة متوحدة الوجهة تنشُد غاية من أسْمى الغايات الاجتماعية أهّلتها لأن تكون صاحبة الخلافة على الأرض لا يشاركها فيها مناظر من الأمم المناظرة لها!!).

(١) صاحب دائرة المعارف أ/ محمد فريد وجدى ص ٦٧٥.

(٢) محمد عبده نفس المصدر ص ٦٧٥ وما بعدها.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين ص ٦٨٠ وما بعدها.

ويقول: (ليس في قيام الأمة العربية شيء مما يخالف النظام الطبيعي لأن تكون الأمم من القبائل تحت تعليم - مصلح اجتماعي - ولا يعد من الشذوذ من الأمور الاجتماعية ولكن وجه العجب فيه أنه أتى طفرة - فلم يكذبُ شيعة المشيعون في المدن الرومانية والفارسية واليونانية بأن رسولا ظهر في أقصى بلاد العرب يدعو قومه إلى دين - إلا وطلائع جيوش أولئك القوم يحيط بأسوار تلك المدن تدعو أهلها لواحد من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب).

والقرآن أجمل وفصل - حسب اللزوم - فجاء مصدر «السنة» أيضًا ليفصل المفضل ويدلّل للمفصل وذلك لقصد نبيل وهو بيان العلاقة الكاملة بينهما - لإحاطة الأمم كلها بعدم التعارض ولحسم أي خلافات قد تطرأ بين «العلماء» يومًا عند تناولهم لمسألة أو تشريع.

ولذلك كان القرآن والسنة على ثلاثة أوجه من التوافق والتعاقب على ما يأتي:

الأول: موافقة السنة للقرآن من كل وجه.... فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد^(١) من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: كون السنة بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له.

الثالث: إيجاب السنة لحكم سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمه لحكم سكت القرآن عن تحريمه - وهي لا تعارض القرآن بوجه من الوجوه فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته، وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله تعالى بل هي امثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ﷺ ولو كان الرسول ﷺ لا يطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى؟ وسقطت طاعته المختصة به قال الله تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن قيم الجوزية - تحقيق عصام الدين الضبايطي ، ط دار الحديث ص ٢٦٣.

حَفِظًا ﴿٨٠﴾ [النساء: ٨٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

وقد ثبتت - محاجة - رسول الله ﷺ لكفار مكة واليهود والمنافقين بما أوضحناه سلفاً من سياق الآيات القرآنية؛ ولأن الاحتجاج بالسنة هو فرع عن الاحتجاج بالقرآن الكريم.

وبهذه الدلالات وتلك الإشارات اللفظية التي دلت على الشمول «العام والخاص والمشارك» ودلالة المنطوق والمفهوم وتقسيم المعنى من حيث الظهور والخفاء عرف العلماء كيفية إفحام الخصوم حتى تجاوزوا الوسائل غير اللفظية والتي تشمل حركات الجسم وما تحمله من دلالات لغوية ومن هذا اللون ما جاء في القرآن الكريم مثل:

(أ) شَخُوصُ الْبَصَرِ عِنْدَ الدَّهْشَةِ: كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا

هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوِّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا

بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وهذا الندم عندما يتحقق - يأخذ بالالباب والأبصار.

(ب) غُلُّ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعُنُقِ لِلإِشَارَةِ إِلَى الْبَخْلِ: كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ

يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقد أشار الجاحظ إلى أن : أحسن الإشارة ما يكون باليد والرأس يقنع الخصم ويهيئه طبقاً لقبول الكلام والاستماع إليه وهو من حسن وتمام البيان باللسان كما تتواصل العين والجفن للتفاهم بين اثنين بطريقة تخفى على الآخرين في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس ومن غير الجليس، ولعلماء النفس دراية يؤكدون بها انجذاب الإنسان لغيره لحفة حركته أو إشارته أو تهيؤة لموقف يتطلب شكلاً معيناً من الأشكال ..

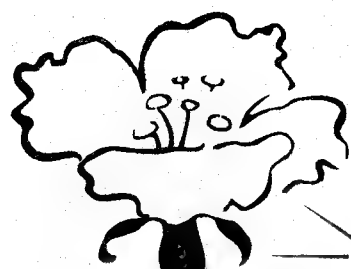
وتبقى الدلالات والإشارات مع هذه العوامل هي المحركة للعقل والمنشطة للفكر وتنتهي الحجة بإعلان المواقف «رسمياً» حتى يغلق باب اللجاجة والخلاف..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

«مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم» يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه - أي على من أنكر عليهم - وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال فدعهم!!».

هذه هي الإشارات والدلالات التي تقوّى الحجة وتقنع الجميع وتقوى جناب المسلمين!!





الحمد لله الذي
جعلنا من عباده

الغالبين
الذين لا يذلون

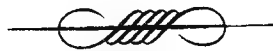


مقدمة

احتوى القرآن الكريم على أنواع من الجدل تلخص حالات معينة وتبين مواقف خاصة إما للفت النظر إلى تلك الحالات وإما لسوق العبرة والموعظة وإما لضرب الأمثال لتكون هدياً ونبراساً للبشرية واستحواداً على بيان ومقادير الخلائق ونشر أنواعها وصفاتها وجواهرها وتعريف الناس بها وهذا مبسوط في عروض القرآن وحواره البليغ كما في قصة صاحب الجنتين الوارد ذكرها في سورة الكهف من الآية رقم ٣٢: ٤٣ والقائم على المقدمات والنتائج بغية الوصول إلى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم..

وكما في الحوار الوارد ذكره أيضاً في سورة القلم حول أصحاب الجنة من الآية رقم ١٧: ٣٢ وحقيق بمن عرف وتذوق أن يزداد من الخيرات ويتشوق وهذا هو الملحوظ من عروض الآيات الكريمة، وإنما يعيننا في هذا الباب بيان أنواع الجدل المختلفة والمتنوعة لإظهار بلاغة وعظمة وجلال القرآن تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويحتوى هذا الباب على فصول ثمانية ومتنوعة في الجدل على ما يأتي في الصفحات اللاحقة مع الاستدلال من القرآن الكريم والسنة النبوية.



الفصل الأول

الجن والإنس

نبذة عن الجن :

الجن: نوع من الأرواح العاقلة المريدة على نحو ما عليه^(١) روح الإنسان ولكنهم مجردون عن المادة وليس لنا علم بهذا النوع من الأرواح إلا بما هدانا إليه القرآن العظيم من أنهم عالم قائم بذاته وأنهم قبائل وطوائف وأن منهم مسلمين وكافرين.

قال إمام الحرمين^(٢):

اعلموا رحمكم الله أن كثيرًا من الفلاسفة وجاهير القدرية وكافة الزنادقة أنكروا الشياطين والجن رأسًا ولا يبعد لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتثبت بالشرعية وإنما العجب من إنكار القدرية مع نصوص القرآن وتواتر الأخبار واستفاضة الآثار.

وقال القاضي أبو بكر البلاقلائي^(٣):

وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا وينفون^(٤) وجودهم الآن ومنهم من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يرون لركة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها.

ومنهم من قال : إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم.

(١) دائرة معارف القرن من ص ١٨٥ ج ٣.

(٢) الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري ت: ١٧٩ هـ.

(٣) الإمام العالم محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ت/ ٤٠٣ هـ.

(٤) أحكام الجان: الإمام بدر الدين أبي عبد الله الشبلي ت/ ٧٦٩ هـ تحقيق د/ السيد الجميلي - دار ابن زيدون

الجن يعرفنا بنفسه من القرآن :

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِْلَشَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا

رَشَدًا ❶ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ❷ [الجن: ١: ١٥].

قال أبو عمر بن ❶ عبد البر :

الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتب فإذا ذكروا الجن خالصا قالوا: جنى - فإذا أرادوا أنه ممكن يسكن مع الناس قالوا: عامر والجمع عمار - فإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا: أرواح فإن خبث وتعزم فهو شيطان فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك وقوى أمره قالوا: عفريت والجمع عفاريت والله أعلم بالصواب... انتهى.

وقال أبو حذيفة إسحاق بن بشر القرشى فى المبتدأ :

حدثنا عثمان حدثنا الأعمش عن بكير بن الأخنس عن عبد الرحمن بن سابط القرشى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ❷ قال: (وكان الجن سكان الأرض والملائكة سكان السماء وهم عمارها لكل سماء ملائكة ولكل أهل سماء صلاة وتسبيح ودعاء فكل سماء فوق سمائهم أشد عبادة وأكثر دعاء وصلاة وتسبيحا من الذين تحتهم فكانت الملائكة عمار السماء والجن عمار الأرض) انتهى كلامه .

والجن مكلفون بإجماع أهل النظر وكان فيهم أنبياء قبل بعثة النبي ❸ وهم داخلون فى عموم بعثته صلوات الله عليه وسلامه ومن الثابت أن الجن يحمل العلم عن الإنس وإمكان وعظ الجن للإنس وتعليمه للطب وتأثير الجن على الإنس بسبب ما منحوا من قدرات تزيد عن الإنس، كما أنه من اليقين تأثير القرآن الكريم على أبدان الجن وأنهم تصفد مردتهم بالأغلال فى شهر رمضان.

حديث الإمام الطبرى ❹ :

حدث الطبرى عن عبد الصمد بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه وقد سئل عن

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبرى ت ٣١٦ المفسر والمؤرخ .

الجن ما هم؟ وهل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون؟ قال: هم أجناس: فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويموتون والتي منها السعالى والغول وأشباه ذلك ، وقد ورد فى القرآن الكريم أن الجن سخرت لسليمان عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

قال العلماء: الظاهر أن التسخير كان لكفارهم دون المؤمنين منهم لإطلاق الشياطين عليهم ويقولهم ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره.

قال الجبائى: كيف تنهيا لهم هذه الأعمال مع أن أجسامهم رقيقة وإنما يمكنهم الوسوسة فقط ففعل الله تعالى كثف أجسامهم خاصة وقواهم على تلك الأعمال الشاقة وزاد فى عظيمهم معجزة لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم إلى الخلقة الأولى إذ لو أبقاهم على الخلقة الثانية لكان شبهة على الناس ففعل بعض الناس يدعى النبوة وجعله دلالة عليها .

ولكن اعترض على هذا من الإمام فخر الدين الرازى حيث قال:

لم قلت إن الجن أجسام فلعلمهم من الموجودات التى ليست متحيزة ولا حالة فى التحيز ولا يلزم منه الاشتراك مع البارئ فإن الاشتراك نفى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فضلا عن اللوازم السلبية، سلمنا أن الجن أجسام لكن لم قلت أن البيئة شرط للقدرة وليس فى يدكم إلا الاستقراء الضعيف وسلمنا كذلك أنه لا بد من تكثيف أجسامهم فمن أين يلزم ردهم إلى الخلقة الأولى؟

وقد اختلف أهل التأويل فى الجن هل أرسل إليهم رسل منهم؟ فقال بعضهم: قد أرسل إليهم رسل كما أرسل إلى الإنس ومنهم الضحاك ، وقال آخرون: لم يرسل إليهم رسل منهم وليس من الجن مرسل قط ولكن منهم منذرين فقط واستدلوا بقول الله تعالى:

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنبَغِي
وَسُيِّرُوا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاٰفِرِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٠).

وقالوا: إنما قال الله تعالى: ﴿الَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

والرسل من أحد الفرقتين كما قيل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَمِيانِ﴾ ﴿١٩﴾ [الرحمن: ١٩].

ثم قال: ﴿يِنَّهٗمَا بَرَزَخُ لَا يَبْغِيَانِ﴾ ﴿الرحمن: ٢٠﴾ ثم قوله بعد: ﴿يَخْرُجُ مِنْهٗمَا اللُّؤْلُؤُ وَالتَّمْرَجَاتُ﴾ ﴿الرحمن: ٢٢﴾ إنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من المالح دون العذب منها.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: المراد برسل الجن الأفراد الذين يرسلهم الرسل إلى قومهم منذرين فتأويل الآية على قوله: ألم يأتكم أيها الجن والإنس رسل منكم فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم وأما رسل الجن فرسل رسل الله من بني آدم.

قال الطبري: وأما الذين قالوا: إن الله تعالى ذكره أخبر أن من الجن رسلاً أرسلوا إليهم كما أخبر أن من الإنس رسلاً أرسلوا إليهم.

قالوا: ولو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن أنهم بمعنى رسل الإنس جاز أن يكون خبره عن رسل الإنس بمعنى أنهم رسل الجن قالوا في فساد هذا المعنى ما يدل على أن الخبرين جميعاً بمعنى الخبر عنهم أنهم رسل لأن ذلك هو المعروف في الخطاب دون غيره.. انتهى.

عرض الآيات :

قَالَ تَعَالَى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أُخِيَّتْ أَخْبَهَا حَتَّى إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِزْرِيتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي

عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ

أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: ١٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي

الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٢٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ

الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: ١٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦].

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) [الرحمن: ٣٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧) [الحجر: ٢٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٣٩) [الرحمن: ٣٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (٥٦) [الرحمن: ٥٦].

تتمة:

يجوز إبراء المصاب بالجن ولا ضرورة إلى إيرائه إلا بوجهين :

أحدهما: بما يعتقدُه العامة بالعلاج «بالعزائم» وقد ثبت أن ذلك لا يؤثر في المصاب بل قد يزيده شراً.

ثانيهما: أن في الحق ما يغني عن الباطل والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف:

الأول: قوم يكذبون بدخول الجن في الإنس.

الثاني: وقوم يدفعون ذلك بالعزائم المذمومة فهؤلاء يكذبون بالموجود وهؤلاء يكفرون بالرب المعبود.

الثالث: الأمة الوسطى تصدق بالحق الموجود وتؤمن بالإله المعبود وبعبادته ودعائه وذكره وأسمائه وكلامه كل هذا يدفع شياطين الإنس والجن.



الفصل الثاني

الجن والجن

روى الطبري أن سعيد بن جبير قال :

لما بعث النبي ﷺ حرست السماء فقال الشيطان: ما حرست إلا لأمر قد حدث في الأرض فبعث سراياه في الأرض فوجدوا النبي ﷺ قائما يصلي الفجر بأصحابه بنخلة وهو يقرأ فاستمعوا له حتى إذا فرغ ولّوا إلى قومهم منذرين ومحذرين.

واختلف في حضورهم إلى النبي ﷺ فقال بعضهم: حضروا إلى رسول الله ﷺ يتعرفون الأمر الذي حدث من قبله ما حدث في السماء ورسول الله ﷺ لا يشعر بمكانهم.

وقال آخرون: بل أمر النبي ﷺ بأن يقرأ عليهم القرآن وأنهم جمعوا له بعد أن تقدم الله إليه بإنذارهم وأمره تعالى له بقراءة القرآن عليهم.

وذكر قتادة: أن النبي ﷺ قال: إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجن فأیکم يتبعني؟ فأطرقوا ثم استتبعهم فأطرقوا ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا.

فأتبعه عبد الله بن مسعود فدخل رسول الله ﷺ شعباً يقال له شعب الحجون وخط على عبد الله خطأ ليثبته به قال: أي - عبد الله بن مسعود - فجعلت تهوى بي وأرى أمثال النسور تمشي في رفوفها وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ ثم تلا الرسول ﷺ القرآن فلما رجع قلت: يا نبي الله ما اللغط الذي سمعت؟ قال اجتمعوا إلى في قتل كان بينهم ففضي بينهم بالحق.. كما روى عن ابن مسعود: أنه لما قدم الكوفة رأى

شيوخاً من الزط فراعوه قال: من هؤلاء؟ قيل: نفر من الأعاجم قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبي ﷺ القرآن من الجن شيئاً أدنى من هؤلاء.

كما ذكر عن ابن مسعود أيضاً أن النبي ﷺ خط عليه خطأ وقال له: لا تبرح منها ثم ذكر أن مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ فذعر ابن مسعود ثلاث مرات حتى إذا كان قريباً من الصبح أتى إليه رسول الله ﷺ فقال له: أنمت؟ قال: لا والله يا رسول الله لقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: اجلسوا. قال: لو خرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم.

ثم قال لعبد الله: هل رأيت شيئاً؟ قال: نعم رأيت رجالاً سوداً مستشفري^(١) ثياب بيض، قال: أولئك جن نصيين سألوني المتاع -الزاد- فمتعتهم كل عظم حائل أو بكرة أو روثة. فقال: يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لن يجدوا عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت فلا يستجمرن أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بكرة ولا روثة.

بين يدي الآيات :

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴿[الأحقاف: ٢٩: ٣٢].

معنى الآية :

قال ابن عباس رضي الله عنه : كان الجن سبعة^(٢) من جن نصيبين فجعلهم الرسول ﷺ رسلاً إلى قومهم.. وقال زبّ بن حبيش: كانوا تسعة أحدهم زوبعة.
وقال قتادة: إنهم من أهل حران.

وقال عكرمة: من جزيرة الموصل - وقيل في أسائهم : شاطر وماصر ومنشى وماشى والأحقب.

وقد ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد ومنهم عمر بن جابر ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبي ﷺ يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حية قتيل فعمد رجل منا إلى رذائه فشقه وكفن الحية ببعضه ودفنها.

فلما جن الليل إذ امرأتان تسألان : أيكم دفن عمرو بن جابر؟ فقالتا: إن كتّم ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه، إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين فقتل عمرو وهو الحية التي رأيتم وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد ﷺ ثم ولّوا إلى قومهم منذرين.

وذكر ابن سلام رواية أخرى أن الذي كفنه هو صفوان بن المعطل.

كما ذكر الماوردي أسماءهم عن مجاهد فقال : حس ومس ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم.

وذكرها أبو عمرو وعثمان بن أحمد المعروف بابن السكّ قال : حدثنا محمد بن البراء قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يسمى جنّ نصيبين الذين

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٢١٣) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٧ م.

قدموا على رسول الله ﷺ فيقول: حس ومس وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيان فلما حضروا القرآن واستمعوا له قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن وكان النبي ﷺ يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا: أنصتوا.. قالوا: صة وكانوا سبعة أحدهم زوبعة فنزلت الآية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٢٩).

فلما قضى النبي ﷺ قراءته وذلك قبل الصلاة وكانت صلاة الفجر.. انصرف الجن بأمر النبي ﷺ إلى قومهم منذرين لهم مخالفة القرآن ومحذرين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا وفي هذا دليل على أنهم آمنوا برسول الله ﷺ وأنه أرسلهم ويدل على هذا قولهم:

﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وفيه دليل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب وقال الحسن: ليس لمؤمن الجن غير النجاة من النار والدليل:

﴿يَغْفِر لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّمُ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ﴾ (٢١)

وبه قال أبو حنيفة: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم، وقيل إنهم كما يعاقبون في الإساءة يجازون بالإحسان مثل الإنسان.

وقال الضحاك: الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون

قال الإمام القشيري: والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء والعلم عند الله.

كما روى أنهم كانوا يهوداً^(١) وقد أسلموا - أي - رسل هذه الواقعة وأسلم من قومهم

(١) حاشية الجمل ج ٤ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ت ١٢٠٤ هـ ص ١٣٧ - مطبعة

حين رجعوا وأنذروهم سبعون ، فالجن لهم ملل مثل الإنس ففهم اليهود والنصارى والمجوس وعبداء الأصنام وفي مسلمهم مبتدعة ومن يقول بالقدر وخلق القرآن ونحو ذلك من المذاهب والبدع وروى أنهم ثلاثة أصناف:

الأول: صنف لهم أجنحة يطفرون بها، والثاني: صنف على صورة الحيات والكلاب الثالث: صنف يحلون ويظعنون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما أريد بقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ﴾ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ .

أى القرآن موافقا بالتوحيد وصفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته لما بين يديه من التوراة وكانوا قد آمنوا بموسى عليه السلام وأبلغوا قومهم أن من لا يجب داعى الله فليس بغائب من عذاب الله يوم القيامة وليس له أولياء ينفعونه إذا حل به العذاب ؛ لأنه لن ينفعه إلا الإيمان عندئذ والله أعلم.



الفصل الثالث

مؤمن آل فرعون

لما التجأ موسى ﷺ إلى الله تعالى وفوض إليه أمره في دفع هذا الشر الصادر من اللعين فرعون قيص الله له من يتصدى لدفع فرعون وملئه ومخاصمتهم.

قال مقاتل: هذا الرجل والذي أخبر الله عنه في سورة القصص بقوله:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره ، وغير امرأت فرعون غير المؤمن الذي أنذر موسى فقال:

﴿إِن كُنتَ إِلَّا مَلَأَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠].

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم» (١).

وكان اسم ذلك الرجل: حزقيل عند ابن عباس وأكثر العلماء.

وقال ابن إسحاق: كان اسمه جبريل وقيل: حبيب وفي مبهمات القرآن أن اسمه شمعان .

(١) الفتوحات الإيفية ، حاشية الجمل .

(٢) انظر: كنز العمال حديث رقم (٣٢٩٨٩) ونص الحديث في ضعيف الجامع: (الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يس الذي قال: (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم) . ضعيف الجامع حديث رقم (٣٥٤٩) وهو موضوع وانظر السلسلة الضعيفة (١ / ٥٣٠) .

قال القشيري: ومن جعله إسرائيليا ففيه بُعد؛ لأنه يقال: كتمه أمر كذا ولا يقال كتم

منه قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وأيضًا: ما كان فرعون يحتمل من بنى إسرائيل مثل هذا القول.. ومن جعله قبطيا فمن عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل والتقدير: وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون رأى من أهله وأقاربه.

ويرى الطبري: أنه من قوم موسى وكنتم إيمانه وقيل: كان ابن عم^(١) فرعون، وقام فيهم ناصحا يحفزهم إلى تصديقه وينذرهم محذرا لهم من قتله أو الاعتداء عليه وقد أهمهم أمره.

عرض الآيات:

قَالَ تَمَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٢٨) يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ (٣٢) يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ

قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ [غافر: ٢٨: ٣٤]

ثم يأتي هذا الاستئناف وابتداء الخطاب بقوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿٣٥﴾ [غافر: ٣٥].

وينطلق هذا البيان الغريب والأعمى من البلاط الفرعوني:

قَالَ تَمَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَيْنَ لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَنْبَغُ الْأَسْبَبِ﴾ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ [غافر: ٣٦: ٣٧].

ثم يعود الرجل الهادئ الصالح لقراءة المستقبل وتحديد النهاية:

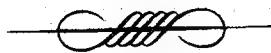
قَالَ تَمَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَتَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ [غافر: ٣٨: ٤٤].

قال السدي: كان الرجل من آل فرعون وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام وهو المراد
بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [القصص: ٢٠].

وقال به أيضاً مقاتل: والواقع أن ظاهر الآيات يبين ما كان يتمتع به مؤمن آل فرعون
من حصانة ورجاحة عقل كما أنه عندما وجه رسالته إلى قومه لم يخاطبهم خطاباً عنيفاً كما أنه
لم يبدُ متهاوناً بل إنه ركب طريقاً وسطاً حاول به إقناعهم للإيمان بموسى عليه السلام وبما يدعوه
إليه ولما لم يجد استجابة منهم فوض الأمر لله مذكراً لهم بأنهم يوماً ما سيدكرون قوله
ونصحه ولكن هيهات يومئذ من الخلاص أو النجاة؟

وسبق عند عرض الآية الواردة في سورة القصص من أن مؤمن آل فرعون حفز موسى
عليه السلام للخروج من مصر حيث إن الملاء من قوم فرعون كانوا يخططون لقتله وذلك عندما
تشاوروا في أمره بعد قتل القبطي ، وقيل: كان ذلك الرجل المؤمن بحضرة موسى عليه السلام
عندما قال له الإسرائيلي: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص:
١٩] بعد إفشاء الخبر وعلم أهل القتل.. وقبل الكلام عليه السلام نصح الرجل وخرج لتواكب
الأحداث المعروضة في سورة القصص من لقائه بنبي الله شعيب عليه السلام والتزوج من إحدى
ابنتيه وكانت هي الصغرى واسمها (صفورا) ليمضي موسى عليه السلام في الدعوة العامة
لرسالته على نحو ما فصل القرآن الكريم.



الفصل الرابع

خولة بنت ثعلبة

أخرج الحاكم^(١) وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء. إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول: يا رسول الله أكل شبلني ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: ١-٤].

وعن سبب ذلك قال صاحب الفتوحات الإلهية^(١).

روى أنها كانت حسنة الجسم فدخل عليها زوجها مرة فرآها ساجدة في الصلاة فنظر إلى عجيزتها فأعجبه أمرها فلما انصرفت من الصلاة طلب وقاعها فأبت فغضب عليها ، وكان به لم - مس من الجن - فأصابه بعض لممه فقال: أنت على كظهر أمي ثم ندم على ما قال وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية فقال: ما أظنك إلا قد حرمت على ، فقالت: والله ما ذاك طلاق فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالى وأفنى شبلي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به...؟ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه» فقالت: يا رسول الله والذي أذل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدي وأحب الناس إلى فقال رسول الله ﷺ «حرمت عليه» فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت له صحبتي ونقضت له بطني فقال رسول الله ﷺ ما أراك إلا حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وتقول: إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إلى جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك فرجى فكان هذا أول ظهار في الإسلام.

فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا رسول الله فقالت عائشة: اقصرى حديثك ومجادلتك أما رأيت وجه رسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه وحى أخذه مثل السبات - أي النوم - فلما قضى الوحي قال: ادعى لي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾

إلى قوله: ﴿وَاللَّكَفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤).

وروى الشيخان عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد جادلت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ وكلمته وأنا في جانب البيت وما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ .. الآيات .

فقال ﷺ: «هل تستطيع العتق؟» فقال: لا والله.. فقال: «هل تستطيع الصوم» فقال: لا والله إني إن أخطأتني الأكل في اليوم مرة أو مرتين كل بصرى وظننت أنني أموت.. قال: «فأطعم ستين مسكيناً». قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بمعونة وصلة فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً فتصدق بها على ستين مسكيناً.

وقيل: إنه كان من دواعي الإجابة كثرة إلحاحها في المسألة ومبالغتها في التضرع ومدافعتها ﷺ إياها.

ويرى ابن عباس ؓ أن خولة لما أبت عليه رغبته منها غضب وقال لها: إن خرجت من البيت قبل أن أفعل فأنت على كظهر أمي، والظهار أن يقول الرجل لأمرأته: أنت على كظهر أمي.

ويفصح القرآن على أن المظاهر منها ليست أمّا في الحقيقة وإنما الأمهات هن اللاتي ولدن أو أرضعن ثم يأتي حكم الظهار قبل مباشرة المظاهر ممن ظاهر منها بأحد أمور وأحكام ثلاثة وهي الكفارات:

الأول: تحرير رقبة، الثاني: صيام شهرين متتابعين، الثالث: إطعام ستين مسكيناً.

ثم يعقب القرآن بعد هذا بعدم التعدي على حدود الله بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ

اللَّهُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ [المجادلة: ٤].

وقد ذهب الطبري إلى أن اسم المجادلة هو:

خويلة بنت الدليج ، وقيل: ابنة ثعلب ، وقيل: ابنة خويلد.

موقف لخولة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بها في زمن خلافته^(١) وهو على حمار والناس حوله فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى أميراً ثم قيل لك يا عمر ثم قيل لك يا أمير المؤمنين فاتق الله يا عمر؟ فإنه من أيقن بالموت خاف القوت ومن أيقن بالحساب خاف العذاب - وهو واقف يسمع كلامها فقليل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الموقف فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة ثم قال: أتدرون من هذه العجوز؟

هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سماوات أسمع رب العالمين قولها ولا يسمع لها عمر.. انتهى.



الفصل الخامس

النملة والنمل

قال كعب: مرَّ سليمان عليه السلام " بوادي السَّدير من أودية الطائف فأتى على وادي النمل فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم فنادت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

وذكر الزمخشري: أن سليمان عليه السلام سمع كلامها من ثلاثة أميال وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس وقيل: كان اسمها طاخية.

وقال السهيلي: ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام وقالوا: اسمها حرميا، يقول السهيلي: ولا أدري كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمى بعضهم بعضا ولا الآدميون يمكنهم تسمية واحدة منهم باسم علم لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بنى آدم كالخيل والكلاب ونحوها.

ويقال: إن النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها ومعنى إيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ

وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨).

التفاته مؤمن أى من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فيما فوقها إلا بألا يشعروا.

كما أشير إلى أن المراد بقولها ﴿ وَهَزَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ إشارة إلى الدين والعدل والرافة.

ونظير قول النملة في جند سليمان بإذن الله تعالى: ﴿ وَهَزَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قوله تعالى في جند محمد ﷺ: ﴿ فَتَضَيَّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح: ٢٥] التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن، إلا أن المثني على جند سليمان هى النملة، والمثني على جند محمد ﷺ هو الله ﷻ لما في جند محمد ﷺ من فضل على جميع النبيين أجمعين. وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان.

وقال وهب: أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان بسبب أن الشياطين أرادت كيده.

وقيل: إن هذا الوادى كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبي.

وقال نواف الشامى وشقيق بن سلمة: كان نمل ذلك الوادى كهيئة الذباب فى العظم. وقال بريدة الأسلمى: كهيئة النعاج قال محمد بن على الترمذى: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها وإلا فالطيور والأصوات كائنة وذلك منطقهم وفى تلك المناطق معانى التسييح وغير ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيت فى بعض الكتب أن سليمان قال لها: لم حذرت النمل؟

أخفت ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت: ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾.

فقال النملة: أما سمعت قولي: ﴿وَهُزْ لَا يُشْعِرُونَ﴾ (١٨) مع أني لم أرد حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يُفتنن بالدنيا ويشغلن بالنظر إلى ملكك عن التسييح والذكر.. فقال لها سليمان: عطيني!

فقال النملة: أما علمت لم سمى أبوك داود؟ قال: لا - قالت لأنه داوى جرحه فؤاده.

ثم قالت: هل علمت لم سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك ثم قالت: أتدرى لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا، قالت: أخبرك أن الدنيا كلها ريح: ﴿فَبَسَّ صَاحِجًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] متعجبا ثم مضت مسرعة إلى قومها فقالت: هل عندكم من شيء نهديه إلى نبي الله؟ قالوا: وما قدر ما نهدي له؟ والله ما عندنا إلا نبقة واحدة - قالت: حسنة - إيتوني بها فأتوها بها فحملتها فيها فانطلقت تجرها فأمر الله الريح فحملتها وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط حتى وقعت بين يديه ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه وأنشأت تقول:

وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله	ألم ترنا نهدي إلى الله ماله
لقصّر عنه البحر يوماً وساحله	ولو كان يهدى للجليل بقدره
فيرضى به عنا ويشكر فاعله	ولكننا نهدي إلى من نجبه
وإلا فما في ملكنا ما يشاكله	وما ذاك إلا من كريم فعاله
فقال لها: بارك الله فيكم.. فهم بسبب هذه الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله.	

قال ابن عباس رضي الله عنه : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: الهدهد والضفادع والنملة والنحلة ، أخرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق.

عرض الآيات :

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
 حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ
 لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا
 وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ
 صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

[النمل: ١٧: ١٩]

قال ابن عطية : النمل حيوان فطن قوى شام جدا يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لثلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت شقتين ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقى سائرته عنده.

قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ذلك والله تعالى أعلى وأعلم.



الفصل السادس

الهدهد وسليمان

قال أبو مجلز قال ابن عباس رضي الله عنه " لعبد الله بن سلام:

أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل "، قال أتسألني وأنت تقرأ القرآن؟ قال: نعم ثلاث مرات ، قال: لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه، أو قال: مسافته ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقدته.

وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً، زوى أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له: قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع؟ فقال له ابن عباس: إذا جاء القدر لقد عمى البصر.

وقال مجاهد: قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ قال: نزل منزلاً ولم يدر ما بعد الماء - وكان الهدهد مهتدياً إليه - فأراد أن يسأله

قال مجاهد فقلت: كيف يهتدي والصبي يضع له الحباله فيصيده؟ فقال: إذا جاء القدر عمى البصر.

قال ابن العربي: ولا يقدر على الجواب إلا عالم القرآن ، هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان.

وقال الكلبي: لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد ، هدهدة الهدهد: أى صوته.

(١) الجامع لأحكام القرآن - المرجع السابق من ص ١٧٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م جزء ١٣.

(٢) لم يذكر بقية الحديث ولم أعثر عليه.

وكان سبب غيبة الهدهد على^(١) ما ذكره العلماء أن سليمان^{عليه السلام} لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس والطير والوحش فحملتهم الريح وفي الحرم أقام ما شاء الله أن يقيم وقال لمن حوله من أشراف قومه: إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي ويعطى النصر على جميع من عاداه وتبلغ هيئته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم.

قالوا: فبأي دين يدين يا نبي الله؟ قال: بدين الله الخفيف فطوبى لمن أدركه وآمن به.. قالوا: كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله.. قال: مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل، وأقام سليمان^{عليه السلام} بمكة حتى قضى نسكه وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي، فلما نزل قال الهدهد: اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء ينظر إلى طول الدنيا وعرضها فبينما هو ينظر رأى بستاناً بلقيس ورأى ملكها العظيم.

وأما سليمان^{عليه السلام} فإنه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الجن والإنس فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فغضب سليمان وقال: لأعذبه عذاباً شديداً.. إلخ .

فلما رجع الهدهد وقف أمام سليمان^{عليه السلام} فلما دنا منه أخذ برأسه فمال إليه فقال له: أين كنت؟ لأعذبك عذاباً شديداً.. فقص عليه الهدهد ما رأى من بلقيس وقومها من عبادة الشمس دون عبادة الله وسجودهم للشمس وعدم سجودهم لله الخالق المعبود الذي يخرج المخبوء في جوف الأرض ويعلم بقدرته جميع الخفايا.

وقيل: إن الهدهد واسمه (يعفور) هاله ما رأى فأنكره ومجده فبلغ بذلك نبي الله سليمان^{عليه السلام} وهذا هو النبأ اليقين الحقيقي بالتبليغ والإعلان، وتلك هي الإحاطة وهي من العلوم والمعارف التي اقتبسها الهدهد من سليمان^{عليه السلام} وكل ذلك لتوجيه قلبه^{عليه السلام} نحو

قبول كلامه وصرف عنان عزيزته إلى غزوها وتسخير ولايتها. هـ أبو السعود:

وأرسله بالكتاب إليها وقيل: إنه لم يبدأ باسم الله أولاً لأنها كانت كافرة قارئة فخاف من كفرها أن تستخف باسم الله فجعل اسمه وقاية لاسم الله وكانت عربية والكتابة عربية وهو الظاهر وقيل: إنه كتب بالعجمية ولها ترجمان يترجم لها به كما يحتمل أنها كانت تعرف غير العربية.

ويقال: إن سليمان عليه السلام طبع الكتاب بالمسك بأن جعل عليه قطعة مسك كالشمع.. فلما رمى الهدهد إليها بالصحيفة على نحرها وهي راقدة وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هي حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملاء من قومها وهم الأشراف وسموا ملاء لأنهم يملأون العيون.. ثم انتهى أمرهم على نحو ما حكى القرآن من إسلامهم على يد سليمان عليه السلام لله رب العالمين.

عرض الآيات :

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَقَعَدَ الظِّيرُ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانُ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢١﴾ لَا عَذِيبَتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٌ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل: ٢٠: ٢٨].



الفصل السابع

عالم المثال

من المعلوم أن أحاديث كثيرة دلت على أن في الوجود^(١) عالماً غير عنصري تتمثل فيه المعاني بأجسام مناسبة لها في الصفة، وتحقق هنالك الأشياء قبل وجودها في الأرض نحواً من التحقق فإذا وجدت كانت هي هي بمعنى من معاني هو هو وأن كثيراً من الأشياء مما لا جسم لها عند العامة تتنقل وتنزل ولا يراها جميع الناس.

قال عليه السلام: «لما خلق الله الرَّحْم قامت فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة»^(٢).

وقال عليه السلام: «إن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أهلها»^(٣).

وقال عليه السلام: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة ثم تجيء الصدقة ثم يجيء الصيام»^(٤) الحديث.

(١) حجة الله البالغة: العلامة الدهلوي راجع محمود حلي ج ١ دار المعرفة بيروت لبنان من ص ٣٥.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري رقم (٤٥٥٢)، وصاحب كنز العمال (٦٩٧٦)، انظر حديث رقم (١٧٦١) في صحيح الجامع.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم رقم (١٩١٠)، وصاحب كنز العمال (١ / ٥٦٤)، انظر حديث رقم (١١٦٥) في صحيح الجامع.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده رقم (٨٧٢٧)، وصاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

وقال: «إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة كهيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة»^(١).

وقال: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها، مشوه خلقها»^(٢)، وقال: «هل ترون ما أرى؟ فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»^(٣).

وقال عليه السلام في حديث الإسراء: «إذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»^(٤).

وقال عليه السلام في حديث صلاة الكسوف: «صورت لي الجنة والنار» وفي لفظ: «بيني وبين جدار القبلة» وفيه أنه بسط يده ليتناول عنقوداً من الجنة وأنه تكعكع من النار - وأنه تأخر عنها وابتعد - ونفخ من حرها ورأى فيها سارق الحجيج، والمرأة التي ربطت الهرة حتى ماتت ورأى في الجنة امرأة مومسة سقت الكلب...!

ومعلوم أن تلك المسافة لا تتسع للجنة والنار بأجسادهما المعلومة عند العامة، وقال أيضاً: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(٥) ثم أمر جبريل أن ينظر إليهما.

وقال عليه السلام: «ينزل البلاء فيعالجه الدعاء» وقال عليه السلام: «خلق الله العقل فقال له: أقبل

(١) صحيح: أخرجه صاحب كنز العمال رقم (٢٠٩١٠)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٩٠٥)،

وصحيح ابن حبان رقم (١٦٣٥)، انظر حديث رقم (١٨٧٢) في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه صاحب كنز العمال رقم (٨٥٧٩)، وشعب الإيمان للبيهقي (١٠٢٧١).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٧٧٩)، ومسلم (٧٤٢٧)، وصاحب كنز العمال رقم (٣٠٨٩٨)

وأحمد في مسنده (٢٠٧٥٣)، انظر حديث رقم (٧٠٣٠) في صحيح الجامع.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٣٨)، والنسائي (٤٤٤)، وأحمد في مسنده (١٧١٦٥).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٧٣٠٨)، والترمذي (٢٤٨٢)، وأحمد (٨٥٧٨)، انظر حديث رقم

(٣١٤٧) في صحيح الجامع.

فأقبل وقال له: أدبر فادبر» (١).

وقال ﷺ: «هذان كتابان من رب العالمين» وقال: «يؤتى بالموت كأنه كبش فيذبح بين الجنة والنار» (٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٤٤﴾
يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٤٥﴾ [النور: ٤٤: ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١١﴾ حَقٌّ إِذَا مَا
جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢﴾ وَقَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا
أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ١٤﴾
وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٥﴾ فَإِنْ
يَصْبِرُوا قَالَتِ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَصِينَ ١٦﴾

[فصلت: ١٩: ٢٤].

وقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٣٠﴾ [ق: ٣٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَاللَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ١﴾ إِذَا

(١) انظر كشف الخفاء (ص ٢٦٣).

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد في مسنده (٨٩٠٩)، والبزار في مسنده (٧٢٤٠)، وأبو يعلى في

مسنده (٢٨٩٨)، والحاكم في مستدركه (٢٧٨)، ومجمع الزوائد (١٨٦٣٣).

أَلْقُوا فِيهَا سَمْعُومًا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ نَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَنْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٦: ٩].

واستفاض في الحديث أن جبريل عليه السلام كان يظهر للنبي ﷺ ويتراءى له فيكلمه ولا يراه سائر الناس، وأن القبر يفسح سبعين ذراعاً في سبعين أو يضم حتى تختلف أضلاع المقبور وأن الملائكة تنزل على المقبور فتسأله، وأن عمله يتمثل له، وأن الملائكة تنزل إلى المحتضر وبأيديهم الحرير أو المسح، وأن الملائكة تضرب المقبور بمطرقة من الحديد فيصيح صيحة يسمعها ما بين المشرق والمغرب، وقال النبي ﷺ: «يسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنينا تنهسه وتلدغه حتى تقوم الساعة»^(١)، وقال: «إذا أدخل الميت القبر مثلت له الشمس عند غروبها فيجلس يمسح عينيه ويقول: دعوني أصلي»^(٢).

كما استفاض في الحديث أيضاً: أن الله تعالى يتجلى بصور كثيرة لأهل الموقف، وأن النبي ﷺ يدخل على ربه وهو على كرسيه وأن الله تعالى يكلم ابن آدم شفاهاً إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، والناظر في هذه الأحاديث بين إحدى ثلاث:

الأولى: إما أن يقر بظواهرها فيضطر إلى إثبات عالم ذكرنا شأنه وهذه هي التي تقتضيها قاعدة أهل الحديث، وقد نبه على ذلك السيوطي رحمه الله تعالى وعليه التحقيق وإليه المذهب.

الثانية: وإما أن يقول: إن هذه الوقائع تتراءى لحس الرائي وتتمثل له في بصره وإن لم

(١) حديث ضعيف: رواه أحمد في مسنده، وصاحب كنز العمال، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٤٣)، وضعيف الترغيب والترهيب رقم (٢٠٧٩).

(٢) حديث حسن: رواه ابن حبان في صحيحه (٣١١٦).

تكن خارج حسه.. وقال بنظير ذلك عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إنهم أصابهم جذب فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجوع، ويذكر عن ابن الماجشون.. أحد علماء المالكية: أن كل حديث جاء في التنقل والرؤية في المحشر فمعناه أنه بغير أبصار خلقه فيرونها نازلا متجليا ويناجي خلقه ويخاطبهم وهو غير متغير عن عظمته ولا منتقل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير.

الثالثة: أو يجعلها تمثيلا لتفهم معان أخرى والمقتصر على هذا ليس من أهل الحق.. وقد صور الإمام الغزالي في عذاب القبر تلك المقامات الثلاث حيث قال: أمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم ينكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التسليم والتصديق.. فإن قيل: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على وجه المشاهدة؟

والإجابة على ذلك تتمثل في التصديق بثلاث مقامات:

أحدها: وهو الأظهر والأصلح والأسلم: أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكننا لا نشاهده وذلك لأن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت.

أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل عليه السلام ومع ذلك لم يكونوا يشاهدون ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده.

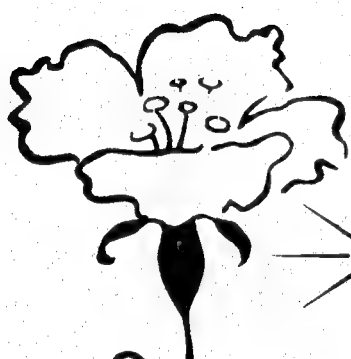
فإن اعترض معترض بعدم الإيمان بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي يكون هو الأهم؟ وإن لم يعترض وسلم بالإيمان به وبأنه عليه السلام يشاهد ما لا تشاهده الأمة فكيف لا يجوز هذا في الميت؟

وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس عالمنا بل هي من جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى..

ثانيها: أن نتذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه ربما يصيح ويتفصد جبينه عرقا وقد يتزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده، مع أن ظاهره يرى ساكنا ولا ترى حواله حية ولا عقرب والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حق الناظر إليه غير مشاهد وإن كان العذاب في ألم اللدغ، فلا فرق إذن بين حية تتخلل أو تشاهد.

ثالثها: إننا نعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يؤلم هو ألم السم، ثم إن السم نفسه ليس هو الألم بل الألم يكون في الأثر الذي يحصل من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون الثمرة حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مهلكات مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فيكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجودها. والله أعلم.





الحب الطاهر



آفاق العجز



الفصل الأول

القول بالصرفة

كان العرب^(١) حين أنزل القرآن كأنها شُدُّوا بأمراس كَتَّان إلى صَمٍّ جندل فهم يسمعون القرآن ويعجبون به ويكادون يسجدون لفصاحته وبلاغته ويوقنون - بقيمة العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر ولكنهم يحاولون أن يحطوا من شأنه.. وأن يهونوا من أمره.. ويودون لو استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله تبهروهم روعته ويروهم عجزهم عن معارضته والكبرياء يتسلط عليهم.

وخوف غلبة محمد ﷺ تملأ نفوسهم وبوادر الإقرار بنبوته والإمعان لرسالته تبدو قريبة من نفوسهم كل القرب ، فيحاولون أن يجعلوها بعيدة كل البعد ، والعاجز المكابر والمأخوذ المعاند لا يسلك إلا ما سلكه هؤلاء الجاحدون قال الله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤١﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ [الأنفال: ٣١].

وهكذا أخذوا ينتقصون من شأن القرآن كعادتهم بهذه الكلمات الفضفاضة ، فمرة يقولون: هو سحر.

وأخرى يقولون : هو شعر وثلاثة يقولون : أساطير الأولين ثم كانت هذه الدعوى العريضة التي لا يصدقها العقل .

ولا تسعفها القسوة وهى دعوى العاجز دائماً عن الإذعان للحق والتسليم للأمر الواقع ولو لم يكن الأمر كذلك ما قالوا كما حكى عنهم القرآن :

﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١] .

ولم لا يشاءون إذا ؟ إنهم كانوا كالقمل الهزيل أمام العملاق المقتول العضلات القوى البنية .. يدعوهم هذا إلى النزال فيجيب ذاك بصوت يملأ فراغه ويحرق الأسماع ولا شئ غير الصوت فهم في الحق كانوا مدعنين في قرارة أنفسهم بأنهم عاجزون كما أنهم أيضاً يدركون هذا الإعجاز في أدواقهم ، وعلى أطراف ألسنتهم وربما صرح بعضهم بشئ من ذلك فلا يعدو الكلام الواسع الفضفاض أيضاً .

وما كان أصدق من اعتراف الوليد بن المغيرة حين بعثه قومه ليستمع إلى القرآن من الرسول ﷺ فقال قولته المشهورة : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ... إلخ المقالة .

ومضى القرن الأول وتبعه القرن الثانى والعلماء يمسون نواحي الإعجاز مساً خفيفاً .. فلما كان القرن الثالث واتسعت دوائر البحوث العلمية ، كثرت الخلافات المذهبية وتعددت النحل وتفرقت الأهواء والسبل ، احتدمت المعارك وقويت الخصومة وعنف الجدل حول الآراء الكلامية .

وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التى تبارت فيها الفحول ، وتصارولت في رحابها الوسيلة القرون ونازل عقل عقلاً ، وناضل لسان لساناً - وحاكم يراع يراعاً ، وفكر فكراً ، وظفرت العربية بتراث صالح من القول في القرآن وبطائفة من الكتب في الإعجاز ، وكان من أشد العجب أن يزل بعض علماء المسلمين ويذهبون في شأن القرآن إلى

مذاهب شتى ومنها القول (بالصرفة) وتزعم (النظام) هذه الفرية التي لا تنهض أن تكون حجة يريد الترويج لها ويزداد العجب حين نرى من يؤيد هذا الرأي بل ويضيف إليه من الافتراءات ما يزيد به عن (إبراهيم النظام) .

وذلك من أمثال:

من الأشاعرة ، والإمام محمد بن حزم الظاهري ، وهذا الأخير روع الأسباع وهز القلوب ، وأسأل الدموع من محارها حين ذكر في كتابه : (الفصل في الملل والنحل) . أن مذهب (الصرفة) قال به طوائف من العلماء وليس طائفة واحدة كما أخبر بذلك الشهرستاني صاحب كتاب : (الملل والنحل) فذكر أن القرآن على رأى الأشعرى معجز من حيث البلاغة والنظم والفصاحة .

إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعى ، وهو المنع من المعتاد ومن جهة الإخبار عن الغيب .

وحكى عضد الدين الأيجي في كتابه : (المواقف) عن إعجاز القرآن بقوله: وقيل بالصرفة فقال الأستاذ يعنى الإسفرايينى والنظام: صرفهم الله مع قدرتهم . وقال المرتضى: بل سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة .

قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى كتابه: (إعجاز القرآن) ردًا على هذا المذهب: «وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبًا من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه إذ عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا» .

وعموماً فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه على لسان الوليد بن المغيرة

كما حكى القرآن: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٢٤) **﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾** (٢٥)

[المدرثر: ٢٤ - ٢٥] وقد رد الله تعالى هذا الزعم عليهم وكذبهم فيه.

وجعل القول فيه ضرباً من العمى فقال:

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشيء الواحد ؛ ولكن: كيف نشأ هذا المذهب؟ وما حقيقة؟ وكيف دافع عنه أصحابه؟ وكيف فهمه العلماء؟ وكيف ردوا عليه وناقشوه؟

ومن الأهمية بمكان أن نجيب على هذه الأسئلة إحقاقاً للحق وإنصافاً لكتاب الله فنقول: إن هذا المذهب مجاف للصواب على الرغم من أن القائلين به ليسوا كفاراً بل إنهم بعيدون عن الكفر كل البعد وإنما اعتقدوا هذا المذهب تديناً ومبالغة منهم في الابتعاد بالقرآن عن أن يطمع طامع في معارضته ، وكان لهذا المذهب أثر في نشأة البلاغة العربية.. على أن أصحاب هذا المذهب لم يبق لهم في الكتب إلا القول به.. أما أدلتهم من وجهة نظرهم فقلما تعثر على شيء من ذلك مر عليه الجاحظ في موضع واحد من كتاب (الحيوان).

وذكره ابن حزم وهو الوحيد الذي أطال فيه ، أما خصوم هؤلاء فلم يخل كتاب من كتبهم من مناقشة المذهب والرد عليه.

قال الرافعي: (على أن القول بالصرقة هو المذهب الفاشي من لدن قال به النظام.. يصوبه فيه قوم ويشايعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته وقيامه عليه وتقليده أمره لكان لنا اليوم كتب ممتعة في بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوي ، وما إلى ذلك).

وهذا المذهب ينسب إلى الشيخ إبراهيم بن سيار النظام العالم المعتزلي الكبير ، فلا نجد كتاباً من الكتب يذكر هذا المذهب وينسبه إلا نسبه للنظام، على أنه أول من قال به وناضل دونه ، بل إن الخاطر لينصرف عند ذكر هذا المذهب إلى النظام، بل كلما ذكر النظام ورد عليه مذهب الصرقة فيكاد يكون رأى النظام وحده وأظهر آرائه.

هل كان النظام أول من قال بهذا المذهب؟

هذا الكلام ليس من ابتداء النظام ولا هو أول من قال به بما أن مفهوم هذا المذهب يتضمن قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظمًا ، وإنما جرى الكلام بهذا على السنة قوم قبله ومن أشهرهم : (عيسى بن صبيح^(١) المزدار) الذي يرجع إليه الفضل في انتشار الاعتزال ببغداد بشخصيته الزاهدة وقوة لسانه وفصاحته وقدرته على الوعظ وحسن القصص ويلقبونه : (راهب المعتزلة) فهو يقول هذه المقالة^(٢) .

ويبعد أن يكون نفى الإعجاز عن القرآن كما يقول المرحوم / مصطفى صادق الرافعي وإنما المستساغ والذي يقبله العقل وتميل إليه النفس ما يقوله الأستاذ / أحمد أمين^(٣) : (ولعله كان يرى كـبعض المعتزلة أن الإعجاز أتى من ناحية معانيه الدينية وإخباره بالمغيبات).

ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخلصين في الدفاع عن القرآن أنه لا يقول بإعجازه خصوصًا أنه لم ينقل أحد عن المزدار أنه كان ينفي الإعجاز عن القرآن.

أما ما يقوله الشهرستاني عن زاهد المعتزلة وراهمهم من أنه كان كثير التكفير للناس ، ويوافقه عليه كل من الأستاذين الرافعي وأحمد أمين فمن الظاهر أن المبالغة فيه واضحة بل إنها أقرب إلى الفكاهة منها بالجد الصراح وحسبنا هذه القصة التي ذكرها الشهرستاني من أنه كان يمعن في تكفير الناس حتى سأله إبراهيم بن السند مرة عن أهل الأرض جميعًا فأكفرهم ، فقال له إبراهيم : الجنة التي عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة من أصحابك !

ولا شك أن هذه الحكاية من تشنيعات خصوم المعتزلة عليهم ، ومن قال بأن الناس

(١) حول إعجاز القرآن ص ٥٧ وما بعدها.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني - ص ٧٦.

(٣) ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٤٥.

قادرون على مثل القرآن (الجعد بن درهم) مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال إنهم قادرون على أحسن منه، وهذا رجل ساقط من الحساب، فليس النظام - إذن أول من قال بهذا الرأي فلم يختص به؟.

يقول الرافعي: غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفوه به ، وهذا تعليل مقبول لو كان له ما يدعمه فإننا لم نقرأ للنظام دفاعاً عن هذا المذهب بل نقل المذهب تماماً مما حمل بعض علماء القرن السابع الهجري (علي بن حمزة) صاحب كتاب الطراز أن يقول: إن المذهب يحتمل أكثر من تفسير كما فيه من الإجمال والغموض.

آراء حول النظام .. تدينه .. ارتيابه :

لقيت آراء النظام حول الصرفة ردود فعل متباينة ومتشككة في عقيدته وتدينه، وما الذي رمى إليه من إقحام نفسه والزج بها في أتون المخالفات والمعارضات، أو بالأحرى: هل دفعه إلى ذلك حسن اعتقاد.. أم سوء اعتقاد.. والإجابة على ذلك في العرض الآتي:

أولاً: أن النظام كان باتفاق القدامى والمحدثين - الأصدقاء والأعداء قوياً الحجة فصيح اللسان ناصع البيان واسع الثقافة.. يقول الجاحظ: (يقولون: في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام) ويقول: (لولا مكان المتكلمين هلك العوام من جميع الأمم.. ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل.. فإن لم أقل: ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة فإني أقول أنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة) ويقول أبو الحسين الخياط عن النظام ودفاعه عن الدين: (إن إبراهيم وأشباهه أحاطوا التوحيد ونصروه وذبوا عنه وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحددين ووضع الكتب عليهم.. إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها...).

ويحكى عن النظام أنه قال عند احتضاره ما يصرح بأنه يتبرأ من كل دين غير دين التوحيد ، وأنه ما اعتقد مذهباً إلا بعدما اعتقد أن فيه رضا الله.. ثم يعقب الخياط على

القصة بقوله: (وهذه هي سبيل أهل الخوف لله. والمعرفة به والله تعالى شاكر لهم ذلك..).

ومن المحدثين جاءت شهادة الرافعي الذي ذهب في تنقيص مذهب الصرفة مذهباً جعله يقول: (إنه يشبه قول العرب في القرآن إنه سحر)، ومع ذلك فإنه يقول عن النظام: حتى جاء رأيه في مذهب الصرفة دون قدره.. بل دون علمه.. بل دون لسانه.

كما أن الأستاذ أحمد أمين وهو البعيد عن فتنة الكلام وعصبية المذهب قال فيه: (كان النظام آية في النبوغ.. حدة ذهن وصفاء قريحة واستغلال فكر وسعة اطلاع وغوص على المعاني الدقيقة وصياغة لها في أحسن لفظ وأجمل بيان).

ويقول الدكتور أبو ريدة: (ولا مرأى في أن النظام كان صاحب الفضل الأكبر في التغلب على المحنة التي تعرض لها الإسلام في عصره حين بدأت الثقافات الأجنبية والمذاهب الدينية والفلسفة المخالفة تغزو عقول المسلمين.. وحين بدأت نزعة الموالي الداخليين في الإسلام تتيقظ في نفوسهم.. فنهض للذب عن الدين) وكان أحذق من تكلم في عصره وأحرز أعظم النجاح فيما نهض له..

وبجانب هذه الأقوال نجد أقوالاً كثيرة أخرى تشهد بكفره وزندقته وسوء سلوكه. ومن أجمعها قول ابن حجر: (ما في القدرية أجمع منه لأنواع الكفر.. ومع زيفه وضلاله كان أفسق خلق الله وهو داء قديم).

ثانياً: إن المعتزلة نكبوا أعظم نكبة حين ضاعت كل مؤلفاتهم ومنذ أن دالت دولتهم في القرن الثالث الهجري لم تقم لهم قائمة حتى الآن وظلت آراؤهم طوال هذه العصور تلوكها السنة خصومهم، وتتناولها بالتحريير والتبديل والتغيير ولا منكر عليهم، ولا معارض لهم، ولا مدافع عن نظريات المعتزلة ووجهة أنظارهم حتى في عصرنا الحاضر وإن تحرر فيه الفكر لا تدرس آراء المعتزلة إلا في كتب ألفها أصحابها للرد على نظرياتهم مع الاعتقاد سلفاً بأنها باطلة، والناشئة يدرسونها على هذا الأساس، ولا نعرف في هذا التاريخ الطويل أحداً استطاع أن يجهر بمذهب الاعتزال إلا ناله الأذى والضرر فمن

الطبيعي عندئذ أن تتأثر آراء المعتزلة وأن تتأثر النقول عنهم بهذه النظرة ، على أن النظام كان نصيبه من هذا أَوْفى نصيب ، فقد رُمي بأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب و رُمي كذلك بالزيف والفسق والإلحاد.

ويذكر الخطيب البغدادي في كتابه أصول الدين : (أن النظام أعجب بقول البراهمة في إبطال النبوات ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك.. فأنكر إعجاز القرآن في نظمه وأنكر معجزات النبي ﷺ من نحو انشقاق القمر ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة).

ثالثاً: إن المعتزلة ابتلوا برجل يقول عنه عبد الرحيم العباسي في كتابه (معاهد التنصيص) نقلاً عن الطبري: (إنه كان لا يثبت على مذهب ولا يستقر على حال حتى إنه صنف لليهود كتاب «البصيرة» ردًا على الإسلام لأربعمائة درهم أخذها من يهود سامراً - فلما قبض المال رام نقضها حتى أعطوه مائة درهم أخرى فأمسك عن النقض).

ما أشبه هذا الرجل ببهلول (مجنون الكوفة) الذي كان يغنى بقيراط ويسكت بدائق.

ويقول عنه العباسي أيضًا نقلاً عن البلخي في كتابه (محاسن خراسان): إنه كان في أول أمره حسن السيرة - حميد المذهب كثير الحياء - ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له وكان علمه أكثر من عقله .

ويقول عنه الرافعي: (إنه كان رجلاً غلبت عليه شقوة الكلام فبسط لسانه في مناقضة الشريعة ، وذهب يزعم ويفترى وقد أمعن في سخفه فلا تدرى أجعل إلهه هواه ، أم جعل إلهه في فمه ، وهذا رجل يتاجر بدينه وعقله ، وكان واسع الأفق في الكذب ، والاختراع وحكاية الخرافات عن أصحاب الفرق ، وهو أبو الحسين أحمد ابن يحيى المشهور بابن الرواندي ، وقد رمى المعتزلة منه بداهية دهياء فقد كان على مذهبيهم ثم جفوه وطروده من مجالسهم وقسوا عليه فألف كتاباً سماه : (فضيحة المعتزلة) .

وقد انبرى للرد عليه عالم من علمائهم هو أبو الحسين الخياط فألف كتابه : (الانتصار) قال فيه: «وزعم صاحب الكتاب - يريد ابن الرواندي - أن النظام يقول بالصرقة في

إعجاز القرآن.

ويلاحظ من العبارة أن الخياط ينكر أن يكون النظام قائلاً بهذا المذهب بإسناده لفظ (الزعم) ولكن الذى يلفت النظر أن الخياط مر على المسألة مرًا سريعًا فلم ينفها ولم يثبتها ويحتج لها فبقى في النفس منها شيء.

وقد حكى الشهرستاني أن ابن الرواندي ينسب للجاحظ قوله في القرآن: (إنه جسم يجوز أن يقلب مرة رجلًا ومرة أنثى)، والرجل وإن بدا في حكاياته الكذب واضحًا جليًا لكن من يسمع يخل.

وقد صادف كتابه هوى في نفوس خصوم المعتزلة فقالوا: رجل منهم يحكى عنهم فهو أعرف الناس بهم، فلا شك أنه يحكى حقًا، ويقول صدقًا.

ولولا ما ذكره الجاحظ من حديث عن هذا المذهب لكان من الإمكان أن هذا المذهب نسب للنظام ولكن في كتب خصومه - على أن الجاحظ ذكره ولم ينسبه لأستاده - ولا ذكر فيه قولاً ويكاد يرى الجاحظ في إعجاز القرآن رأى أهل العربية.

ذكر صاحب المواقف ذلك في كتاب النبوات فقال: وقيل - أى في إعجاز القرآن - كونه في الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها وعليه الجاحظ.. وفي كتب الجاحظ ما يؤيد ذلك.

وهو تارة يقول: «إن القرآن معجز من ناحية أسلوبه وتارة يكون من ناحية نظمه» والمطالع لكتبه يجده تحدث بذلك في مواضع كثيرة.. ومن قوله في ذلك بعدما ذكر ما كان من شأن النبى ﷺ مع قومه: (وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحديًا لهم بها وتقريبًا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستورًا وظهر منه ما كان خفيًا..).

ويقول في موضع آخر: (وفي كتابنا المنزل الذى يدل على أنه صدق نظمه البديع الذى لا

يقدر على مثله العباد.. إلخ).

بل إن الجاحظ يرى أن العرب لا يستطيعون أن يساموا النبي في فصاحته أو يجاروه في بلاغته.. ويشيع هذا المعنى في كتابه «البيان والتبيين».

ومن ذلك قوله: (فإذا رأت مكانه - يريد النبي ﷺ - الشعراء وفهمته الخطباء ومن تعبد للمعاني وتعود نظمها وتنفيذها وتأليفها وتنسيقها واستخراجها من مدافنها، وإثارها من أماكنها - علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استغرقهم واستفرغ مجيهرهم، وبكثير مما قد حولوه قليلاً مما يكون معه على البدهاة والفجاءة من غير تقدم في طلبه واختلاف إلى أهله) على أن النظام نفسه له رأى في إعجاز القرآن غير القول بالصرقة فإن كل الذين نقلوا عنه من غير أصحابه يضمنون إلى القول بالصرقة قوله: (إن القرآن معجز لما فيه من الإخبار بالأمور الماضية والآتية).

ومعنى هذا أنه يرى أن العرب غير قادرين على الإتيان بمثل القرآن لما فيه من الإخبار بالمغيبات.

يقول الشيخ يوسف البيومي^(١) أحد علماء الأزهر: (ذهب النظام إلى القول بالإعجاز البياني كما يقول أهل العربية).

وهذا يؤكد ما سبق وقد أورد الجاحظ اعتراضاً وكلاماً في تفسير قوله تعالى:

﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِيكِ ۚ﴾ (٢٠) لَاَعْدِبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِنِي رَسُولُنِي مُبِينٌ ﴿٢١﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

ومحصلة هذا الاعتراض أن الله تعالى أعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده،

فملكه على الجن فضلاً عن الإنس وعلمه منطق الطير ، وسخر له الريح فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها واتصال بلادها.

ثم يحيب : إن الدنيا إذا خلاها الله وتدير أهلها ومجاري أمورها وعاداتها لكان لعمرى كما تقولون ولكن لله تعالى تدبير تعجز عن فهمه العقول ثم ساق أمثلة على ذلك : أن يعقوب عليه السلام كان أُنْبَه أهل زمانه ، وكان يوسف وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذى لا يدفع وله البرد وإليه يرجع جواب الأخبار ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب عليه السلام دهرًا من الدهور ، ثم قال : وكذلك القول فى موسى بن عمران ومن كان معه فى التيه فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عامًا فى مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون إلى المخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاعبهم ومتنزهاتهم ، ولا يعدم مثل العسكر الأدلاء والجهالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار ، ولكن الله صرف أوهامهم ورفع ذلك القصد من صدورهم.

وبعد أن ساق أمثلة أخرى قال : «ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ؛ ولذلك لم نجد أحدًا طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ولكثر القيل والقال فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بنى النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه إنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذى لا يغلبه العباد ولو اجتمعوا له...».

ولا يفوت الرافعى رحمته الله هذا النص وأنه يناقض المشهور عن الجاحظ فيقول : «وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما فى نفسه من أثر أستاذه وهو شيء ينزل على حكم الملايسة ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه ، أو قد يكون ناقلًا ولا ندري..

ولكننا لو فرغنا أذهاننا مما قاله الأقدمون في معنى الصرفة ونظرنا إلى هذا النص على ضوء ما قدمنا لوجدنا أنه ليس غريباً على الجاحظ بل ولا على الرافعى نفسه فليس الصرف عن الإتيان بكلام يكون في مرتبة القرآن.. ولكنه عن الإتيان بكلام يمكن أن يجادل عنه ويناضل دونه.

ويقال فيه كما قال الجاحظ نفسه في موضع آخر: (فلم يرم ذلك - يريد المعارضة - خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك.. ولو ظهر لو وجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابره فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض).

وبهذا النص فبعد كلام الرافعى في أن ما قاله الجاحظ في أمر الصرف إنها جاء استطراداً على أننا نلاحظ أن الجاحظ لم يرد في نصه هذا شيء عن الإعجاز ولا ذكر لفظه، فمن أين جاءهم أن المراد بالصرف الصرف عن الإتيان بمثل القرآن فيكون هو وجه الإعجاز..

والمسألة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا التواء.. العرب لا يستطيعون أن يحيثوا بمثل القرآن لأنه فوق مستواهم.. ومحال أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبي ﷺ فوق مستوى العرب، ولا يرى بلاغة القرآن ولكي تبعد كل شبه عن القرآن رفع الله من أوهام العرب محاولة أن يحيثوا بشيء في معارضة القرآن، أعنى شيئاً من مثل كلامهم البليغ بعنوان المعارضة هذا يفسر لنا خلو الكتب من شيء صدر عن العرب ذى بال في معارضة القرآن.

وهذا المعنى عبر عنه ابن حزم فقال: فما منهم - أى البلغاء - أحد تكلف معارضته إلا افتضح وسقط وصار مهزأة ومعيرة يتماجن به وبها أتى به ويتطايب به عليه منهم «مسيلمه ابن حبيب الحنفى» لما رام ذلك لم ينطق لسانه إلا بما يضحك الثكلى، وقد تعاطى بعضهم ذلك غيره فصار أضحوكة للناس.

ولكن ربما يقول قائل: إن المعارضة للقرآن قد وجدت وأن الجاحظ أثبتنا هنا، وذكرها هناك في الكلام عن الضفدع فكيف تقولون إن معنى الصرفة أن الله صرف العرب عن أن يعارضوا؟

والجواب: إن معنى المعارضة هو ما ذكره صاحب الطراز عندما قال: (بل المقصود من التحدى إنما هو الإتيان بما ينطق كونه مثلاً أو غير المثل وأمانة ذلك وقوع الاختلاف بين الناس في كونه مثلاً أو غير المثل) والجاحظ نفسه يسخر من كلام مسيلمة ويجعله مما لا يشك السامع في نزوله عن درجة الاعتبار.

ونحن نقول: إن العرب ما كانوا يستطيعوا أن يقولوا شيئاً في مرتبة القرآن وإنما كان في مقدورهم أن يقولوا كلاماً يشبه الأمر فيه على الأعراب وأشباه الأعراب ، وأنهم عجزوا عن الأولى لأنها فوق طاقتهم وصرفوا عن الثانية لئلا يكون القرآن موضوع جدل ومحكمة وتراض ، وعلى هذا نفهم رأى النظام والجاحظ في الصرفة ونربأ بهما أن يقولوا: إن بلاغة القرآن في متناول العرب.

ولا نلزم بهذا الفهم ولا ندعى أنه الحق وحده بل نتقبل من كل من يرى أننا تعسفنا الطريق أو تنكبنا الجادة أن يرشدنا ويهديننا ، ومع توالى القرون ظهر عالم من المشرق وهو ابن حزم الظاهري^(١) صاحب كتاب «الفصل في الملل والنحل» وعالم من المغرب وهو ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب: «سرّ الفصاحة» ، وكل منهما صرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله ولكن الله تعالى صرفهم عن ذلك .. وهذا عندهما هو سر الإعجاز.

ابن حزم الظاهري:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي أصله من فارس ، أول من أسلم من أسرته هو جده الثامن وكان مولى ليزيد بن أبي سفيان ؛ ولذلك كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ويتشيع لهم ، عاش ابن حزم بين سنتي ٣٨٤: ٤٥٦ هـ ، ونشأ في قرطبة في بيت رياسة ، وقد لابس جزءاً من هذه الرياسة حقبة من دهره ، ودفعته همته العالية إلى التعمق في كثير من العلوم ووجد ابن حزم عداء شديداً من أهل الأندلس لاستقلالية آرائه

وجراتها كما كان معتدًا بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد وكان ينال من الأئمة المتقدمين حتى إنه لم يسلم من لسانه أحد ويصور ذلك قول ابن الصريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج توأمين.

آراؤه في القرآن :

يقول ابن حزم: القرآن المعجز هو الكتاب المتلو وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه وما منه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير معجزاً وحده كما روى عن بعضهم وبرهان ذلك قول الله تعالى:

﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله.

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة في كل الآيات فهو يرى أن من أهر الآيات وأعظمها قول النبي ﷺ لليهود الذين كانوا معه في وقته ولعلمهم كانوا ألوفاً أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين في تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن تمنى الموت وحيل بينهم وبين النطق بذلك وهذه قصة منصوص عليها في سورة الجمعة .

وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا وهم يسمعونهم يقول: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٩٤ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ٩٥ ﴿ [البقرة: ٩٤ : ٩٥].

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى وعارض القرآن معارضة صحيحة ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط.

قال ابن حزم: وقد تعاظم بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه فقلت له: اتق الله على نفسك.. فإن الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبك الله هذه النعمة وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك، فقال: صدقت والله وأظهر الندم.

رده على مذهب البيانيين:

يقول أكثر أهل العربية - ومنهم الجاحظ - بالإعجاز البياني في القرآن ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة.. ويعتبر القول بالصرقة رأى طوائف.. وقد عني بالرد على القائلين بأن القرآن في أعلى درجات البلاغة فقال: وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة وهذا خطأ شديد ولو كان كذلك - وقد أبى الله ﷻ أن يكون - لما كان حيثئذ معجزة، لأن هذه صفة كل سابق في طبقته والشئ الذي هو كذلك وإن كان سبق في وقت ما فلا يؤمن؛ لأنه في أعلى درجة البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس ومعاذ الله من هذا؛ لأن كل ما يسبق في طبقته لم يؤمن أن يأتي من يئائله ضرورة فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا: إن الله تعالى منع من معارضته فقط.

اعتراض .. إجابة:

وقد ساق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرقة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام، فكانت تلك الحجة أبلغ، ثم يرد قائلاً: فهذا هو الكلام الغث حقاً لوجه:

أحدها: إنه قول بلا برهان لأنه يعكس عليه قوله بنفسه فيقال له: بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درجات البلاغة لكان لا حجة فيه لأن هذا يكون في كل مكان في أعلى طبقة.. وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود.

ثانيها: إنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ولا يقال له: لم عجّزت بهذا النظم دون غيره؟ لم

أرسلت الرسول دون غيره؟ ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسدًا؟ وكل هذا حق لم يوجهه عقل قط وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط.

ثالثها: إنهم حين طرحوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا: هلا كان هذا الإعجاز في كلام بجميع اللغات فيستوى في معرفة إعجازه العرب والعجم؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بإخبار العرب فقط.

القرآن وكلام البشر:

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه.. وبرهان ذلك:

أولاً: لو أن إنساناً أدخل في رسالة له أو خطبة أو تأليفاً أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك.. كما أن الأقسام التي في أوائل السور لا عهد بها وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة.

ثانياً: نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ليس بينها كقوله تعالى:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ [مريم: ٦٣-٦٦].

وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا صدر ومثل هذا في القرآن كثير.

ثالثاً: ما روى عن أنيس - أخي أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) - حين سمع القرآن فقال: لقد وضعت هذا الكلام على السنة البلغاء وألسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك، أو كلاماً هذا معناه.

مناقشة قول الأشعرية :

ويتعرض ابن حزم هنا لأمور تتصل بالإعجاز ويطيل منها وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه في أعلى درج البلاغة.

فالأشعرية يقولون : إن المعجز هو مقدار أقل سورة منه وهو: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ فصاعداً.

فيرد ابن حزم بقول الله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولا يختلف في أن كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز وهذا هو الحق الذي عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوها ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ؛ لأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ولا يقال حينئذ إنها معجزة فلما صارت من كلام الله أصبحت معجزة.

وإن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً وإنها متى ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً فهي غير معجزة.. انتهى كلام ابن حزم..

ابن سنان الخفاجي^(١) :

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد الخفاجي ، الشاعر الأديب (الشيعة المتكلم - تلميذ الفيلسوف أبي العلاء المعري ، توفي ابن سنان سنة ٩٦٦ هـ ، ويرى أن العلماء

(١) حول إعجاز القرآن - للدكتور علي العماري.

مختلفين في إعجاز القرآن على مذهبين:

الأول: أنه خرق العادة بفصاحته وجري ذلك مجرى قلب العصا حية..

الثاني: صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم - وهو هنا يذكر أن الصرف رأيه ولا يجادل عنه - وإنما يعهد لذكر المذهبين ليبين مكان الحاجة على كلا المذهبين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ولكنه يبادر فينفى شبهة هي أول ما يتوجه إلى مذهب الصرف ، ذلك أن المعارضة فيما يرى - وقعت فعلاً فيرد على ذلك بأن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذي أورده خال من الفصاحة التي وقع التحدى بها في الأسلوب المخصوص ، ويقول: إن كتابه سيبين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب.

الرد على الرمانى:

وفي معرض رده على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا ، وأن القرآن كله من النوع الثالث ولا يشركه في ذلك غيره ، فيقول في الرد :

وهذا الذى ذكره غير صحيح والقسمة فاسدة وذلك لأن التأليف على ضربين : متنافر ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من البعض ، ولا بين القرآن وبين فصيح الكلام في هذه القضية ويصور حجته وجداله ورأيه في الأمور الآتية:

أولها: متى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار.. وجد في كلام العرب ما يضاهى القرآن في تأليفه.

ثانيها: يحمل على قول الرمانى ويعتبره دعوى فاسدة ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الإبعاد الذى ينفر منه كل من علق من الأدب بشيء أو عرف من نقد الكلام طرفاً وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة.

ثالثها: يصرح هنا برأيه فيقول: وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن
صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في
وقت مرامهم ذلك.

رابعها: وإذا كان الأمر على هذا فتحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف
حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم.

خامسها: ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة وادعينا أنه أفصح من كلام
جميع العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر في ذلك إلى ادعاء ما ادعاه
من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب ،
وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً وإنما الفصاحة لهذا ولغيره.

سادسها: أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرنا فيما تقدم؟
فلا بد من نعم ، فيقال له: فما عندك في تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها ، أهو
متلائم في الطبقة العليا ، قيل له: أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن
وبعده ، ولولا ذلك لم يكن عريباً ولا كانت العرب فهمته فقد أقررت الآن أن في كلام
العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا وهو الألفاظ المفردة ، وإن قال: في الطبقة الوسطى
قيل له: إن مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه لا تزال أيضاً.

سابعها: إذن لا مانع أن يقال: إن في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً مثل
القرآن في تأليفه ، فإن علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر.

ثامنها: وليس تنازعنا في كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا في الطبقة العليا إلا قلنا
مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضعين واحد.

.. ويخلص ابن سنان من هذا النقاش في تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن
وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان في تلاؤم التأليف وكل منهما - في هذا في الطبقة
العليا - وعلى هذا يتقرر أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب

فمعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة.. ومعناها عنده على ما نقلنا أنهم سلبوا العلوم ولكي يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التي فهمها العلماء من هذا المذهب على نحو ما في كتاب الطراز لأبن حمزة العلوي، وهما كبيان الاحتمالات:

الاحتمال الأول: أن الله سلب دواعي العرب إلى المعارضة مع أن أسباب توافر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز والتكليف بالانقياد، ومخالفة الأهواء.

الاحتمال الثاني: أن الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها.

الاحتمال الثالث: أن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك.. «ويظهر أنه مذهب القائلين من الشيعة».

هذا وقد رد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت في الفصاحة، وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا في الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعضه ثم يقول: (لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته وعنده أن هذا هو المذهب المختار.. وعليه - زعم أهل هذه الصناعة وأرباب هذا العلم وأضاف: «وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره» إلخ كلامه.. وفي [معجم الأدباء] في ترجمة أبي العلاء المعري ورد ذكرها.. قال: «قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة، زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي ﷺ وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله إلا أنهم صرفوا عن ذلك، قال في تضاعيفه: وقد حمل جماعة من الأدباء قول [بالضم في اللام] أصحاب هذا الرأي أنه لا يمكن لأحد أن يعارضه بعد زمان التحدى على أن ينظموا على أسلوب القرآن - حيث أظهر ذلك قوم وأخفاه آخرون، ودعوى ابن سنان يعوتها الدليل، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله: [إن

تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب في تلاؤم الألفاظ لأن الكلمات المفردة هي كلماتهم.. [فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم ولا ندرى كيف ذهب وخفى عنه أن الكلمات قد تكون واحدة ولكن الفصحاء يختلفون في الصياغة].

بقى القول أن الخفاجي لم يتأثر بأستاذه في هذا المنهج والمذهب لأن أبا العلاء لا يقول به.. وبعض العلماء يذكرون أنه عارض القرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفى ذلك الرافعي في (إعجاز القرآن) وناسر الكتاب في المقدمة.

وقد ذكر ابن سنان على الراجح - قطعتين وهو تلميذ يتحدث عن أستاذه.. فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على خط القرآن.. دون أن يقصد الإتيان بمثله ففهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا.. وكيف يكون ذلك والكتاب كله في تمجيد الله وتقديسه حتى الفقرات التي ذكرها له ونقلها الرافعي جاءت ناقصة ومبدلة.

ويظهر أن ما حذف منه تعمدوا حذفه ؛ لأنه يبطل دعواهم وبما حذف كلمات مثل: «شعر النابغة وهذيل.. وغناء الطائر على الفيل.... شهادة بالعظمة لمقيم الميل».

وإذا كان أبو العلاء قد قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت فلا يكون قائلاً بالصرقة على أن موقف أبي العلاء من ابن الراوندى وكتبه شهادة على عقيدة الرجل في القرآن.. تعرض لكتب ابن الراوندى في رسالة الغفران وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندى ولكنه تناول كتبه جملة إلا كلمة قالها في القرآن.

وقد تعرض له ابن الراوندى في بعض كتبه فقال: «إنه يجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فخصه أبو العلاء بكلمة قال فيها:

(وأجمع ملحد ومهتد - وناكب عن المحجة ومقتد أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوه بالإيجاز، ما حذى على مثال - ولا أشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون « ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطاب العرب ولا سجع الكهنة أولى الأرب، والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب، فلسنا نستبعد أن يكون

خضع لبعض ذلك في بعض أيامه أما الذي نجزم به - على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه - أنه لا يقول بمذهبه الصرفة^(١).

و خلاصة القول :

إن أول من قال بالصرفة هو إبراهيم بن سنان المعروف بالنظام فقد زعم أن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة لبيان أحكام الحلال والحرام، وأن العرب لم يقوموا بمعارضته لأن الله تعالى صرفهم عن هذه المعارضة^(٢).

ومن نسب إليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في معارضة القرآن والإتيان بمثله، ومؤدّى كلامه أنهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه^(٣).

ومن قالوا بالصرفة الفقيه البليغ العنيف المتشدد ابن حزم الأندلسي فقد قال في كتاب الفصل في سبب الإعجاز: (لم يقل أحد كلام غير الله تعالى معجز لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له صيره معجزاً ومنع من مماثلته ثم قال: وهذا برهان كان لا يحتاج إلى غيره)^(٤).

(١) الرازي نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٥٦ تحقيق د/ أحمد حجازي السقا نشر وتوزيع المكتب الثقافي طبعة أولى بمصر سنة ١٩٨٩ م.

(٢) المصدر السابق ص ٧٩.

(٣) الفصل.

أدلة القائلين بالصرفة :

قالوا : لقد عُرِفَ العربُ منذ جاهليتهم بفصاحة الكلمة ولهم في ذلك القصيد الطويل والنثر البديع والرجز اللطيف والسجع الغريب والمعلقات وقد كانت ندواتهم ومحافلهم وأسواقهم تقام لمعرفة ما يستجد من آفانين القول فكيف يعجزون عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن بمثل سطر واحد لا تتجاوز كلماته العشرة فإن ثبت عجزهم فليس ذاك إلا صارفاً صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه بأن سلب منهم العلوم التي يمكنهم معارضه القرآن بواسطتها أو صرفهم عن الاهتمام بالمعارضة ولولا ذلك لأمكنهم الإتيان بمثل القرآن^(١).

الرد على القائلين بالصرفة :

وهؤلاء مردود عليهم بأدلة سمعية وأخرى عقلية أما الأدلة السمعية فهي : إن القول بالصرفة يسلب عن القرآن إعجازه الذاتي ويجعل المعجزة لهذا الصرف والمنع الذي حال بينهم وبين الإتيان بمثله وهذا مناقض لإجماع الأمة الذي انعقد قبل وجود القائلين بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتي^(٢).

ولقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها المعجزات الأخرى فكانت هذه توجب أن يكون إعجازه ذاتياً ولقد قال الله تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ ۚ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

فالأمر بالصرفة يسلب هذه الصفات الذاتية عن القرآن ويجعل الإعجاز في المنع الذي حال بينهم وبين الإتيان بمثله.

(١) إعجاز القرآن: رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة ص ٨٦٢.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ١٢٣.

الأدلة العقلية:

إن قول النظام ومن تبعه: إن الله صرفهم بصرف الدواعي عن الاهتمام بالمعارضة يكذبه الواقع التاريخي كيف يقال: لم يهتموا بأمر القرآن والتوجه لمعارضته، وهم الذين لم يدخروا وسعاً في سبيل القضاء على القرآن ومن جاء به هل يقال: إن دواعيهم كانت مصروفة عن المعارضة ولم يهتموا بشأن القرآن وهم الذين أوفدوا عتبة بن ربيعة ليفاوض محمداً على ترك سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وله مقابل ذلك المال والجاه والنساء وكل ما يرغب.

أيقال: إن دواعيهم كانت مصروفة عن القرآن وهم الذين وجهوا أشرفهم إلى عم النبي ﷺ أبى طالب لكي يسلمهم محمداً ليقتلوه ويعطوه بدله فتى من قريش فكيف يقال إن دواعيهم لم تتوجه إلى معارضة القرآن، وهم الذين يئسوا من المفاوضات فقررروا إرسال فتى من كل قبيلة لاغتيال محمد ﷺ.

ثم إن ترك المعارضة بالحرف واللسان واللجوء إلى الضرب والطعن باللسان من أقوى الأدلة القاطعة على إحساسهم بالعجز المطلق أمام آيات الله.

وعن قول المرتضى ومن شايعه أن الله سلب من العرب العلوم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن نقول: وهل تحطمت علومهم وعقولهم بعد التحدى عما كانت عليه قبل التحدى.

ثم إن الذين ادعوا أن إعجاز القرآن كان بسلب العلوم، هؤلاء يثبتون للعرب قدرة هم لم يدعوها لأنفسهم.

يقول الإمام فخر الدين الرازى:

«إن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك

عليهم بعد أن كان مقدورًا عليه لهم، كما أن نبيا لو قال: معجزتي أن أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذرًا عليكم، ويكون الأمر كما زعم، لم يكن تعجب القوم من وضع يده على رأسه بل من تعذر ذلك عليهم ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظام^(١).

وهذا الذي ذكره الرازي نجده عند أبي سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي المولود عام (٣١٩ هـ - ٩١٣ م) أي قبل ولادة الرازي بأكثر من قرنين من الزمان، يقول الخطابي في رسالة بعنوان «بيان إعجاز القرآن».

وذهب قوم على أن العلة في إعجازه الصرفة أي صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدورًا عليها غير معجوز عنها إلا أن العائق من حيث كان أمرًا خارجًا عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات فقالوا: لو كان الله ﷻ بعث نبيا في زمان النبوات، وجعل معجزته في تحريك يده ومد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه، ثم قيل له ما آيتك؟ فقال: آيتي أن أخرج يدي أو أمد رجلي ولا يمكن أحد منكم أن يفعل فعلي والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم فحرك يده أو مد رجله فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدرُوا عليه كان ذلك آية دالة على صدقه، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًا عن مجرى العادات، ناقضًا لها، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها، وهذا أيضًا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فأشار في ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد، وسيله التأهب والاحتشاد والمعنى

في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم^(١).

ويذكر الرازي اعتراضاً آخر على الصرفة في كتابه: «نهاية العقول في دراية الأصول» فيقول: (إن العرب لو كانوا بحيث متى قصدوا فعل المعارضة افتقدوا العلوم التي لا بد منها فيها لوجب أن يعلموا ذلك في أنفسهم بالضرورة وأن يميزوا بين أوقات المنح وأوقات التخلية ولو علموا ذلك لتذاكره ولذاع وانتشر^(٢)).

وهذا الاعتراض نجده عند أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى عام ٤٧١ هـ ١٠٧٨ م أي قبل وفاة الرازي بأكثر من قرن من الزمان.

يقول الجرجاني في الرسالة الشافية في فصل تحت عنوان: «في الذي يلزم القائلين بالصرفة»: وما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي له إن كانت العرب مُنعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها.. أن يعرفوا ذلك من أنفسهم كما قدمت ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ: إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئنا به ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكره فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلل في أذهاننا فبقى إن لم يروا ولم يذكروا أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل أنه قول فاسد ورأى ليس من آراء ذوي الفضل^(٣).

إن تحدى القرآن وإثبات العجز ليس مقتصرًا على عهد النبوة فقط بل هذا التحدي قائم

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٠، ٢١ تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام طبعة دار المعارف.

(٢) نهاية العقول في دراية الأصول ج ٢ ورقة ١٢٨ - ١٢٩ مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٧٤٨ توحيد.

(٣) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٣٥.

وهذا العجز من البشر ثابت إلى يوم القيامة فمن قال بالصرفة فليحاول هل هو يحس بشيء من الصرف أو السلب في نفسه.

إن استعظام العرب بفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك هو دليل على بطلان الصرفة فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز ولو كان هناك سلب علومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة^(١) مثل الذين يقولون إن إعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا إن القرآن سحر وقد أثبت ذلك الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن» فقال: وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن

قول العرب: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: من الآية ٢٤].

وهذا زعم رده الله تعالى على أهله وكذبهم فيه ضرباً من العمى ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ

أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

وأن التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة في كليهما خارج الشيء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر في السحر يدهشهم حتى يعجزوا^(٢).



(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم مطبعة السعادة ص ٢٥٢.

(٢) المعجزة الكبرى ص ٨٢.

الفصل الثاني

السِّبْرُ والتَّقْسِيمُ

اتفق علماء التفسير والكلام على استخدام مصطلح السبر والتقسيم لمجارة الخصوم في المسائل (الخلافية) ثم جرّهم إلى التسليم بعد إقامة الحجة عليهم بفرض إظهار الحق وإفحام الخصوم ودحضهم.

فالسِّبْرُ: هو امتحان^(١) غور الجرح وغيره كالاستنبار والأسد والأصل واللون والجمال والهيئة الحسنة.. ويكسر في الأربعة.

والتقسيم: هو^(٢) استيفاء أقسام الشيء الموجودة لا الممكنة عقلا ويعد هذا المصطلح من أشق أبواب الجدل على المعارضين والمنكرين إذ أن المجادل يتخذ حجة لإبطال كلام الخصم وذلك بذكر أقسام الموضوع - محل الجدل - ويبين أنه ليس من خواص واحد منها ما يوجب الدعوى التي يدعيها الخصم.

وأمثلة هذا الباب كثيرة في القرآن الكريم من ذلك ما عرضه الإمام السيوطي رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبَيَّةٌ أَرْوَجُ مِنْ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ

(١) الفيروزابادی - المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤ - باب الرء فصل السين.

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٦٧.

يَغْيِرْ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ [الأنعام: ١٤٣: ١٤٤].

قال السيوطي في وجه الاستدلال (١) من الآيتين: إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد الله تعالى ذلك عليهم بطريق (السبر والتقسيم)، فقال: إن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر ذكرا وأنثى.. فلم جاء به تحريم ما ذكرتم؟ أى ما علته: لأنه لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو من جهة الأنوثة أو اشتمال الرحم الشامل لهما...؟؟

أو يكون مما لا تُدرى علته - وهو التعبدى - بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فهذه وجوه التحريم - ثم لا تخرج عن واحد منها؟ والأول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً، والثاني يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً؟ فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضى التحريم مطلقاً، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل، ولم يدعوه...! وبواسطة رسول كذلك...! لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبى ﷺ وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال.

وقال القرطبي (٢) رحمه الله: الآية احتجاج على المشركين في أمر البهيمة وما ذكر معها وقولهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرْنَا وَمُحَرَّمَ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

(١) الجدل - الإمام محمد أبو زهرة دار الفكر العربى ص ٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧ / ١١٤ - ١١٥) الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فدلت على إثبات المناظرة في العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يناظرهم ويبين لهم فساد قولهم وفيها إثبات القول بالنظر والقياس وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به ، وقيل : إذا ورد عليه النقص لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة وأمرهم بطرد علتهم - ثم ساق القرطبي المعنى على ما ذكر السيوطي .

وتعقب الألوسي^(١) ذلك بقوله: (إنه بعيد جدا لأن للقاتل أن يقول: هب أن هذه الأجناس الأربعة محصورة في الذكورة والإناث إلا أنه لا يجب أن يكون علة تحريم ما حكموا بتحريمه محصورة في الذكورة والأنوثة بل علة تحريمها كونها بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو غير ذلك من الاعتبارات كما إذا قلنا: إن الله تعالى حرم ذبح بعض الحيوانات لأجل الأكل. فإذا قيل: إن ذلك الحيوان إن كان قد حُرِّم لكونه ذكرا وجب أن يحرم كل حيوان ذكر - وإن كان قد حُرِّم لكونه أنثى وجب أن يحرم كل حيوان أنثى، ولما لم يكن هذا الكلام لازما عليه فكذا هو الوجه الذي ذكره المفسرون.

قال الإمام فخر الدين الرازي: "يجب على العاقل أن يذكر في تفسير كلام الله تعالى وجهاً صحيحاً فأما تفسيره بالوجوه الفاسدة فلا يجوز ثم قال: والأقرب عندي فيه وجهان: الوجه الأول: أن يقال: إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار مضي أنكم لا تقرّون بنبوّة نبي ولا تعرفون شريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم.

الوجه الثاني: أن حكمهم بالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام مخصوص بالإبل
فإن الله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة، فلمَّا لم تحكموا بهذه الأحكام في
الأقسام الثلاثة وهي: الضأن والمعز والبقر، فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم على
التعيين.. انتهى كلامه رحمه الله.

(۱) روح المعانی (۵ / ۶۳) دار الفکر.

(٢) التفسير الكبير للرازي (ج ٦ / ٦٠٨ - ٦٠٩) مكتبة الإيمان.

ومن التقسيم أيضاً: ما جاء في قول الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

إذ ليس^(١) في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لهذين القسمين.. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فإن الظالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة: إما عاص ظالم لنفسه، وإما سابق للخيرات، وإما متوسط بينهما مقتصر فيها، ونظير ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ﴾ [الواقعة: ٧: ١٠].

وكذا قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤].

استوفى أقسام الزمان ولا رابع لهما وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

استوفى جميع هيئات الذكر. وكذلك قول الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩: ٥٠].

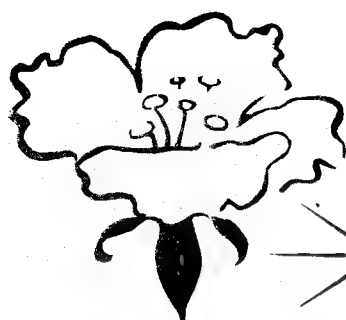
استوفى جميع أحوال المتزوجين ولا خامس لها ، وقيل : قَسَمَ الله سبحانه وتعالى حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود لأنه سبحانه إما أن يفرد^(١) العبد بهبة الإناث أو بهبة الذكور أو يجمعها له.. أو لا يهب شيئاً.

وقد جاءت الأقسام في هذه الآية ليتنقل منها إلى أعلى منها وهى هبتها جميعاً.. وجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير وقال فيه (ويجعل) فعدل عن لفظ الهبة للتغاير بين المعاني كقوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣: ٦٥].

فذكر لفظ (الزراع) للدلالة على الإنماء والامتداد.. ومعنى الحرمان بلفظ الجعل. وقيل: بدأ سبحانه بالإناث إما جبراً لهن ، وأنه فاعل لما يشاء لا ما يشاء الأبوان وأنه تعالى بدأ بالصنف الذى يشاؤه ولا يريد الأبوان غالباً - وكانوا فى الجاهلية يئدوهن - وقيل: قدمهن لضعفهن ، ولينتقل الأبوان من الغم إلى الفرج بالتسلية. وتأمل كيف عرف سبحانه الذكور بعد تنكير فجبر نقص الأنوثة بالتقديم وجبر نقص المتأخر بالتعريف فإن التعريف تنويه. انتهى.





الحب الطاهر



اللعبة السحرية



لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

[البقرة: ٢٥١] وهذه حقيقة لا ينكرها من لديه مسكة من علم الاجتماع البشرى.

القرآن لم يسد الطريق في وجه الداعين للسلام العام مشيرًا بذلك إلى أنه لو توصل الناس إلى إلقاء السلاح على قاعدة عادلة كان المسلمون أول من يضعون أيديهم في أيدي الأمم المتحابة حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٦١].

وأقر الإسلام الأحكام الدستورية بطريقة لم يعرفها الأقدمون :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

فالأحكام هنا شورية وتناول القرآن قضايا العدل بين جميع البشر.. كما اهتم بحقوق المرأة كذلك فقال: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَعِدُّوا لَهُ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [المائدة: ٨].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ ﴾ [الطلاق: ٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقد قرر القرآن أن الله تعالى يتعالى عن العقول فلا يدركه كنهه وأن غاية ما كتب لها من إدراكه هو العجز عن إدراكه فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال كبار الماديين: إنه قوة الوجود وتظهر فيه بمظهر نواميسه وقواه العاملة. وبينما الأمم على حال من التسلط والتكبر إذ بالقرآن يخاطب العقل بصوت جهوري وهو يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فرفع الحرج وفتح الباب ومنح القبول والرجاء.. وبين القرآن أن كل جيل مسئول عن نفسه لا يجديه أن يتابع سابقه شيئاً وعلى أن التابعين يحملون على المتبعين يوم القيامة فيتبرءون منهم..

قَالَ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

والقرآن يقرر ويؤكد مطالبته لكل معتقد بالدليل على عقيدته وعلى أن مجرد التسليم لا يجديه نفعاً.

فقال: ﴿قُلْ مَا تَوْابِعُنَا مِنْكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٦٤).

كما أكثر من ذكر العقل وضرورة الرجوع إلى أحكامه فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ومن تلك الأصول المعجزة التي لم يكن يعدها البشر قبل القرآن حكمه بأن المقصود من الدين منفعة البشر لا تعذيبهم وفائدتهم لا تسخيرهم فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

كما أبطل الآمال التي يعلقها المتدينون على شفاعة الشافعين في الآخرة إلا بأمر الله ومراده فقال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨).

ولقد نص القرآن على ناموس الترقى في العلوم والفنون التي تفيد في المعاد والمعاش فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وبين القرآن تسخير الكون للعلماء ممن لم يدعوا مظنة من مظان التغلب على قوى الكون إلا حاولوها واكتشفوها قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣).

ونص القرآن في بيانه وإعجازه القوى على أن السعادة الروحية في الآخرة لا تنافي السعادة المادية في الدنيا وأن المدنية إذا قصد بها خير البشرية ، وتسهيل المنافع الحيوية وإظهار البدائع الموجودة فهي مما ندب الشرع إليه قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ

الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَلِنَعْمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ [النحل: ٣٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

كما أن القرآن وهو يحارب الأحقاد التي تنشأ بسبب اختلاف الناس في الأديان والأجناس قد أسس ذلك على أصول اجتماعية جليلة فقرر أن الاختلاف بين الأمم أمر لا بد منه لنظام الوجود، وأن تخالف الشعوب في المعتقدات من مقتضيات الطبائع البشرية.

فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ولقد أمر الإسلام بدعوة الناس إلى الدين بإحسان وبما يحتمله حسن المعاشرة من التلطف والبر فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم شدد النكير على من يتعالى في سبيل الدعوة فقال زارياً على ذلك تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وأثبت أن السعادة كل السعادة مرتبطة بالعلم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وضرب القرآن الأمثال للناس على أن قوانين الخير لا يعقلها إلا العالمون ولا يفقهها إلا العقلاء فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [٢٧] وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧: ٢٨].

ولقد شنع القرآن على الآخذين بكل ما يقال بدون نقد ولا تمحيص فقال:

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

وكذلك قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

طوّف القرآن الكريم في أكثر من ثلثي سورة وآياته حاكياً عن بني إسرائيل في عقيدتهم ومعاملاتهم وانشاءاتهم وتصرفاتهم وكيف تحولوا من كونهم أفضل الأمم إلى صيورتهم

أَحْسَنَ الْأُمَمِ وَأَوْكَسَهَا وَكَيْفَ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالشَّتَاتَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَاجْرَامِهِمْ حَتَّى مَسَخَهُمُ اللَّهُ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ.. فَرَصَدَ لَهُمُ الْقُرْآنَ أَوَّلًا هَذَا الْحَالُ: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [البقرة: ٤٧].

ثم رصدهم ثانيًا: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ
دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾
تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ
أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ
كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨ : ٨١]..

هذا غير آيات أخرى كثيرة ، ولم يغفل القرآن الكريم في إعجازه البياني جانب العطاء في كل شيء حتى الماعون.. حيث ذم أقوامًا بأعيانهم وصفهم بالمرائين ، والساھين عن الصلاة لدرجة جعلتهم على درجة من البخل والشح حتى إنهم منعوا ما يتعاون الناس به في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة على قول ابن مسعود رضي الله عنه وعن عائشة رضي الله عنها الماء والنار والملح.

هذا هو القرآن في توجيهاته وإعجازه في البيان والعرض الجليل قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ﴾ ٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ [الماعون ٦: ٧].

ثانياً: التوراة: (العهد القديم).

وتطلق على الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس ومعنى التوراة في اللغة العبرية (القانون) وأنزلت جملة واحدة على عكس القرآن الذي نزل منجماً.

قَالَ تَمَالَى ﴿٤٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ
الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤].

مقتطفات من التوراة

جاء في كتاب ميثاق النبيين^(١):

سفر اللاويين ٢٠/٤: ٢٦ ما نصه: (قلت لكم ترثون أئتم أرضهم وأنا أعطيكُم إياها
أنا الرب إلهكم الذي ميزكم من الشعوب فلا تدنسوا نفوسكم بالبهائم والطيور ولا بكل
ما يدب على الأرض مما ميزته لكم ليكون نجساً وتكونون لى قديسين لأني قدوس أنا الرب
وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى إلخ).

نلاحظ هنا أن اليهود بالغوا في تفخيم أنفسهم وذكروا أن الفرق بينهم وبين سائر
البشر كالفرق بين الإنسان والحيوان.

وفي سفر التكوين الباب السادس عشر في قصة هروب هاجر من سارة ما يلي: ١٦ /

(١) ميثاق النبيين، عبد الوهاب عبد السلام عطية، دار القبلة - للثقافة الإسلامية جدة - م علوم القرآن

٦: (فأذلتها ساراي فهربت من وجهها)، ٧: (فوجدوها ملاك الرب على عين الماء في البرية)
٨: (فقال يا هاجر جارية ساراي: من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟ فقالت: أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي) ٩: (فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها)
١٠: (وقال لها ملاك الرب: تكثيرًا أكثر نسلك.. فلا يُعَدُّ من الكثرة): وقال لها ملاك الرب: (ها أنت حبل فتلدين ابناً وتدعين إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك^(١)) إلخ..

وفي سفر التكوين أيضًا في الباب السابع عشر ما يلي: ١٧ / ١٥ ما نصه: (وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدع اسمها ساراي بل سارة)، ١٦: (أباركها وأعطيك أيضًا منها ابناً أباركها.. فتكون أمّا وملوك شعوب منها يكونون)، ١٧: (فسقط إبراهيم على وجهه) ١٨: (قال إبراهيم: ليت إسماعيل يعيش أمامك)، ١٩: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده)، ١٠: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك منه.. ها أنا أباركه وأنمّره وأكثره جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة إلخ..).

وفى كتاب إظهار الحق^(٢):

في مقام الاستهزاء من جانب بنى إسرائيل من تكلم أتان^(٢) بلعام جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد هكذا:

٢٨: (ففتح الرب فم الأتانة وقالت لبلعام: ما الذى فعلت بك؟ هذه ثلاث مرات قد ضربتنى) ٢٩: (فقال بلعام للأتان لأنك أستأهلت ذلك منى إلخ) ، ٣٠: (فقال الأتان لبلعام: أأنت أنا أتانك التى تركب منذ كنت غلامًا إلى يومنا هذا؟ فهل فعلت بك مثل هذا؟ فقال: لا إلخ .

(١) الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عام ١٩٨٤م.

(٢) إظهار الحق ج ٢ رحمت الله الهندي ص ١٥٥ ، دار التراث العربي.

(۳) أنشی حمار.

ومعروف أنه بلعام الذي كان مستجاب الدعوة وهو المشار إليه بقول الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنفَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطٰنُ

فَكَانَ مِنَ ٱلْفَٰرُوقِ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

في الإصحاح الرابع من سفر حزقيال عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ رقم ٤: (وأنت تنام على جنبك الأيسر وتجعل أثام بيت إسرائيل عليها على عدد أيام ترقد عليها وتتخذ أثمهم) ٥: (أما أنا أعطيتك سنَى أثامهم على عدد أيام ثلاثمائة وتسعين يوماً وتحمل أثم آل إسرائيل).

كما جاء كذلك في ١٠: (وطعامك الذي تأكله يكون بالوزن عشرين مثقالاً في كل يوم من وقت إلى وقت تأكله) ١١: (وتشرب ماءً بمقدار السدس من القسط من وقت إلى وقت تشربه). ١٢: (وكخبز ملة من شعير تأكله وتلطخه بزبل يخرج من الإنسان في عيونهم).

وفى كتاب المسيحية الحقه كما جاء بها المسيح^(١):

جاء في سفر التثنية قوله: ٧- (أقيم لهم نبياً من وسط إخوانهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه.. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامه لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي وإن قلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيانٍ تكلم به النبي.. فلا تخف منه)... إلخ.

وفي سفر أشعياء ٢٩ / ١٢ - عن النبي المنتظر جاء: (يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة. ويقال له: اقرأ هذا - فيقول لا أعرف الكتابة).

وفي نفس السفر - أشعياء ٤٩ / ٢١ - في البشارة قوله: (اسمعي لى آيتها الجزائر، واصغوا أيها الأمم من بعيد الرب من البطن دعاني.. من أحشاء أمي ذكر اسمي.. وجعل في كسيف حاد^(٢).. في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبرئاً في كنانته أخفاني)... إلخ.

(١) المسيحية الحقة كما جاء بها المسيح، علاء بكر - مكتبة وهبة إيداع ٩١٥١، ٩٧ ص ٣٧٨.

(٢) فمى.

ثالثاً: الإنجيل: (العهد الجديد).

الإنجيل: كلمة يونانية الأصل عربت عن كلمة (إنكليون)^(١) وهى تعنى (من أتاك بشرى) ثم امتد معناها ليشمل (البشرى) نفسها.. كما استعمل أيضاً بمعنى (ملخص تعاليم المسيح).. ويرد بعضهم الكلمة على الأصل اليوناني (إيفا نجليوس) وهى كلمة مكونة من مقطعين (إيف) وتعنى السرور.. و(نجليوس) تعنى: الخبر، وتعنى الكلمة بأسرها (الخبر السار المفرح).

مقتطفات من الإنجيل

فى كتاب إظهار الحق^(٢):

الإصحاح الخامس من سفر أيوب الآية الأولى جاء: (فادع الآن إن كان لك مجيب وإلى أحد من القديسين التفت) فالمراد بالقديسين المؤمنون الموجودون على الأرض... إلخ.

فى الإصحاح الرابع من إنجيل متى جاء قوله / ١٢: (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل) ١٧: (من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات).. ٢٣: (وكان يسوع يطوف كل الجليل ويعلم فى مجامعهم ويكرز بشارات الملكوت).. إلخ.

فى كتاب القرآن الكريم والتوراة^(٣) والإنجيل والعلم:

جاء فى إنجيل متى الإصحاح العاشر الآيتان ٥ / ٦ ما نصّه: (إلى طريق الوثنيين لا تمضوا إلى مدينة السامريين لا تدخلوا - بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة)..

(١) المسيحية الحقّة علاء أبو بكر ص ٤١.

(٢) إظهار الحق، رحمت الله الهندى.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - الدكتور موريس بوكاى.

.. وفي الإصحاح ٢٨ / ٢٩ متى: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم) وعن حادثة يونس النبي يسرد الإنجيل في الإصحاح ١٢ من الآيات ٣٨: ٤٠ قوله: (يا معلم نريد أن نرى منك آية.. فأجابهم المسيح: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا يعطى له آية أخرى إلا آية يونس النبي لأنه كما جاء يونس في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال.. إلخ).

ومن كتاب اقتباسات من كتاب الأناجيل^(١) من التوراة:

جاء في إنجيل متى ١٩ / ٣-٨ ما نصه في كلام جرى مع عيسى عليه السلام: (فدنا إليه بعض الفريسيين وقالوا له ليحرجه: أيجل لأحد أن يطلق امرأته لأية علة كانت؟ فأجاب: أما قرأتم: (أن الخالق منذ البدء جعلهما ذكراً وأنثى).

وقال: (لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصير الاثنان جسداً واحداً) فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد فما جمعه الله لا يفرقه إنسان)، فقالوا له: (فلماذا أمر موسى أن تعطى كتاب طلاق وتسرح؟ قال لهم: (من أجل قساوة قلوبكم رخص لكم موسى في طلاق نساءكم، ولم يكن الأمر منذ البدء هكذا).

يقول بولس: (فإننا نحن الأحياء نسلم في كل حين إلى الموت من أجل يسوع لتظهر في أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضاً، فالموت يعمل فينا والحياة تعمل فيكم ولما كان لنا من روح الإيمان ما كتب فيه: (آمنت ولذلك تكلمت فنحن نؤمن ولذلك نتكلم) من الإصحاح الأول آية ١١: ١٣.

وفي نفس الإصحاح الأول ٥ / ٦ يقول بطرس: (فتواضعوا تحت يد الله القادرة ليرفعكم في حينه وألقوا عليه جميع همكم فإنه يُعَنِّي بكم كونوا قنوعين ساهرين إن إبليس خصمكم كالأسد الزائر يرود في طلب فريسة له فقاوموه راسخين في الإيمان... إلخ).

(١) اقتباسات من كتاب الأناجيل من التوراة: دكتور/ أحمد حجازي السقا مكتبة الإيمان.

ومن كتاب: المسيحية الحقّة^(١):

نصوص من الإنجيل يصف المسيح فيها إله السماء والأرض فيقول: (إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) يوحنا المعمدان ١٧ / ٢٠ .

وكذا: (الرب إلهنا رب واحد) مرقس ١٢: ٢٩ وأيضاً: (لأنه الله واحد وليس آخر سواه) مرقس ١٢: ٣٢ ، وجاء: (هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل) متى ٢١: ١١ ، (قد قام فينا نبي عظيم) لوقا ٧: ١٦ ، (وأنا الإنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعه من الله) يوحنا ٨: ٤٠ : (إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم) يوحنا ٦: ١٤ (لا يمكن أن يهلك بني خارجاً عن أورشليم يا أورشليم يا أورشليم - يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين) لوقا ٣٣: ٣٤ (ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله) يوحنا ٨: ٤٠ ، فقالوا له: (إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله) يوحنا ٨: ٤١ (الذي من الله يسمع كلام الله) يوحنا ٨: ٤٧ .

وفي مقام البشارة جاء ما يأتي: (إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي) متى ١٤: ١١ : (قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي) يوحنا ١ / ١٩: ٢٣ ، (أنا أعمدكم بماء التوبة ولكن الذي يأتي بعدى هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه) متى ٣: ١١ : (وكان يكرز قائلاً: يأتي بعدى من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أنحنى وأحل سيور حذائه) مرقس ١: ٧ (الذي لست أهلاً لأن أحل سيور حذائه) لوقا ٣: ١٦ .

ومن كتاب: ميثاق النبيين^(٢):

جاء في إنجيل يوحنا في البشارة ٤ / ٢٥: ٢٦: (أن عيسى عليه السلام مر بمدينة من مدن السامرية فقالت له امرأة: أنا أعلم أم مسيا الذي يقال له المسيح يأتي ، فمتى جاء ذلك نخبرنا

(١) المسيحية الحقّة: المصدر السابق.

(٢) ميثاق النبيين: عبد الوهاب عبد السلام طويلة دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة ... مؤسسة علوم القرآن

بكل شيء: قال لها يسوع: أنا الذي أكلمه هو).

وفي ١٤: ٢٦: (وأما الفارقليط الروح القدس^(١) الذي سيرسله الرب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم...).

وفي ١٤: ٢٦ (وقلت لكم^(٢) الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون) ومن ١٤: ٣٠ جاء: (لا أتكلّم أيضًا معكم كثيرًا لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس^(٣) له قى شيء).
ومن إنجيل برنابا هذه المقتطفات^(٤):

فى الفصل الرابع والثلاثون:

(كان أمام الباب واحد كانت يده اليمنى ممتدة إلى حد لم يتمكن معه من استعمالها... ٢: فوجه يسوع قلبه لله وصلى ثم قال: (لتعلموا أن كلماتي حتى أقول: (باسم الله (ث) أمدد يا رجل يدك المريضة) ٣: (فمدها صحيحة كأن لم تصبها غلة) ص ٧٠.

وفى الفصل الرابع والخمسون:

١: (فمتى مرت هذه العلامات^(٥) تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حى (ت) إلا الله وحده الذى له الإكرام والمجد إلى الأبد) ١٧: (ارجو الله أن لا أرى هذه الهولة فى ذلك اليوم) ١٨: (أن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظرة لأنه لا يخاف إلا الله (خ) وحده) ص ٩٥.

(١) المرجع السابق: ص ٤٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٤٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٤٤٥.

(٤) إنجيل برنابا: ترجمه من الإنجليزىة د. خليل سعادة، المكتبة التوفيقية ص ٧٠.

(٥) ص ٩٤.

الفصل الثانى

العلاقة بين هذه الكتب

بعد عرضنا لسرد هذه المختارات والمقتطفات من القرآن ، والتوراة ، والإنجيل كان من المنطقى القول بأن هذه الكتب فيها من الأساليب والتعبيرات ما لا يمكن حصره من البلاغة والتوجيهات والمضامين^(١) القوية ، وهى تتفق من وجوده وتختلف من وجوده :

وتنحصر أوجه الاتفاق فى الآتى :

أولاً: أنها كتب سماوية من عند الله تعالى وصلت إلينا عن طريق أنبياء معصومين فيها أخبار الماضين وأخبار عن المغييات كما أن فيها إلزام دينى وتعبدى واجتماعى مما يعنى أنها تمثل الشرائع السماوية عمومًا .

ثانيًا: أن هذه الكتب لا ينهض أى كتاب أو تشريع أن يكون حجة أو حتى شبه حجة عليها .. مما يجعلها مقدسة وسامية .

ثالثًا: تعد تلك الكتب السماوية هادية ومرشدة وموجهة تدور حول معتقدات ومقتضيات خاصة ليهتدى بها إلى الله .

رابعًا: كما أنها هى المنشأ لتصنيف الأديان السماوية الثلاثة وهى (اليهودية ، والنصرانية والإسلام) بشرائع خالصة .

خامسًا: ليس فيها أى تعارض أو ما يشبه التعارض فكلها تهتدى إلى توحيد الله جل شأنه - وتخليص النفوس من الأرجاس .

سادسًا: وهذه الكتب نزلت بطرق خاصة وكيفية خاصة عن طريق الوحي أو الوعد

(١) بعد طرحنا للكتب المحرمة والمحرفة واستثنائها .

لرجال ذوي مكانة خاصة.

سابعًا: تعد هذه الكتب ذات قيمة عليا فكلامها نور وحفظها نور كما أنها تصل الأرض بالسماء - والعباد بالآله الواحد.

ثامنًا: وهي تدور حول جميع المحاور الإنسانية والطبيعية والمملوكية بيانا وجدلاً وتفصيلاً في صور مختلفة.

تاسعًا: لا يذهب العقل في هذه الكتب إلى مذاهب مختلفة فأولها هو البداية المطلقة لكلام الله تعالى.. وآخرها هو النهاية المطلقة لكلام الله تعالى ، ولا يستطيع مضاهاتها أو محاكاتها إطلاقاً.

عاشرًا: في دلالتها إعجاز لا يوصف قد يتفاوت ويتباين ولكنها تجمع على أن هناك قدرة وعلا لا نهاية له ولا وصف.

وتنحصر أوجه الاختلاف في الآتي:

أولاً: اختلاف نزولها باختلاف الزمان والمكان والأحكام والشرائع.

ثانيًا: نزلت التوراة أولاً بالشريعة الموسوية جملة واحدة وتلقاها الكليم موسى عليه السلام في طور سيناء قال الله تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقيل: إنها احتوت سورة النجم بكاملها نصاً.

ثالثًا: وكان الإنجيل ثانيًا ونطق به روح الله عيسى عليه السلام وحبره الخواريون وكان ذلك بأرض فلسطين (القدس).

رابعًا: ثم القرآن الكريم ونزل به الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ منجماً ومفرقاً في شبه الجزيرة العربية على مدى (٢٣) عاماً بأسلوب معجز وبيان واضح..

خامسًا: تعددت أسماء القرآن ولم تختلف أحكامه ، واختلفت أسفار التوراة وآيات الإنجيل.. ويعتبر إنجيل برنابا أقرب إلى الصواب.

سادسًا: اقتضت التوراة على خطاب بنى إسرائيل وتبشيرهم بالعالمية والأفضلية، وإخبارهم عن نبي آخر الزمان.

سابعًا: كما اقتصر الإنجيل على خطاب بني إسرائيل أيضًا وتحذيرهم من الخطايا ،
وإخبارهم عن النبي الخاتم محمد ﷺ وبه تمت رسالات السماء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣، ٤].
ولا يخفى الفرق بين نَزَلَ، وتكرار أنزل ... إلخ.

تاسعاً: القرآن لم يدخله التحريف ولا التبديل قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

عَاشِرًا: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ دَخَلَهَا التَّحْرِيفَ وَالتَّبْدِيلَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

ولقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

أحد عشر: اختلفت درجات الإعجاز بدرجات من نزل عليهم الكتاب فكان القرآن الكريم هو أعظم الكتب على أعظم الأنبياء والأمم.

اثنا عشر: عموم رسالة القرآن قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثلاثة عشر: في القرآن آيات فيها جدال لأهل الكتاب وسوق الحجج والبراهين على الوحداية لله تعالى ، وختام الرسالات.

أربعة عشر: في التوراة والإنجيل (جدال) فيه (إنقاص) من الذات العلية - حاش لله - كمصارعة يعقوب للرب ، ومحاولة الزج بعقيدة (الثلاثي) والقول بالأقانيم الثلاثة قال

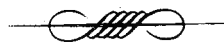
تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ اللَّهُ أَفَى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

خمس عشر: أثبت القرآن الكريم جميع الأنبياء والرسل كما اعترف بجميع الكتب السماوية وتحدث عن جميع الأمم - وهذا ليس موجوداً بهذا الوصف في الكتب السابقة .

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وهذا الاعتبار فقد كفر الذين حرفوا الكتب السابقة.



الفصل الثالث

هل هناك جامع بين هذه الكتب؟ أم لا؟

احتوت التوراة على أخطاء ذات طابع تاريخي^(١) اكتشفها عدة مفسرين من اليهود والمسيحيين ولكنهم قللوا من أهمية هذه الأخطاء حيث يرون أنه من الطبيعي أن يقدم الكاتب أمورًا تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية .

ولقد لوحظ أن كثيرًا من المصادر المختلفة التي استخدمت في تأليف النص هي أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين ، بل إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التي أضيفت استدلالياً ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى مما جعل الأب (ديفو) يقدم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًا.

وتعد الموضوعات التي عرضتها التوراة خاصة بالأنبياء: نوح وإبراهيم وإيليا ويونس وأيوب وموسى، وبملوك إسرائيل طالوت وداود وسليمان ، وعرضت كذلك بشكل نوعي لروايات وأحداث كبرى تدخلت الخوارق في مجراها، فهناك مثلاً: خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان والطوفان وخروج موسى ، وهي موضوعات لها روايات مشتركة بين القرآن والتوراة ، وهناك موضوعان هما روايات مشتركة بين القرآن والتوراة ويستحقان الدراسة وهذان الموضوعان هما: ١ - الطوفان ٢ - خروج موسى من مصر.

والأول مهم لأنه لم يترك في تاريخ الحضارات الآثار التي تضمنتها رواية التوراة على حين أن المعطيات الحديثة لا تثير أى نقد بالنسبة إلى رواية القرآن.

بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب في العهد القديم.

أما من ادعوا بغير أساس أن محمداً ﷺ هو مؤلف القرآن وأنه قد نقل كثيراً من التوراة فادعائهم باطل ؛ لأن ذلك لو كان حقاً لتساءلنا من الذي دفعه أو ما الحجة التي أقنعت بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبول بالمرة من وجهة النظر هذه.

افتراءات، والرد عليها

وقد تولى الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم الطعنى^(١) الرد على الادعاءات الكاذبة المجملة في الآتي:

١- أن محمداً ﷺ ألف القرآن من عنده وهو منعزل في غار حراء وزعم أنه أوحى إليه به من قبل السماء.

٢- أن محمداً ﷺ صادق ولكنه مخدوع ؛ لأن رسالته كاذبة؟!.

٣- أن القرآن مقتبس من التوراة وليس له مصدر سواى مستقل.. بل إن البعض تمادى في تطاوله فقال:

(ما في القرآن من جديد فليس صحيحاً.. وما فيه من صحيح فليس جديداً)؟!.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥ ﴾

[الكهف: ٥].

فكان رد فضيلته - حفظه الله - عليها:

أن هؤلاء ليس لهم حجة فيما قالوا سوى شبهة واهية ومع علمهم بضعفها بل يبطلانها

فإنهم «بنوا من حُبَّتْ قُبَّةٌ» لأنهم لا يبحثون عن الحق ليتبعوه وإنما همهم كله محاربة الإسلام والقضاء عليه ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وافترض حسن النية فيهم مستحيل لأن البغضاء بدت من كل كلمة تفوهوا بها في هذا المجال والشبهة في التوراة.

ومن أبرزها الجانب القصصى وبعضهم يضيف على التوراة باعتبارها ، عندهم مصدرًا للقرآن يضيف الإنجيل كمصدر ثانوى مساعد للتوراة في تكوين القرآن وهذا هو المسمى «بالاقتباس».



الفصل الرابع

الاقْتِباسُ (١)

وفند فضيلته هذه المزاعم بتوضيح معنى الاقتباس ، فقال : الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان وهي :

- ١- الشخص المقتبس
- ٢- الشخص المقتبس منه.
- ٣- المادة العلمية المقتبسة... وتطبيق هذا على ما نحن بصدده يسفر عن الآتي:
- أ- محمد ﷺ هو المقتبس ب- موسى ﷺ أو (التوراة) هو المقتبس منه.
- ج- المادة القصصية في القرآن (المقتبسة) ويطرح هذا السؤال:
- هل القرآن عندما اقتبس من التوراة أو الإنجيل - كما تدعون - كان خاضعاً لشروط الاقتباس المتقدم ذكرها والتي ترتب على هذا النحو:
- أولاً : نقل الفكرة بلفظها ومعناها ، أو بمعناها دون لفظها.
- ثانياً : نقل جزء من الفكرة بلفظها ومعناها ، أو بمعناها دون لفظها.
- ثالثاً : عجز المقتبس عن الإتيان بجديد لم يكن له وجود في المصدر الذي حدث الاقتباس منه بل يتحتم عليه أن يدور في فلكه دائماً.

إذا قارنا بين مواضع التشابه في القرآن وفي التوراة لاحت لنا «حقيقة ضخمة» لا يمكن عقلاً إنكارها تلك الحقيقة أن القرآن كان أطول باعاً.. وأرحب أفقاً.. وأوسع

(١) الاقتباس هنا خاص برد دعوى أهل الكتاب بمصدرية التوراة والإنجيل للقرآن ، وله باب آخر خاص يتضمن الشعر أو الشر بعض القرآن في كتاب الإتقان وكتاب البرهان.

مساحة مما عليه التوراة والإنجيل وملحقاتها التي يدرجها القوم في مفهوم «الكتاب المقدس» ذلك أن القرآن الكريم:

- ١- عرض الوقائع عرضًا يختلف عن عروض التوراة لها.
- ٢- أضاف جديدًا لم تعرفه التوراة ولا أسفار الكتاب المقدس جميعها.
- ٣- صحح أخطاء فاحشة حفلت بها أسفار التوراة.
- ٤- انفرد القرآن بحقائق خاصة ليس لها في الوجود مصدر سواه.
- ٥- في حالة اختلاف القرآن مع التوراة يكون الصواب هو ما في القرآن والخطأ هو ما في التوراة بشهادة العقل والنقل والعلم والواقع!!.

صور التشابه بين: القرآن - والتوراة - والإنجيل.

وقد استند الدكتور المطعنى إلى ثلاث صور وناقشها وقام بمقارنتها وهى كالتالى:

الصورة الأولى: مراودة زوجة عزيز مصر ليوسف وسجنه عليه السلام.

الصورة الثانية: واقعة لبنى آدم: قابيل وهايل.

الصورة الثالثة: بشارة زكريا بيهيى عليه السلام.

مراودة زوجة عزيز مصر ليوسف وسجنه :

أولاً: نص حديث التوراة :

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت: اضطجع معى.. فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت.. وكل ما له قد دفعه إلى يدى.. ليس هو فى هذا البيت أعظم منى.. ولم يمسك عنى شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله... وكان إذا كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمح لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكت بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه في يدها وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة:

(انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا.. دخل إلى ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم.. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج.. فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده على بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إلى العبد العبراني الذى جئت به إلينا ليداعبنى.. وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب إلى خارج.. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك أن غضبه حى فأخذ يوسف ووضعه فى بيت السجن المكان الذى كان أسرى محبوسين فيه).. سفر التكوين الاصحاح ٣٩ - من ٧: ١٩.

ثانيًا: نص حديث القرآن :

قال الله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهَا وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمَا بُرْهَنَ رَبِّهٗ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَمَا قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ

مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٣﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فاستَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُفَّنَ لِيَ كُونًا مِّنَ الصَّغِيرِ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٧﴾ [يوسف ٢٣: ٣٥].

المقارنة:

بعد عرض هذين النصين من التوراة والقرآن يمكننا المقارنة بينهما على هذا النحو:

التوراة: المراودة حدثت مراراً.. ونصح يوسف لامرأة العزيز كان قبل المرة الأخيرة.

القرآن: المراودة حدثت بعد مرة واحدة وقد اقترنت بعزم امرأة العزيز على يوسف لينفذ رغبتها.

التوراة: تخلو التوراة من الإشارة إلى غلق الأبواب وتقول: إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب.. وانتظرت هي قدوم زوجها العزيز وقصت عليه القصص بعد أن أعلمت بها أهل بيتها.

القرآن: يشير إلى تغليق الأبواب وأن يوسف هم بالخروج فقدت قميصه من دبر وحين وصلا إلى الباب وهي تطارد يوسف فوجئاً بالعزيز يدخل عليها فبادرت المرأة في الحال بشكوى يوسف ﷺ على زوجها واقترحت على زوجها سجن يوسف أو تعذيبه.

القرآن فأين نجد هذا الجديد في التوراة؟! وهذه كافية في إبطال الدعوى القائلة باقتباس القرآن من التوراة ثم زعم أنه وحى نزل عليه من الله ﷺ كما أن القرآن قام بتصحيح أخطاء وردت في حديث التوراة عن هذه الواقعة من قصة يوسف ﷺ ومن تلك الأخطاء:

أن يوسف ﷺ لم يترك ثوبه بيد المرأة في بيت العزيز بل كان مرتدياً ثوبه وهو يحاول الإفلات من الوقوع في الفاحشة التي كانت المرأة تطارده من أجلها - وهذا ما أثبتته القرآن الكريم - كل ما في الأمر أن المرأة قدّت قميصه من الخلف وهذا هو الأليق بسمعة رسول كريم - ورسّل الله جميعاً منزّهون عن الخطايا مبرءون من الدنيا - قد يزعم الخصم أن الذي ذكره القرآن هو الخطأ.. وأن الذي ورد عن التوراة هو الصواب..؟ ولكن يجاب عن ذلك: بأننا لم ننحيز للقرآن لأنه كتاب المسلمين؛ ولكن دعانا إلى هذا داعيان:

الأول: لم يرد في القرآن قط خلاف ما هو الحق وعلى كثرة ما طعن فيه الطاعنون - قديماً وحديثاً - لم يعثروا فيه على ما يخالف الحق والصواب.

الثاني: يقرر القرآن أن يوسف ﷺ لم يترك ثوبه بل فرّ هارباً من كيد المرأة فأمسكته من الخلف ومزّقته بينما تقول التوراة إن يوسف ترك ثوبه كله بيد المرأة وذهب فإذا سلمنا برواية التوراة فيوسف ليس عفيفاً - حاش لله - وفي هذه الحالة تكون امرأة العزيز على صواب في إلقاء التهمة عليه.. أما رواية القرآن ففيها إدانة قوية لامرأة العزيز وبراءة قوية ليوسف ﷺ.

أما ادعاؤهم بأن القرآن زوّر الواقع حيث أثبت شهادة شاهد للواقعة من أهل المرأة بينما كان يوسف وامرأة العزيز وحدهما في البيت فأين كان يختبئ الشاهد.

وأجيب عن ذلك بأنه: لا يلزم من إثبات الشهادة في القرآن وجود أحد معها في البيت فهذا أمر مسكوت عنه في القرآن لا يشته ولا ينفيه ومع هذا فالشهادة مقبولة لأنها قد تكون إدلاء رجل من أهلها حضر مع العزيز فأدلى برأيه وأشار على العزيز بتحكيم هذه (الإمارة) بعد اقتناعه بإدانة المرأة.

واقعة ابنتي آدم : قابيل وهابيل (

أولاً: نص حديث التوراة:

«حدث بعد أيام أن قدم قابيل من أثمار الأرض» قرباناً للرب وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمائها.. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قاين وقربانه لم ينظر..! فاعتاظ قاين جداً وسقط وجهه فقال الرب لقاين: لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أَمْلاً رفع.. إن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها.. وكلم قاين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قاين قام على هابيل أخيه وقتله.. فقال الرب: لقاين أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم.. أحارس أنا لأخي؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض فالآن ملعون أنت التي فتحت فاهها.. لتقبل دم أخيك من يدك - متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها.. تائهاً وهارباً تكون في الأرض.. فقال قاين للرب: ذنبي أعظم من أن يحتمل أنك طردتني اليوم على وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً من الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني.. قال له الرب: لذلك كل من قتل قاين فسبقه أضعاف ينتقم منه.. وجعل الرب لقاين لامة لكي لا يقتله كل من وجدته.. فخرج قاين من لدن الرب وسكن في أرض تود رقى عدن» سفر التكوين الإصحاح الرابع (٣: ١٦).

ثانياً: نص حديث القرآن:

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّنِي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ

أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ
يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي
سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي
إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا
قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي
الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ
خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ [المائدة ٢٧: ٣٣].

المقارنة:

ونعرض للمقارنة هنا أيضًا بعد عرض النصين الماضيين فنقول:

التوراة: تسمى أحد ابني آدم قايين (بالنون) وهو القاتل وتسمى الآخر هابيل.. وهو
المقتول.

القرآن: لم يطلق أسماء على ابني آدم واكتفى بأنها ابنان لآدم عليه السلام.

التوراة: تحدد نوعية ما قدمه الابنان من قربانين.

القرآن: لم يحدد نوعي القربان بل اكتفى بذكرهما إجمالاً.

التوراة: تروى حوارًا مباشرًا بين الابن القاتل (قايين) وبين الرب.. وأنه حدث مرتين:

قبل القتل وبعده.

القرآن: يخلو من ذكر هذا الحوار بين الابن القاتل والرب قبل القتل وبعده لا مباشرًا ولا غير مباشر.

التوراة: تقول إن الرب طرد قايين ولعنه.

القرآن: يخبر أن القاتل أصبح من الخاسرين بعد قتل أخيه.

التوراة: تصرح بأن الرب عفا عن قايين القاتل وحقن دمه وغلظ عقوبة من يعتدى عليه ووضع عليه علامة تحذر من قتله.

القرآن: يخلو من هذا العفو والتغليظ في عقوبة من يعتدى على القاتل (قايين) أو من وضع علامة عليه تحذر من قتله.

التوراة: الحوار الذي روته احتوى على عدة أفكار ثانوية منها قول قايين للرب: أحارس أنا لأخى؟

القرآن: لم يرد شيء من أفكار الحوار الذي روته التوراة في حديث القرآن الكريم. فضلاً عن عبارة - أحارس أنا لأخى؟ مع ما فيها من سوء أدب مع الله..

التوراة: خلعت من الحوار الذي دار بين ابني آدم.. وحولته إلى حوار بين الرب وبين ابن آدم القاتل.

القرآن: يروي حوارًا دار بين ابني آدم صور فيه الواقعة تصويرًا مقبولاً.

التوراة: تحدد التوراة المكان الذي آوى إليه قايين بعد جريمته.

القرآن: يغفل القرآن هذا الجانب تمامًا لأنه لا يضيف شيئًا على جوهر الواقعة.

التوراة: تجعل ندم قايين نتيجة لللعن الرب إياه وطرده من وجه الأرض.

القرآن: يجعل ندم ابن آدم القاتل نتيجة لإحساسه بقبح جريمته التي اقترفها.. وهى

قتل أخيه.

التوراة: أوردت الواقعة مجرد سرد لحادثة وقعت ولم توظفها تربويًا ولا تشريعيًا وروايتها عبارات غامضة وأغرب ما فيها محاماة الله عن قايين وصون دمه.. وتغليظ عقوبته من يعتدى عليه..

القرآن: يوظف القرآن الواقعة توظيفًا تربويًا وتشريعيًا ويهول من جريمة قتل النسيب البريئة ويجعلها بمثابة قتل للناس جميعًا، كما يعظم من فضل حماية النفس من الاعتداء عليها ويجعلها بمثابة إحياء الناس صوتًا للدماء.

نتيجة المقارنة:

انفرد القرآن بذكر حقائق لم يرد لها ذكر في التوراة كالحوار الذي دار بين الأخوين وجاء في نهايته قتل أحدهما للآخر وهذا الحوار ليس له وجود في التوراة مما يدفع ويبطل مصدرية التوراة للقرآن تعرض القرآن لقصة (الغراب) الذي بعثه الله معلمًا ومرشدًا للمقاتل ليؤاري سواة أخيه.. بينما لم يرد للغراب ذكر في التوراة أصلاً.

ومما نستخلصه من أحكام وردت في هذه الآيات في القرآن الكريم:

١- تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

٢- الحث والترغيب في رعاية الحرمات.

٣- سن العقوبات لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادًا.

٤- حدد نوعية العقوبات مثل: التقتيل والتصليب وتقطيع الأيدي من خلاف والنفي

من الأرض (التغريب) أو الحبس.

بشارة زكريا بيحيى

أولاً: نص حديث الانجيل :

«ولم يكن لهما ولد - أى لزكريا وامرأته» - إذ كانت الياصابات - يعنى امرأة زكريا عاقراً وكانا كلاهما متقدمين فى أيامهما فبينما هو يكهن فى نوبة فرقة أمام الله - حسب عادة الكهنوت - أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويختر وكان جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور وظهر له ملاك الرب واقفاً على يمين مذبح البخور فلما رأى زكريا اضطرب ووقع عليه خوف فقال له الملاك: لا تخف يا زكريا لأن طليبتك قد سمعت.. وامراتك الياصابات ستلد لك ابناً وتسميه (يوحنا) ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه سيكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ بروح القدس ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم.. يرد قلوب الآباء على الأبناء.. والعصاة إلى فكر الأبرار لكى يهتدى للرب شعباً مستعداً فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا؟ لأنى أنا شيخ وامراتى متقدمة من أيامها فأجاب الملاك وقال له: أنا جبريل الواقف أمام الرب وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا.. وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم على اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته.. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه فى الهيكل فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل فكان يومئذ إليهم وبقي صامتاً» إنجيل لوقا: الإصحاح الأول من (١: ٢٢).

ثانياً: نص حديث القرآن :

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٢٨﴾ فَادَّعَاهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِمُصَدِّقٍ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ
الْصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَأْتِي
عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ
ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ٣٨: ٤١].

وقال أيضا: ﴿كَمِيعَصَ ١﴾ ذَكَرْتُ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ
وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ ءَالٍ يَعْزُوبُ ٦ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ
وَمَا كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ٩ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ١٠ قَالَ
رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١١
فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١٢
يَبِخِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٣ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً
وَكَانَ تَقِيًّا ١٤ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٥ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٦ [مريم: ١: ١٥].

المقارنة :

بعد عرض هذين النصين نورد تلك المقارنة فيما يأتي:

الإنجيل: يجعل الصمت الذي حل بزكريا عليه السلام عقوبة من ملاك الرب لأنه لم يصدق كلامه.

القرآن: صحح هذا الخطأ وجعل الصمت استجابة من الله لدعاء زكريا عليه السلام بقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران: ٤١].

قوله في سورة مريم: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠].

الإنجيل: حدد مدة الصمت من خروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن يولد يحيى.. وهذا خطأ بين صححه القرآن وجعل المدة ثلاثة أيام بلياليها.

القرآن: قدّم على قصة البشارة بيحيى قصة نذر امرأة آل عمران ما في بطنها محرراً لله تعالى أنها ولدت أنثى وكأنها تعتذر بعد الوفاء بنذرهما لأن الإناث لا يصلحن للنذر.

الإنجيل: يجعل البشارة على لسان ملاك واحد وجعل القرآن على لسان الملائكة.

القرآن: يثبت كفالة زكريا عليه السلام للمولودة ووجوده رزقها عندها دون أن يعرف مصدره. كما يربط بين دعاء زكريا ربه أن يهب له ذرية طيبة.. وبين مولودة آل عمران.. والدعاء ذكر في القرآن.

الإنجيل: يجعل التسمية بيحيى أو يوحنا من اختيار زكريا وأن الملاك قد نبأ.. أما القرآن فيعزو التسمية إلى الله تعالى.

القرآن: جعل دعاء زكريا لربه أن يهبه يحيى ليرثه ويرث آل يعقوب.

الإنجيل: يقول إن زكريا حين جاءه ملاك الرب وقع عليه خوف واضطراب.. مع أن ذلك لو حدث لأثبتته القرآن الكريم.

القرآن: فيه أمر من زكريا عليه السلام لقومه بتسبيح الله بعد خروجه من المحراب كما أن فيه ثناء على يحيى بأنه بار بوالديه وبأنه سلام من الله وفيه إخبار بأن الله أتاه الحكم صبياً وأمره بأخذ الكتاب.

نتيجة المقارنة:

انفرد القرآن بحقائق ودقائق لا وجود لها في الإنجيل أصلاً فضلاً عن كثير من الأخطاء التي صححها القرآن في التوراة..

اتضح من عدم إثبات الخوف لزكريا عليه السلام في القرآن عند تلقيه البشارة أن ما ثبت في التوراة من ذلك محض افتراء ولا وجود له وأن دعاء زكريا عليه السلام لربه لم يكن بذنب كما أثبتته التوراة.

وَإِذْ:

فكل ما ورد من نصوص مختلفة في القرآن والتوراة والإنجيل يجعل من القرآن المصدر الوحيد والأمين على واقع الأحداث وسردها من جميع الوجوه. وما ذكر غيوض من فيض واختيارات معينة أريد بها البيان وبأن القرآن لا يمكن بأن «يستورد» من التوراة أو الإنجيل شيئاً - أى شيء - ويصدق هذا قول الله عز وجل: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّهِمْ يُخَشَرُونَ ﴿٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨].

والسبب في ذلك واضح فالقرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يمكن تحريفه أو تبديله مهما جند أهل الباطل لذلك ومهما حشدوا لذلك من طاقات، ومن

عجيب الحكمة الإلهية أن يبرز من بين أعداء الإسلام بعض المنصفين فيكتبون بأقلامهم كلمات منصفة عندما أذهلهم وأفحهم ما وجدوه في القرآن والإسلام.

أقلام منصفة :

جاء في دائرة معارف (لاروس) ما يلي:

«العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل.. بل ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الإسرائيلية ولكنها تحتوى فقط على إشارات ورموز وحكايات وأن هجرة مصر إن هي إلا قصة وهمية أو حادثة رمزية ليس لها أى أصل حقيقى».

«السامرة لهم توراة تخالف توراة اليهود وليس يعرف زمن ظهور هذه التوراة السامرية.. وقد اجتهد العلماء في تحديد زمانها فلم يوفقوا له والذي يعرف أنه كان إلى القرن السادس عشر مجهولاً وفي السابع عشر جلب العالم (إيسريوس) نسخاً منه من الشرق وفي الوقت نفسه جلب المسيو (هارلى روسانس) سفير فرنسا لدى تركيا نسخة منه مع كتب أخرى»^(١).

وعلق الأستاذ / أنور فريد وجدى على ذلك بقوله :

(لا نقول بداية إن القرآن قد سلم من التحريف فقط بل نقول أيضاً أنه لا يعقل أن يكون قد حُرّف أصلاً، وإذا ساغ لنا أن نشك في سلامة القرآن من التحريف وقد أتاننا بالتواتر العملي جيلاً بعد جيل وحفظ في عهد نزوله في الصدور والسطور وجمع في المصاحف في حياة حافلة بالمشتغلين بتلاوته تعبدًا أثناء الليل وأطراف النهار فأى كتاب بعده يحتمل أن يكون قد سلم من التحريف وخصوصاً من الكتب الدينية وكلها مقطوع

السند غير متواتر النقل وموجود من أصولها نسخ فيها من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل ما لا وجه للتوفيق بينها وليس من بينها نسخة يمكن الاعتماد عليها في أنها الأصل وما بعدها محرّف عنها ولم يحفظها أحد عن ظهر قلب في أثناء نزولها إلى غير ذلك من مرجّحات التحريف بل موجباته... انتهى...).

قال الفيلسوف الألماني (جيزلر^(١)) :

«الدين مغلّد خلود الإحساس الذي يتتجه ولكن علوم الدين هي مثل سائر العلوم الأخرى يجب أن تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقليّ وذلك مثل العلاقة الموجودة دائماً بين الحقوق وبين علم التشريع.. فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهدّب على الدوام...».

وقال الفيلسوف الفرنسي (أرنست رينان) في كتابه : تاريخ الأديان :

من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نخبه وكل شيء نعبه من ملاذ الحياة ونعيمها ومن الممكن أن تبطل حرّية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحي الدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية.

وقال الفيلسوف (أجوست سباتييه^(٢)) في كتاب : فلسفة الأديان :

(لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب وهو :

أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى.. يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه.. ولكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها.. وإن ضرورة التدين التى

(١) دائرة معارف القرن العشرين (٧ / ٧٠٩) .

(٢) نفس المصدر ص ٧٠٩.

أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية.. فهي ليست أقل تشبهاً منى بأهداب الدين.. فالدين باق وغير قابل للزوال وهو - فضلاً - عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمان نرى ذلك ينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة).

وهكذا بشرنا الرسول ﷺ :

عن الفلتان^(١) بن عاصم رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في المجلس فشخص بصره إلى رجل يمشى - فقال: «أبا فلان» - قال: لبيك يا رسول الله، ولا ينازعه الكلام إلا قال: يا رسول الله - قال: «أتشهد أني رسول الله؟» قال: لا - قال: «أتقرأ التوراة؟» قال: نعم - قال: «والإنجيل؟» قال: نعم - قال: «والقرآن» - قال: والذي نفسى بيده لو أشاء لقرأته، ثم ناشده: «هل تجدنى في التوراة والإنجيل؟» قال: نجد مثلك ومثل مخرجك ومثل هيئتك فكنا نرجو أن يكون فينا فلما خرجت خفنا أن تكون أنت هو، فنظرنا فإذا أنت لست هو، قال: «ولم ذلك؟» قال: معه من أمته سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ولا عذاب وإنما معك نفر يسير - فقال: «والذى نفسى بيده لأنا هو - وإني لأمتى.. وإني لأكثر من سبعين ألفاً وسبعين ألفاً!!» رواه البزار.. قال في مجمع الزوائد: ورجالة ثقات.



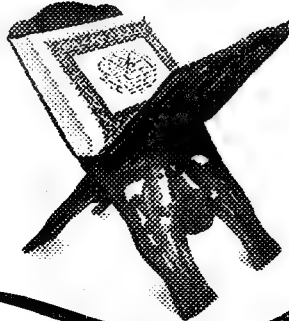
(١) ميثاق النبيين عبد الوهاب عبد السلام طويلة: دار القبلة جدة مؤسسة علوم القرآن بيروت - ص ١٦٥ وما بعدها.



الحب الطاهر من



حفاظه واجالين



الفصل الأول

ذكر ما ورد عن الرسول ﷺ في النهي عن الجدل

فإن^(١) هذه الأمة لم يؤتوا في دينها من شيء ما أوتوا فيه من قبل التكلف والجدال ، وهما داء الأمم السالفة ، ولم يأتيا بخبر قط وكتاب الله أنهى شيء عنها ، والرسول المصطفى ﷺ أكره الخلق لها وأن الله لم يقبض إليه رسوله حتى خاز له وأغنى به ، وأكمل له الدين ، وأتم به النعمة ، فترك الأمة على واضحة ليلا كنهارها ، وما من طائر يقلب جناحيه إلا وعندها فيه من تنبيه وعلم فكان من أواخر ما أنزل على نبيه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] .

قال شيخ الإسلام إسماعيل الهروي : سمعت أحمد بن المحسن بن محمد البزاز الفقيه الحنبلي الرازي يقول : كل ما حدث بعد نزول هذه الآية فهو فضل وزيادة وبدعة ، فضل أي (فضول مذموم) .

ثم أخرج حديثاً عن عبد الله بن عمر^(٢) قال : قال رسول الله ﷺ : «العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة» أخرجه أبو داود^(٣) في سننه قال

(١) كتاب صَوْنُ المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للإمام جلال الدين السيوطي - الجزء الأول تحقيق الدكتور على سامي النشار والأستاذة سعاد على عبد الرازق ، مجمع البحوث الإسلامية سلسلة إحياء التراث العربي دار النصر للطباعة (بتصرف) .

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب من أعلام الصحابة وقد عرف بتتبع الأثر مات سنة ٦٣ هـ .

(٣) أحد رجال السنن المشهورين .

عبد الله بن عروة^(١): "الفريضة العادلة ما اتفق عليه المسلمون وسمعت علي بن بشرى الدمشقي^(٢) وغيره يقولون: سمعنا عبد الله بن عدى الصابوني يقول: الكتاب والسنة والإجماع أو الزنار والغل والجزية.

ثم أخرج في حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أخرجه الشيخان قال أبو مروان العثماني^(٣) يعنى البدع.

وقال أبو عبيد^(٤): «جمع النبي ﷺ جميع أمر الآخرة في كلمة «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(٥) وجميع أمر الدنيا في كلمة «إنما الأعمال بالنيات» يدخلان في كل باب.

إن الأمم السالفة إنما استقاموا على الطريقة ما اعتصموا بالتسليم والإتباع وأنهم لما تكلفوا وخاصموا اختلفوا وهلكوا، وأخرج من حديث أبي هريرة^(٦) مرفوعاً: «وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»^(٧).

وأخرج عن طريق أبي عمران الجوني^(٨) عن أبي فراس، رجل من أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا، إياي والبدع والذي نفسى بيده، ما ابتدع رجل في الإسلام شيئاً،

(١) عبد الله بن عروة بن العوام أبو بكر. بقى إلى أواخر دولة بني أمية - وكان مولده سنة ٤٥ هـ.

(٢) علي بن بشرى: الدمشقي العطاري توفي سنة ٤١ هـ.

(٣) أبو مروان العثماني: محمد بن عثمان بن خالد الأموي مات سنة ١٤١ هـ.

(٤) أبو عبيد. مولى النبي ﷺ.

(٥) حديث متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (٤٥٨٩).

(٦) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي الصحابي. وقيل عبد الله بن عائذ وكان كثير الرواية مات سنة ٥٧، أو ٥٨، أو ٥٩ هـ.

(٧) حديث حسن صحيح: أخرجه مسلم رقم (٣٣٢١)، والترمذي، وأحمد، والنسائي، انظر السلسلة الصحيحة حديث رقم (٨٥٠).

(٨) هو عبد الملك بن حبيب البصري الأزدي أو الكندي أبو عمران الجوني مات سنة ١٢٨ هـ وقيل بعدها.

ليس في كتاب الله منزلاً، إلا لما خلف خير له مما ابتدع إن أملتكت الأعمال خواتمها، ومن شق شق عليه، فدعوني ما ودعتكم إنما هلكت الأمم باختلافهم على أنبيائهم.

وأخرج عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(١) ثم تلا رسول الله ﷺ:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

وأخرج من طريق عمرو بن شعيب^(٢) عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون في القدر، فخرج مغضباً، حتى وقف عليهم، فقال يا قوم: بهذا أضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه بعض، وإن القرآن لم ينزل لنضرب بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به.

وأخرج عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه، ثم قال: ((أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تنازعوا))^(٣).

(١) حديث حسن: رواه الترمذي (٣١٧٦)، وابن ماجه، وأحمد، والطبراني في الكبير، انظر صحيح وضعيف الترغيب والترهيب رقم (١٤١)، وصحيح الجامع رقم (٥٦٣٣).

(٢) عمرو بن شعيب: بن محمد عبد الله بن عمرو بن العباسي القرشي البهي - أبو إبراهيم ويقال له أبو عبد الله -: المنى - ويقال الطائفي - توفي سنة ٣٥ هـ.

(٣) حديث حسن: رواه الترمذي (٢١٣٣)، وكنز العمال (١ / ١٩١)، انظر صحيح وضعيف سنن الترمذي للألباني رقم (٢١٣٣).

وأخرج عن أبي الدرداء ^(١) وأبى أمانة وأنس بن مالك ووائل بن الأسقع قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا وقال: ((يا أمة محمد لا تميجوا على أنفسكم وضع النهار، ثم قال: أبهذا أمرتكم أوليس عن هذا نهيتكم: إنما هلك من كان قبلكم بهذا)) ^(٢).

ثم قال: ((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء: قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، ولا يمارون في دين الله)) ^(٣).

وأخرج عن مرة الهمداني أن أبا قررة الكندي أتى ابن مسعود بكتاب فقال: إني قرأت هذا بالشام فأعجبني، فإذا هو كتاب من كتب أهل الكتاب.

فقال ابن مسعود: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله، فدعا بطست وماء فوضعه فيه وأماته بيده حتى رأيت سواد المداد.

وأخرج عن زيد بن ربيع قال: بعث الله نوحاً وشرع له الدين، فكان الناس في شريعة نوح، فما أطفأها إلا الزندقة.

ثم بعث الله عيسى، وشرع له الدين فما أطفأها إلا الزندقة.

قال زيد بن ربيع: ولا يخاف على هذا الدين إلا الزندقة. وأخرج عن منصور بن المعتمر ^(٤) قال: ما هلك (أهل) دين قط حتى يخلف فيهم الزنادقة.

(١) أبو الدرداء - عويمر بن مالك بن قيس بن أمية صحابي من جلة الصحابة عاش في الشام وتوفي سنة ٣٥ هـ.

(٢) انظر: كنز العمال رقم (٨٣١٩).

(٣) حديث صحيح: رواه الترمذي واللفظ له رقم (٢٥٥٣)، وابن ماجه رقم (٣٩٧٨)، والطبراني، والبيهقي في شعب الإيمان، انظر السلسلة رقم (١٢٧٣).

(٤) منصور بن المعتمر بن عبد الله أبو عتاب السامي الكوفي من كبار التابعين توفي سنة ١٣٤ هـ.

وأخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين حدث فيهم المولدون أبناء سبائا الأمم، فوضعوا الرأى فضلوا»^(١).

وأخرج عن عروة: أن بنى إسرائيل لم يزل أمرهم معتمداً حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبائا الأمم فأخذوهم بالرأى فهلكوا.

وقال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن محمد الفرائش ثنا شافع بن محمد ثنا أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ثنا المزني ثنا الشافعي سمعت عبد الله بن المؤمل المخزومي يحدث عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لم يزل أمر بنى إسرائيل مستقيماً، حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبائا الأمم، فقالوا فيهم بالرأى فضلوا وأضلوا.

وأخرج عن إبراهيم النخعي في قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، قال: أغرى بعضهم بعضاً في الجدل في الدين، أخرجه سعيد بن منصور في سننه.

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله.

وأخرج عن ابن سيرين قال: كانوا يروون أن بنى إسرائيل إنما ضلوا بكتب قرءوها، وأخرج عن ابن عمرو قال: لتركن سنة من كان قبلكم. حلوها ومرها.

كان رسول الله ﷺ يخاف على هذه الأمة من الأئمة المضلين والمجادلين في الدين، وأخرج فيه عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يهلكون بعد البينات بالمحدثات المخالفات، وتزيين الضلالات المضلات، وبالأهواء المغريات وتحريف المحكمات».

(١) حديث ضعيف: رواه ابن ماجه رقم (٥٥)، وابن شيبه في مصنفه رقم (١٣٨)، الدار قطنى

رقم (٤٣٢٦)، انظر السلسلة الضعيفة رقم (٤٣٣٦)، وضعيف الجامع (٤٧٦٠).

وأخرج عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أشد ما أتخوف على أمتي ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم فاخشوها على أنفسكم» (١).

وأخرج عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني أخاف عليكم ثلاثا وهي كائنة: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تعم عليكم» (٢٢).

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: «يهدم الإسلام ثلاث: زلة العالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون». وأخرج عن عثمان بن أبي شيبة قال: فُسِّقُ أصحاب الحديث خير من عباد غيرهم.

وأخرج فيه عن أبي ذر^(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم اليوم في زمان كثير علمائِهِ، قليل خطبائِهِ، ويأتي من بعد زمان كثير خطبائِهِ قليل علمائِهِ»^(٤).

وأخرج عن مجاهد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يبعث نبيا إلا مبلغا وإن تحقيق الكلام من الشيطان» أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم.

وأخرج عن معاوية قال: لعن رسول الله ﷺ الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر.

وأخرج عن فاطمة الزهراء قالت: قال رسول الله ﷺ: «شرار أمتي الذين يتشددون في الكلام» .

وأخرج عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في هذه الأمة أقوام يتخللون الكلام كما تتخلل الباقورة الخلا بألسنتها».

(١) انظر المقاصد الحسنة للسخاوى (١ / ٥٨).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٨٧١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٨٢٩).

(۳) أبو ذر الغفاري - جندب بن جنادة بن عبيد الغفاري صحابي توفي سنة ۳۲ هـ.

(٤) انظر السلسلة الصحيحة حديث رقم (٢٥١٠) .

وأخرج عن ألى هريرة رفعه قال: «ألا أخبركم بشرار هذه الأمة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»^(١).

وأخرج عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون غريب الكلام وغريب الحديث. وأخرج عن الأوزاعي^(٢) قال: عليك بأثار السلف وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول.

قال شيخ الإسلام إسماعيل المروى في ذم الجدال والتغليظ فيه وذكر شؤمه وأخرج فيه حديث عائشة مرفوعاً: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٣) روته أم المؤمنين عائشة في صحيح مسلم، وحديث علي أن النبي ﷺ طرده وفاطمة ليلاً فقال: ألا تصليان؟ قال فقلنا: يا رسول الله إنما أنفشنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فولى - وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وحديث أنس وكعب وابن عمر وجابر أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب العلم ليأهى به العلماء أو يمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»^(٤).

وأخرج عن ابن مسعود قال: «لا تعلموا العلم لثلاثة: لتماروا به العلماء، أو تجادلوا به السفهاء، أو تصرفوا به وجوه الناس إليكم»^(٥).

(١) البيهقي في السنن الكبرى (٢١٣٢١)، وفي شعب الإيمان (٤٦١٧)، كنز العمال (٧٨٨٩).

(٢) الأوزاعي: عبد الرحمن عمرو الأوزاعي أبو عمرو الفقيه وصاحب المذهب المشهور مات سنة ١٧٥ هـ.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري رقم (٢٣٢٥)، ومسلم (٦٩٥١)، والترمذي والنسائي، وأحمد، والبيهقي، وابن حبان.

(٤) حديث حسن: رواه الترمذي (٢٦٥٤)، المشكاة (٢٢٣ - ٢٢٥)، التعليق الرغيب (١ / ٦٨).

(٥) حديث حسن: كنز العمال رقم (٢٩٠٥٦)، والطبراني في الكبير (١٦٤٥٤٥)، والدرامي (٣٨٢)،

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٠٩)، وصحيح الجامع: (٦٣٨٢).

ثم قال «باب» ذم اتباع متشابه القرآن والجدال به .. وأخرج فيه عن عائشة قالت: قرأ

رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧].

فقال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه. فأولئك سمى الله، فاحذروهم»^(١).

وأخرج عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧]

قال: هم أصحاب الخصومات والمرء في دين الله.

وأخرج عن أبي قال: ما استبان لك فاعمل به وانتفع به، وما شبه عليك فآمن به وكله

إلى عالمه.

وأخرج عن عثمان حاضر قال: سألت ابن عباس عن شيء فقال عليك بالاستقامة

واتباع الأثر وإياك والبدع.

وأخرج من طريق عطاء عن عباس قال: لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإن ذلك

يوقع الشك في قلوبكم، قلت هذه العلة التي علل بها ابن عباس منع النظر في المتشابه بها

علل النووى في الشرح المذهب منع النظر في علم الكلام، وهو أنه يثير الشكوك وها قد

سبقه إلى ذلك. هذا المؤلف.

وأخرج عن جبير بن نفير عن رسول الله ﷺ قال: «لا تجادلوا بالقرآن، ولا تكذبوا

كتاب الله بعضه ببعض، فوا الله إن المؤمن ليجادل به فيغلب»^(٢).

وأخرج عن إياس بن عامر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (إنك إن بقيت فسترى

القرآن على ثلاثة أصناف: صنف لله، وصنف للدنيا، وصنف للجدال).

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٦٩٤٦)، والترمذي (٢٩٩٤)، وابن حبان (٧٣).

(٢) حديث صحيح: رواه صاحب مسند الشاميين للطبراني رقم (٩١٦)، انظر السلسلة الصحيحة حديث

وأخرج عن حميد الأعرج قال: سمع أنس بن مالك ابنه عبد الله يخاصم الأشتر فقال: لا تخاصم بالقرآن وخاصم بالسنة.

وأخرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إنه سيأتي قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنة فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله).

وأخرج عن مسروق قال: ما أجد من أصحاب الأهواء إلا وفي القرآن ما يرد عليهم ولكننا لا نهتدي له.

ثم قال وأخرج عن أبي قلابة قال: إذا حدث الرجل بالسنة فقال: دع هذا وهات كتاب الله. فاعلم أنه ضال، وأخرج عن قتادة في قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يُقَضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، قال: يبين لك بيانه.

وأخرج عن حسان بن عطية قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالسنة، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن، وأخرج عن إسماعيل بن عبيد الله قال: ينبغي لنا أن نتحفظ ما جاء عن رسول الله ﷺ فإنه بمنزلة القرآن.

وأخرج عن مجاهد: في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، قال: إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وأخرج عن ابن عيينة قال: أدب الله رسوله، حتى إذا عقل عنه فوض إليه الأمر فقال:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وأخرج عن المعتمر بن سليمان قال: سمعت أبي يقول: أحاديث النبي ﷺ عندنا كالتنزيل، وقال: ثنا عبد الواحد بن أحمد ثنا محمد بن عبد الله الحافظ قال: سمعت أحمد بن إسحاق بن أيوب الفقيه الصيفي يناظر رجلا فقال: ثنا فلان قال له الرجل: دعنا من حدثنا

(١) جابر بن عبد الله : بن عمرو بن حرام صحابي - ابن صحابي - غزات مع عشرة غزوة ومات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن أربع وتسعين.

إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

وأخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله ثم تعمل بعد ذلك برهة بسنة رسول الله، ثم تعمل بعد ذلك بالرأى، فإذا عملوا الرأى فقد ضلوا»^(١).

وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال بالرأى فقد اتهمنى بالنبوة» لعله أراد - أنه شكك في النبوة - وأخرج عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم في الدين برأيه فقد اتهمه» وأخرج عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في ديننا برأيه فاقتلوه»^(٢).

وأخرج عن سعيد بن المسيب^(٣) قال: قام عمر بن الخطاب في الناس فقال: أيها الناس ألا أن أصحاب الرأى أعداء السنة أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلت منهم أن يعوها فعاندوا السنن برأيهم فضلوا وأضلوا كثيرًا، والذي نفس عمر بيده ما قبض الله نبيه، ولا رفع الوحي عنهم، حتى أغناهم عن الرأى، ولو كان الدين يؤخذ بالرأى، لكان أسفل الخف أحق بالمسح من ظاهره فإياكم وإياهم ثم إياكم وإياهم.

وأخرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لأن أسمع من ناحية المسجد بنار تشتعل

(١) حديث ضعيف: انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة للألباني (٤١٨/٧)، وصحيح وضعيف الجامع رقم (٢٤٥٧).

(٢) انظر: أسنى المطالب لمحمد بن درويش الخوت (٢٧٩ / ١)، وجملة من الأحاديث الضعيفة لشمس الدين محمد بن عبد الهادي الحنبلي (٩ / ١)، وكشف لطفاء (٢ / ٢٧٠).

(٣) سعيد بن المسيب حزن بن أبي وهب عمرو بن عابد بن عمران بن عزوم - القرشي. وكان أحد الفقهاء السبعة من أعلام التابعين توفي عام ٩٤ هـ.

أحب إلى من أن أسمع فيه ببدعة ليس لها معين .

وأخرج عن سهل بن حنيف ^(١) قال: يا أيها الناس اهتموا رأيكم فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله ﷺ أمره لرددناه ^(٢).

وأخرج عن عمر بن الخطاب قال: يا أيها الناس اهتموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأى اجتهداً ، والله ما آلوا عن الحق وذلك يوم أبي جندل .
وأخرج عن ابن عباس قال: إياكم والرأى فإن الله رد على الملائكة الرأي قال:

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال لنيه ﷺ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]
ولم يقل بما رأيت .

وأخرج عن ابن عباس ^(٣) قال: من أخذ رأياً ليس في كتاب الله ، ولم تمض به سنة من رسول الله لم يدر على ما هو متبه إذا لقي الله ، وأخرج عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» ^(٤)، وإن رآها الناس حسنة .

(١) سهل بن حنيف بن واهب الأنصاري الأوسي - صحابي من أهل بدر - استخلفه علي على البصرة - ومات في خلافته .

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد رقم (١٥٤٠) ، والمعجم الكبير للطبراني رقم (٥٤٦٧) .

(٣) ابن عباس: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ وينسب إليه أول تفسير للقرآن في الإسلام ، كذلك كان من أوائل من ناقشوا الخوارج - مات سنة ثمان وستين .

(٤) حديث صحيح: رواه ابن ماجه ، وأحمد ، انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم (٣٧) ، والسلسلة

وأخرج عن بلال بن سعد^(١) قال: ثلاث لا يقبل معهن عمل: الشرك، والكفر والرأى، وأخرج عن سفيان الثوري فقال: إنما الدين الآثار.

وأخرج عنه قال: ينبغي للرجل أن لا يحك رأسه إلا بأثر، وأخرج عن العلاء بن المسيب عن أبيه قال: أن تتبع ولا تبتدع وتقتدى ولا تبتدى لن فضل ما تمسكنا بالآثار، وأخرج عن ابن سيرين^(٢) قال: كانوا يقولون ما دام على الأثر. فهو على الطريق.

وأخرج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»^(٣).

وأخرج عن أبي أمامة^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة».

وأخرج عن الحسن^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل قليل في السنة خير من كثير في بدعة»^(٦).

(١) بلال بن سعد بن تميم الأشعري أو الكندي أبو عمر أو أبو زرعة الدمشقي مات في خلافة هشام بن عبد الملك.

(٢) ابن سيرين محمد الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري وينسب إليه أيضاً تفسير الأحلام. مات سنة عشر ومائة.

(٣) حديث صحيح: رواه النسائي رقم (١٥٦٠)، وصاحب كنز العمال، والطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، انظر صحيح وضعيف سنن النسائي للآلباني رقم (١٥٧٨).

(٤) أبو أمامة: البلوي حليف بني حارثة وقيل عبد الله بن ثعلبة - وقيل ابن عبد الله بن سهل: صحابي وله أحاديث.

(٥) الحسن بن علي بن أبي طالب سبط الرسول محمد ﷺ مات سنة خمسين وقيل بعدها.

(٦) انظر: شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي (٤ / ٢٧).

وأخرج عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وأخرج عن الحسن أنه تلا:

﴿خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال: قاس إبليس وهو أول من قاس. وأخرج عن أحمد بن حنبل^(١) قال: سألت الشافعي عن القياس فقال: عند الضرورات، وأخرج عن الربيع^(٢) قال: سمعت الشافعي يقول: لولا المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر.

وأخرج عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من رغب عن سنتي فليس مني»^(٣).

وأخرج عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»^(٤).

وأخرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٥).

(١) أحمد بن حنبل - الشيباني الإمام المشهور وشهد محنة خلق القرآن، وقد ترك أثراً كبيراً في العالم الإسلامي بمواقفه الرائعة في هذه المحنة - توفي سنة ٢٤١ هـ.

(٢) الربيع بن سليمان بن داود الجيزي المرادي أبو محمد البصري مات سنة ٢٥٦ هـ.

(٣) حديث صحيح: كنز العمال (١٨١٤٦)، وصحيح ابن خزيمة، انظر حديث رقم (٤٩٤٦) في صحيح الجامع.

(٤) حديث ضعيف: سنن ابن ماجه رقم (٤٩)، انظر: السلسلة الضعيفة والموضوعة (٦٨٤/٣)، وانظر السلسلة الضعيفة رقم (١٤٩٢).

(٥) حديث صحيح: رواه أبو داود رقم (١٢٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الأوسط، انظر حديث رقم (٦١٤٩) في صحيح الجامع.

وأخرج عن سعيد بن جبير^(١) في قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]

قال لزم السنة.

وأخرج عن سليمان^(٢) بن حرب قال: من زاغ عن السنة شعرة فلا تعتدن به ، وأخرج عن سفيان قال: وجدت الأمر الاتباع.

وأخرج عن الزهري قال: كان رجال من أهل العلم يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، وأخرج عن زيد بن أرقم^(٣) قال: من تمسك بالسنة ثبت ونجا ، ومن أفرط مرق ومن خالف هلك ، وأخرج عن ابن عباس قال : (من خالف السنة كفر) .

وأخرج فيه عن قتادة^(٤) في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ٧١] ، قال: خصومة علمها الله محمدًا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلال.

وأخرج عن أنس^(٥) قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال: إن أمتك لا يزالون يتساءلون ما كذا ما كذا»^(٦) ، حتى يقولون: الله خلق كل شيء فمن خلق الله؟

وأخرج عن أبي هريرة^(٧) قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يزال الناس يتساءلون

(١) سعيد بن جبير: الأسدي الكوفي من أكبر أئمة المسلمين. قتل سنة ٩٥ هـ بيد الحجاج

(٢) سليمان بن حرب: الأزدي الواشجي البصري القاضي بمكة. مات سنة ٢٢٤ هـ.

(٣) زيد بن أرقم: بن قيس الأنصاري. الخروجي. مات سنة ست أو ثمان وستين .

(٤) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري مات سنة ثلاث وعشرين .

(٥) حديث صحيح : رواه مسلم (٣٨٦) ، وأحمد في مسنده (١١٥٥) ، انظر حديث رقم (٤٣١٩)

حتى يقول أحدهم: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فإن سئلتهم فقولوا: الله قبل كل شيء وهو كائن بعد كل شيء وهو خالق كل شيء^(١).

وأخرج عن مطرف قال: عقول الناس على قدر زمانهم، وأخرج عن أنس أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن قوله: «وآباً» ما الأب؟ فقال: نهينا عن التعمق والتكلف.

وأخرج عن ابن مسعود قال: ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ ولا من أبي بكر وعمر.

وأخرج عن رجل من الصحابة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات قال الأوزاعي: يعني شرار المسائل، وأخرج عن ابن مسعود قال: «إياكم وصعاب القول».

وأخرج عن الحسن قال: «شرار عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله»، وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الإسلام ذلول لا يركبه إلا ذلول»^(٢).

وأخرج عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: إياك والبدع والتبدع والتنطع وعليك بالأمر العتيق، وأخرج عن ابن مسعود: إنكم ستحدثون ويحدث لكم فإذا رأيتم محدثاً فعليكم بالأمر الأول؛ وأخرج عن كثير بن عبد الله^(٣) عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إنكم ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله وإلى محمد».

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٣٦٠)، وأبو داود في مسنده (٤٠٩٨)، وصاحب كنز العمال، انظر

حديث رقم (٧٦٩٦) في صحيح الجامع.

(٢) حديث ضعيف: انظر: السلسلة الضعيفة والموضوعة (٤٨٩/٥).

(٣) كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزني المدني.

وأخرج عن عمران بن حصين^(١) أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٢).

فقال بشير بن كعب^(٣): إنا نجد في بعض الكتب أن منه سكينه ووقارا ومنه ضعفاً فغضب عمران حتى احمرت عيناه وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن كتبك الخبيثة.

وأخرج عن حفصة أنها جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرأ عليه والنبي ﷺ يتلوّن وجهه فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا معكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتكم»^(٤).

وأخرج عن ابن عمران أن رسول الله ﷺ قال: «من اقترب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويوضع في القوم المثناة، ليس أحد يغيرها. قلت: ما المثناة؟ قال كتاب كتب سوى كتاب الله ﷻ»^(٥).

وأخرج حديث العرياض^(٦) بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ الحديث وفيه: «فعلیکم بستی وسنة الخلفاء الراشدين تمسکوا بها وعضوا علیها بالنواجذ - وإياکم

(١) عمران بن حصين، بن عبد الله بن خلف الخزاعي مات سنة ٥٢ هـ بالبصرة.

(٢) انظر: كنز العمال رقم (٥٧٤٨)، والمعجم الكبير للطبراني (١٤٦٥٨)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (٧٤٤٤).

(٣) بشير بن كعب بن أبي الجبري - العدوي أبو أيوب البصري - ثقة - مخضرم من الثانية.

(٤) انظر: إرواء الغليل (٦ / ٣٧).

(٥) انظر: كنز العمال (١٤ / ٢٤٢)، والمستدرک علی الصحیحین (٨٨١٠).

(٦) العرياض بن سارية السامي أبو نجیح - صحابي - من أهل الصفقة نزل حصص - ومات بعد السبعين.

ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

ثم قال: وأخرج فيه عن أبي الدرداء وأبي ذر قالوا: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طير في السماء جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا.

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة، حتى يكفر بالله جهارًا، وذلك عند كلامهم في ربهم»^(١).

وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم في ربهم».

وأخرج عن محمد بن الحنفية قال: لا تهلك هذه الأمة حتى تتكلم في ربهم. وأخرج عن المقدام بن معد يكرب^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حدثتم الناس عن ربهم، فلا تحدثوهم بالذي يفزعهم ويشق عليهم»^(٣).

وأخرج عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من البيان سحرًا وإن من الشعر حكما وإن من القول عيا»^(٤) وإن من طلب العلم جهلا»^(٥)، قال أبو منصور

(١) رواه الطبراني في الكبير رقم (٧٦٦) والأوسط رقم (٣٨٤٣) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦١)، وكنز العمال (١١٨٧).

(٢) المقدام بن معد يكرب عمر.

(٣) حديث ضعيف: رواه الطبراني في الأوسط رقم (٨١٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٦٣١)، وكنز العمال (٥٣٠٧)، انظر في ضعيف الجامع رقم (٤٦٢).

(٤) أي جهلاً.

(٥) حديث ضعيف: رواه أبو داود (٤٣٥٩)، وكنز العمال، انظر مشكاة المصابيح رقم (٤٨٠٤).

الأزهرى في قوله: «وإن من طلب العلم جهلاً» معناه: علم النجوم وعلم الكلام.

وأخرج عن الحكم بن عمير الثماني قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذا القرآن صعب مستصعب لمن كرهه، ميسر لمن اتبعه وإن حديثي صعب مستصعب لمن كرهه، ميسر لمن اتبعه من سمع حديثي فحفظه، وعمل به جاء يوم القيامة مع القرآن، ومن تهاون بحديثي فقد تهاون بالقرآن ومن تهاون بالقرآن خسر الدنيا والآخرة أمر أمتي أن خذوا بقولي أطيعوا أمتي واتبعوا سنتي لأن الله يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]»^(١).

وأخرج عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والركون إلى أصحاب الأهواء فإنهم بطروا النعمة وأظهروا البدعة وخالفوا السنة ونطقوا بالشبهة وتابعوا الشيطان»^(٢).

وأخرج عن محمد بن الحنفية قال: (إن قومًا من كانوا قبلكم أوتوا علمًا كانوا يكتفون به فسألوا عما فوق السماء وما تحت الأرض فتأهوا فكان أحدهم إذا دعى من بين يديه أجاب من خلفه، وإذا دعى من خلفه أجاب من بين يديه).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت عبد الله بن أبي^(٣) يشتد قدام النبي ﷺ والحجارة

تنكبه وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب والنبي ﷺ يقول له: ﴿أَبَا اللَّهِ

وَأَيُّنْهُ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

(١) انظر: كتر العمال رقم (٢٤٦٨).

(٢) انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١ / ٢٦٩).

(٣) ابن سلول رأس المنافقين في المدينة - مات قبل وفاة النبي.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه قال: أرسل رسول الله ﷺ مرة رجلا من أصحابه إلى رأس من رؤوس المشركين يدعوه إلى الله فقال له المشرك: هذا الإله الذي تدعو إليه ما هو؟ أمن ذهب هو أو من فضة؟ فأنزل الله صاعقة من السماء فأهلكته، وأخرج عن مجاهد قال: جاء يهودى إلى النبي ﷺ فقال: (يا محمد من أى شيء ربك؟ أمن لؤلؤ هو؟ فأرسل الله عليه صاعقة قتلتة ونزلت: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وأخرج عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن شيء من أمر الرب فلعنهم، وأخرج عن ابن عمر قال لنا عن رسول الله ﷺ فجاء رجل أقبح الناس ثيابا وأنتن الناس ريحا، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ فقال: من خلقتك؟ قال: «الله».. فمن خلق الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله سبحانه الله»، وأمسك بجمهته وقام الرجل فذهب فقال رسول الله ﷺ: «علّ بالرجل»، فطلبناه فكأن لم يكن فقال رسول الله ﷺ: «هذا إبليس جاء يريد أن يشككم في دينكم».



الفصل الثاني

مرويات جدلية

وأخرج شيخ الإسلام^(١) عن ابن محمد المرتعش قال: سئل أبو حفص ما البدعة؟ قال: التعدي في الأحكام والتهاون بالسنن واتباع الآراء والأهواء وترك الاقتداء والاتباع.

وأخرج عن أبي علي الجوزجاني أنه سئل كيف الطريق إلى الله؟ قال: أصح الطريق وأعمرها وأبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعزماً وعقداً ونيةً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ فسأله كيف الطريق إلى اتباع السنة قال: مجانبة البدع، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله، والتباعد من مجالس الكلام، وأهله ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع بذلك أمر النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

وأخرج عن ابن أبي حاتم قال: كان أبي وأبو زرعة يقولان: من طلب الدين بالكلام ضل.. وأخرج عن أبي سعيد الاصطخري أن رجلاً قال له: أيجوز الاستنجاء بالعظم؟ قال: لا: قال لم؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قال: هو زاد إخوانكم من الجن، قال: فقال له: الإنس أفضل أم الجن؟ قال: بل الإنس قال: فلم نجوز الاستنجاء بالماء وهو زاد الإنس؟ فتزل عليه وأخذ بحلقه وهو يقول: يا زنديق تعارض رسول الله ﷺ وجعل يخنقه، فلولا أنهم أدركوه لقتله.

وأخرج عن أبي العباس بن سريج أنه سئل ما التوحيد؟ قال: توحيد أهل العلم

(١) صَوْنُ المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي.

وجماعة المسلمين «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وتوحيد أهل الباطل الخوض في الأغراض والأجسام، وإنما بعث النبي ﷺ يانكار ذلك.

وأخرج عن أحمد بن محمد بن أبي سعد أنه قال: من جلس للمناظرة على الغلبة فأوله جدال وصياح، وأوسطه حب العلو على الخلق، وآخره حقد وغضب، ومن جلس للمناصحة فأول كلامه موعظة، وأوسطه دلالة وآخره بركة.

وأخرج عن أبي عمر بن مطر قال: سئل ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: بدعة ابتدعوها ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين مثل مالك وسفيان والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق^(١) ويحيى بن يحيى^(٢) وابن المبارك ومحمد بن يحيى وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن^(٣) وأبي يوسف^(٤) يتكلمون في ذلك وينهون عن الخوض فيه ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال.

وأخرج عن أبي بكر بن بسطام قال: سألت أبا بكر بن سيار عن الخوض في الكلام، فنهاني عنه أشد النهي. وقال: عليك بالكتاب والسنة وما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فإني رأيت المسلمين في أقطار الأرض ينهون عن ذلك، وينكرونه ويأمرون بالكتاب والسنة.

وأخرج فيه من طريق أبي عبد الله الحاكم قال: سمعت أبا زيد الفقيه المروزي يقول: أتيت أبا الحسن الأشعري^(٥) بالبصرة فأخذت عنه شيئاً من الكلام، فرأيت من ليلتي في المنام

(١) إسحق: بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن مطر الحنظلي - أبو يعقوب المروزي عالم نيسابور ولد سنة ١٦٦ - توفي سنة ٢٣٨ هـ طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) يحيى بن يحيى النيسابوري توفي ٢٢٦ هـ.

(٣) محمد بن الحسن الشيباني توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٤) أبو يوسف - توفي سنة ١٨٩ هـ.

(٥) أبو الحسن الأشعري - الإمام الأكبر علي بن إسماعيل المتكلم المشهور وشيخ الأشاعرة ولد سنة ٢٦٠ وتوفي ما بين ٣٢٠ - ٣٣٠.

يقول: سمعت سهل بن محمد الصعلوكي يقول: أقل ما في الكلام من الخسار سقوط هبة الله من القلب، سمعت منصور بن العباس يقول: ما أحصى ما سمعت أبا الطيب يقول: أنهاكم عن الكلام وتعودون إليه والله الموعد سمعت عبد الواحد بن أحمد سمعت أبا الطيب يقول: لما توفي أبي وعقدت مجلس الفقه عاودني في مجلس الكلام وقالوا: هو من مجالس أبيك فلا تقطعه فمزالوا بي حتى حضرت مجلس الكلام فجرى مسألة فقممت ورجعت عن ذلك.

وسمعت عبد الواحد بن ياسين المؤدب يقول: رأيت بايين قلعا من مدرسة أبي الطيب بأمره (فأخرجت) من بيتي شابين حضرا أبا بكر بن فورك^(١).

وسمعت عبد الرحمن بن محمد بن الحسين يقول: وجدت أبا حامد الإسفراييني وأبا الطيب الصعلوكي وأبا بكر القفال المروزي وأبا منصور الحاكم على الإنكار على الكلام وأهله وسمعت أحمد بن أبي رافع وخلقاً يذكرون شدة أبي حامد على الباقلاني^(٢) قال: وأنا بلغت رسالة أبي سعيد إلى ابنه سالم ببغداد: إن كنت تريد أن ترجع إلى (هراه) فلا تقرب الباقلاني.

وسمعت أبي يقول: سمعت أبا المظفر جبال بن أحمد الترمذي إمام أهل ترمذ يخشى على أهل الكلام الزندقة، وسمعت محمد بن عبد الرحمن الدباسي يقول: رأيت أبا منصور الحاكم ذكر بين يديه شيء من الكلام فأدخل إصبعيه في أذنيه.

وسمعت عبد الرحمن بن محمد البجلي^(٣) يقول: سمعت هيثم بن محمد بن إبراهيم بن

(١) أبو بكر بن فورك أبو بكر الأنصاري الأصبهاني محمد بن الحسن بن فورك توفي ٤٠٦ هـ أحد أعلام الأشاعرة الكبار طبقات الشافعية (٣ / ٥٣).

(٢) الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم الباقلاني إمام الأشاعرة العظيم - توفي ٤٠٢ هـ ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان (١ / ٦٧٤).

(٣) نسبة إلى بجلة - بالفتح وبالسكون رهط من سليم.

هشام يقول: كنت نظمت في شيء من كلام الأشعث وعلقني فمررت بالصابوني: أئى نصر فسمعتة يقول وهو يزكيها: رجل البينة وراء الحجة فرجعت وسمعت يحيى بن عمار النيهى يقول: العلوم خمسة: علم هو حياة الدين وهو علم التوحيد، وعلم هو قوت الدين وهو العظة والذكر، وعلم هو دواء الدين وهو الفقه، وعلم هو داء الدين وهو أخبار فتن السلف، وعلم هو هلاك الدين وهو علم الكلام.

قال المؤلف: ووجدت هذا الكلام لأئى منصور الماليني البستي^(١) قال: ورأيت يحيى بن عمار ما لا أحصى على المنبر ينكر على أهل الكلام. وكذلك رأيت عمر بن إبراهيم ومشائخنا سمعت الحسن بن أبى أسامة المكي سمعت أئى يقول: لعن الله أبا ذر يعنى عبد بن أحمد الهروى فإنه أول من حمل الكلام إلى الحرم وأول من بثه في المغاربة، وسمعت منصور بن إسماعيل^(٢) سمعت الحسين بن شعيب^(٣) الفقيه يقول ليحيى بن عمار: سمعت سالما يقول: من لم يقرأ الكلام لم يدن الله دينه فقلت هل ورثت أباك؟ وسمعت على بن محمد الأنصارى يقول: سمعت الحسن بن هانى يقول: كلنا قرأ الكلام ولكننا عقلنا فسكتنا، وحمق أبو الجودى^(٤) والدينارى فافتضحوا وسمعت طاهر بن محمد الماليني^(٥) يقول: شهدت الدينارى يستتيه أبو سعد الزاهد فما رأيته كذلك اليوم في الذل، وأدركت مجلس سالم في الجامع يغسل في عهد يحيى بن عمار وعمر بن إبراهيم عن شورى، وسمعت منصور بن إسماعيل الفقيه يحمد الله على ذلك وجاء سالم يتوب فقال يحيى بن عمار للحاجب: قل له ائتنا بكتب الكلام نحرقها بالنار ولم يأذن له.

قال المؤلف: ثم إنى لا أعلم أنى سمعت في عمرى بشرا واحدا في بلدتنا يقر على نفسه

(١) نسبة إلى آلين، من قرى مرو.

(٢) منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي - أبو الحسن. توفي سنة ٣٠٦هـ ٩١٨م

(٣) الحسين بن شعيب بن محمد السنجى - مات نحو ٤٣٢هـ - ١٠٤٠م.

(٤) واسمه الحارث بن عمير توفي بعد المائة - وروايته عن أئى ذر مرسله.

(٥) الماليني: نسبة إلى مبالين قرى مجتمعة من هراء.

أو يصرح بشيء من الكلام وهو يعرفه أو يظهر شيئاً من كتبهم إلا من أحد وجوه أربعة:

أحدها: أن يكون رجلاً عَلمَ منه أنه قرأ الكلام فهو يحلف أنه إنما قرأه ليصول به على خصمه لا ليدين به ديناً.

والثاني: رجل أخذ عنه أنه إنما أخذ عن النقل لا الكلام.

والثالث: قوم لحقهم داء من العُجب حتى حَطَّتْهُمُ الأعين بالهوان بصيحة أهل التهمة والركون إليهم فهم إذا خلوا يتناجون. وإذا برزوا يتناجون.

والرابع: رجل ظهر عليه شيء من كتب الكلام بخطه أو قراءته أو أخذه حياً أو ميتاً فكلهم يحمل من أعباء الذن والهجرات والطرده ما لا يحمله عيَّار ولا تعاد مرضاهم ولا تشيع جنائزهم على أنك لا تعدم منهم قلة الورع وقسوة القلب وقلة الود وسوء الصلاة والاستخفاف بالسنة والتهاون بالحديث والوضع من أهله وترك الجماعة.

وقد سمعت بعض المتهمين يقول: وما الكلام؟ كل ما خرج من الفم من النطق فهو كلام فهو والله حمق ظاهره أن يكون تلبسه بالشافعي الإمام المطلبى بافتراءه الكاذب إليه وزعمه الباهت عليه. وهو من أشد خلق الله تعالى على المتكلمين وأثقله عليهم كما نظمنا عنه من أقاويله الغر في ذمهم. ثم هذا المراءوغ يدعى أنه لا يدري ما الكلام وهؤلاء أئمة الإسلام وكل هذا التحذير وإيذائه قديماً بالضرر الكبير فليبرزوا به إذن من الخباء وليخرجوا الطبل من الكساء ويقيموا الخطأ على أولئك السادة الهداة ويسيروا بنا إلى مسلم أدركه في الكلام رشداً ولقى به خيراً فلا والله لا دين المتناجين دين، ولا رأى المتسارئين^(١).

ثم أخرج عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا رأيت قوماً يتناجون في أمر دينهم بشيء فاعلم أنه تأسيس ضلالة.

وسمعت إسماعيل بن علي يقول: سمعت فآخر بن معاذ يقول لبعض أهل الكلام: إن

جئتني بالكلام هشمت أسنانك.

وقرأت كتاب محمود الأمير يحث فيه على كشف أستار هذه الطائفة والإفصاح بعيهم ويقول فيه: لم يخف أن القرآن يصرح به في الكتابيب ويجهر به في المحاريب وحديث المصطفى ﷺ يقرأ في الجوامع ويسمع في المجامع وتشد إليه الرحال والفقهاء في القلانس مفصحنون في المجالس وأن الكلام في الخفايا يدس به في الزوايا قد ألبس أهله ذله وأشعرهم ظلمه يرمون بالألحاظ ويخرجون من الحفاظ يُسبُّ بهم أولادهم ويُتبرأ منهم من أهل ودّهم.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً وابن عباس موقوفاً: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه»^(١).

وأخرج أبو أمية اللخمي أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أشراط الساعة أن يلتبس العلم عند الأصاغر»^(٢)، قال ابن المبارك: هم أهل البدع.

وأخرج عن محمد بن إبراهيم الماستوي^(٣) أنه ذكر أهل الكلام فقال: أما استفتاء أخذ منهم أو أخذ حديث عنهم فهو من عظام أمور الدين.

وأخرج عن علي بن عبد الله بن نجيح المدني^(٤): قال يوسف بن خالد^(٥) سقط حديثه من أجل الكلام وكل من كان صاحب كلام فليس بشيء.

(١) حديث صحيح : رواه مسلم رقم (٢٦)، والدرامي (٤٣٢)، انظر مشكاة المصابيح (٧٦).

(٢) حديث صحيح : كنز العمال (١٤ / ٢١٠)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٩٥) وصحيح الجامع رقم (٢٢٠٧).

(٣) لعلها الماستيني - نسبة إلى ماستين قرية ببخارى، أو المشتولى نسبة إلى مشتول قرية بمصر

(٤) علي بن عبد الله بن نجيح السعدى - أبو الحسن بن المدينى البصرى. مات سنة ٣٣٤ هـ

(٥) يوسف بن خالد بن عمير السمنى. مات سنة ٢٨٩ هـ

قلت: هذا آخر ما لخص من كتاب ذم الكلام للهوى وقد اشتمل على نصوص أعيان أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين وأتباعهم والمجتهدين أرباب المذاهب وأقرانهم وأصحابهم وأتباع مذاهبهم والمحدثين والصوفية ، والهوى هذا شيخ الإسلام الحافظ الإمام الزاهد أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى من ذرية أئى أيوب الأنصارى كان حنبلياً حافظاً للحديث بارعاً فى اللغة آية فى التصوف والوعظ إماماً متفتناً قائماً بنصر السنة ورد المبتدعة وهو صاحب كتاب : « منازل السائرين » مات فى ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة .

قال الحارث المحاسبى (١) فى كتابه : (الرعاية) باب العزة بالجدال وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان :

وفرقه جدلة خصمة مغترة بالجدال والرد على المختلفين من أهل الأهواء وأهل الأديان يتأول فى ذلك أنه : لا يصح لأحد عمل حتى يصح إيمانه والقول بسنة النبى ﷺ فليس عند أحدهم أحد يعرف ربه ولا يقول عليه الحق غيره أو من كان مثله .

ثم هم فرقتان : فرقة ضالة مضلة لا تفطن لضلالتها لا تساعها فى الحجاج ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة بالرد على من خالفها فهم عند أنفسهم من القائلين على الله بالحق والراذيين لكل ضلالة لا أحد أعلم منهم بالله ولا أولى به منهم .

والفرقة الثانية من المغترين بالجدال والبصر بالحجاج تقول بالحق ولا تدين بغيره وقد اغترت بالجلد ترى أنه لا يصح لها قول دون الفحص والنظر وقيام الحججة على من خالفها فقد اغترت بذلك حتى قطعت أعمارهم بالاشتغال عن الله وعمى عليها أكثر ذنوبها وخطاياها وهى تظن أن ذلك أولى بها وأقرب لها إلى ربها وهى أيضاً لا تسلم فى مجادلتها أن تخطئ فى تأويلها وقولها .

(١) الحارث المحاسبى . توفى سنة ٢٤٢ . طبقات الشافعية - ج ٢ ص ٤٢ انظر الرعاية طبع فى لندن فى أوائل الحرب : ثم نشره الأستاذ الدكتور عبد الحليم والأستاذ طه عبد الباقي سرور [بالقاهرة] .

ثم قال: أما الفرقة الضالة فإنها تنفى ذلك بأن ترجع إلى نفسها فتعلم أن من القرآن محكما ومتشابهها وكذلك من السنة فلا يقضى بمتشابهه على محكم ويقضى بالمحكم على المتشابهة والجماعة قد مضت على الهدى وسنة نبيها ﷺ فلا تخرج من إجماعها ، ولم تغتر بشدة حجابها إذ علمت أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج بصير بالجدل وهو عندها ضال مضل وكذلك لا نأمن أن تكون هي عند الله كذلك وإن أبصرت الجدل والخصومة فإن اتهمت نفسها على الآراء والتأويل وثبتت عند المتشابهة فقصت بالمحكم عليه وأوقعت فيها لم يجعل لها النظر فيه ولم تخرج عن إجماع من مضى ، وثابت إلى ربها من ضلالها.

وأما الفرقة المصيبة للحق مع غرتها - عن الله - بالخصومات والجدل عما هو أولى بها فإنما تنفى غرتها بذلك بأن تعلم أن الله تعبد من مضى بما تعبدتها وقد أدرك كثير منهم أهل البدع والأهواء فما جعل عمره ولا دينه غرضا للخصومات ولا اشتغل بذلك عن النظر لنفسه والعمل ليوم فقره إلا أن يرى موضع حاجة يظن أنه إن تكلم بالحق قبل منه فيقول بالحق ويحذر أن يخطئ على الله فيرد الباطل بالباطل فكانوا على ذلك وذموا الجدل والخصومات.

وروا ذلك عن النبي ﷺ ما رواه عنه أبو أمامة أنه قال: «ما ضل قوم قط إلا أوتوا

الجدل»، واذم الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

وقال لقريش: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

فدم المرء والجدل ، فليرجع إلى نفسه فيقول لها: إنما تدعينني إلى الاتباع والسنة بجدلك لأهل الأهواء ودعائك لهم بالجدل.. والمرء ترك السنة ؛ لأن النبي ﷺ نهى بسنته عن الجدل والخصومات وغضب على أصحابه حتى كأنها فقي في وجهه حب الرمان - حمرة الغضب - إذ خرج عليهم وهم يختصمون وهم أولى الخلق بالفهم والبصر بالحجاج فقال: (ألهذا بعثتم أم بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمرتم به فاعملوا به وما نهيتهم عنه فانتهوا عنه) انتهى قوله.

كلام البخاري صاحب الصحيح^(١)

قال في كتاب: خلق أفعال العباد :

المعروف عن أحمد^(٢) وأهل العلم أنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع إلا فيما جاء فيه العلم وبينه الرسول ﷺ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ثم أخرج من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قوما يتدارون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا فلا تضربوا بعضه ببعض ما علمتم منه فقولوا وما أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه»^(٣).

وأخرج من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «إنكم ما اختلفتم في شيء فمرده إلى الله وإلى محمد ﷺ».

وأخرج من حديث عائشة: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٤) قال: وأمر عمر أن ترد الجهالات إلى الكتاب والسنة.

قال البخاري: فكل من لم يعرف الله بكلامه أنه غير مخلوق فإنه يُعرف ويُردُّ جهله إلى

(١) كتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وقد طبع في الهند سنة ١٣٠٥ هـ.

(٢) المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق وما سواه مخلوق.

(٣) حديث حسن: رواه أحمد (٦٧٤١)، والطبراني في الأوسط (٧٠٥٢)، انظر مشكاة المصابيح.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري رقم (٢٠)، ومسلم رقم (٤٥٩٠).

وهو المبعوث على رأس المائة الثالثة وقد بسطت ترجمته في طبقات المفسرين بالنقل والحديث بمتابعة الأخبار التي رواها الثقات والعدول من هذه الأمة عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة من بعده فنشرح الآن قول أهل السنة:

إن طريق الدين هو: السمع والأثر وإن طريقة العقل والرجوع إليه وبناء السمعيات عليه مذموم في الشرع ومنهى عنه ونذكر مقام العقل في الشرع والقدر الذي أمر الشرع باستعماله وحرّم مجاوزته.

ثم قال: وقد سلك أهل الكلام في رد الناس من الأحاديث إلى المعقولات طريقاً شبيهاً بها على عامة الناس قالوا: إن أمر الدين أمر لا بد فيه من وقوع العلم ليصح الاعتقاد فيه فإن المصيب في ذلك عند اختلاف المختلفين واحد والمخالف في أمر من أمور الدين الذي مرجعه إلى الاعتقاد إما كافر أو مبتدع وما كان أمره على هذا الوجه فلا بد في ثبوته من طريق توجب العلم حتى لا يتداخل من حصل له العلم بذلك شبهة وشك بوجه من الوجوه والأخبار التي يرويها أهل الحديث في أمور الدين أخبار آحاد وهى غير موجبة للعلم وإنما توجب الأعمال في الأحكام خاصة وإذا سقط الرجوع إلى الأخبار فلا بد من الرجوع إلى دليل العقل وما يوجه النظر والاعتبار فهذا من أعظم شبههم في الإعراض عن الأحاديث والآثار وسيأتى الجواب عنها وقد قال عمر بن الخطاب: إنه سيأتى أناس يأخذونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

ما ورد عن الأئمة في ذم الكلام

ثم قال: ونذكر الآن ما ورد عن الأئمة في ذم الكلام فذكر طائفة مما تقدم عن الأئمة مخرجاً من ذم الكلام للهوى ومما لم يتقدم ما أسند عن سهيل بن نعيم قال: قال الشافعى: كل من تكلم بكلام في الدين أو في شيء من هذه الأهواء ليس فيه إمام متقدم من النبى ﷺ وأصحابه فقد أحدث في الإسلام حدثاً.

وقال: قال النبى ﷺ: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً في الإسلام فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً»^(١).

وأسند من طريق حرمة قال: سمعت الشافعي يقول: إياكم والنظر في الكلام فإن رجلاً لو سئل عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها أو سئل عن رجل قتل رجلاً فقال ديتة بيضة كان أكثر شيء أن يضحك منه ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة.

قال: فهذا كلام الشافعي في ذم الكلام والحث على السنة وهو الإمام الذي لا يجارى والفحل الذي لا يقاوم فلو جاز للرجوع إليه وطلب الدين من طريقه لكان بالترغيب فيه أولى من الزجر عنه وبالندب إليه أولى من النهي عنه فلا ينبغي لأحد أن ينصر مذهبه في الفروع ثم يرغب عن طريقته في الأصول.

وروى عن قبيصة قال: كان سفيان الثوري يبغض أهل الأهواء وينهى عن مجالسهم أشد النهي ويقول: عليكم بالآثر وإياكم والكلام في ذات الله.. وكان أحمد بن حنبل يقول: أئمة الكلام زنادقة.

ثم ساق جملة من كلام السلف في النهي عن النظر في الكلام وقد أيد هذا كله الحديث الذي حدثنا أبو صالح فذكر بسنده عن أبي هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»^(١).

ثم قال: وإنما ترد البدعة بالآثر لا ببدعة مثلها فإنه روى عن عبد الرحمن بن مهدي الإمام المقدم قال: إنما يرد على أهل البدع بآثار رسول الله ﷺ وآثار الصالحين فأما من رد عليهم بالمعقول فقد رد باطلاً بباطل.

ثم قال: فهؤلاء الأئمة هم المرجوع إليهم في أمر الدين وبيان الشرع ومن سلك طريقاً في الإسلام بعدهم فإياهم يتبع وبهم يقتدى وموافقهم تتحرى فلا يجوز لمسلم أن يظن بهم ظن السوء قالوا ذلك عن جهل وقلة علم وخبرة في الدين وما هذا إلا من الغل الذي أمر الله بالاستعاذة منه فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

فتبين لنا أن الطريق عند الأئمة الهادية اتباع السلف والاقتداء بهم دون الرجوع إلى الآراء ومن هنا قال بعضهم: العلم علمان: علم نبوي، وعلم نظري والعلم النظري محتاج إلى العلم النبوي لأن العلم النبوي جاء من الله وهو مقرون بالصواب على كل حال والعلم النظري ما يستنبط ويجوز أن يكون صواباً ويجوز أن يكون خطأ ومثال ذلك ما قيل: الماء ماء.. ماء نزل من السماء وماء نبع من الأرض فالماء النازل من السماء على طعم واحد من اللذة والطيب وعلى لون واحد من الصفاء والنقاء وعلى جوهر واحد من الطهارة والنظافة كذلك العلم النازل من السماء كالوحي والماء النابع من الأرض فعلى أنواع منه صاف طاهر على موافقة وحى الله ومنه خبيث كدر لمخالفته وحى الله.

وقال بعضهم: الحديث أصل والرأى فرع ولا يجوز أن يكون الأصل والفرع سواء ولا حالهما في الرتبة والتقدمة واحدة ألا ترى إلى قوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله قال: «فإن لم تجد؟» قال: فبسنة رسول الله قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأى ولا ألو.. قال: «الحمد لله الذى وفق رسول الله ﷺ» (١).

فكان المصير إلى الحديث بمنزلة الماء في الطهارات والقياس والرأى بمنزلة التراب وإنما يصار إلى التراب عند عدم الماء كذلك لا يصار إلى الرأى إلا عند عدم الحديث فكان مثل من أثر الرأى والقياس وقدمهما على الحديث والأثر مثل من يعدل عن الطهارة بالماء في وقت السعة ويؤثر التيمم بالتراب الذى وضع للضرورة، والعدم ولقد أحسن سعيد بن حميد^(١) حين يقول:

فإنك حين تطرحنى لقوم هم عدم وفى صور الوجود
كمن هو تارك ماء طهورا وراض بالتيمم بالصعيد

(١) حديث: رواه أبو داود (٣٥٩٥)، والترمذى (١٣٢٧)، وأحمد (٢٢٤١١)، والطبرانى فى الكبير.

(١) سعيد بن حميد أبو عثمان كان كاتباً شاعراً مترسلاً عذب اللفظ ج ١ ص ٣٦٥ وفيات الأعيان.

خذ ما أتاك به الأخبار من أثر
ولا تميلن يا هذا إلى بدع
شبهها بشبه وأمثالا بأمثال
تضل أصحابها بالقليل والقال

فصل

فيما روى عنهم من ذم الجدل والخصومات في الدين وما كرهوا من ذلك

أخرج عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون»^(١).

وأخرج عن علي بن الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسنِ إسلام المرء تركه مالا يعنيه»^(٢).

وعن الحسن البصري أنه كان ينهيه عن الخصومة ويقول إنما يخاصم الشاك في دينه.

وعن ابن سيرين قال: إني لأدع المراء وإني لأعلمكم به. وقد جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني حب الجدل، وقال الأوزاعي: المنازعة والجدال في الدين محدث.

ثم قال: واعلم أنك متى تدبرت سيرة الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح وجدتهم ينهون عن جدال أهل البدعة بأبلغ النهي ولا يرون رد كلامهم بدلائل العقل وإنما كانوا إذا سمعوا بواحد من أهل البدعة أظهروا التبري منه ونهوا الناس عن مجالسته ومحاورته والكلام معه وربما نهوا عن النظر إليه وقد قالوا: إذا رأيت مبتدعا في طريق فخذ

(١) حديث صحيح : رواه مسلم (٦٩٥٥) ، وأبو داود ، وأحمد ، والطبراني في الكبير .

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) ، وأحمد (١٧٣٧) ، وابن حبان ،

والطبراني ، انظر حديث رقم (٥٩١١) في صحيح الجامع .

في طريق آخر.

ولقد ظهرت هذه الأهواء الأربع التي هي رأس الأهواء أعنى - القدر والإرجاء - ورأى الحرورية والرافضة في آخر زمان الصحابة فكان إذا بلغهم أمرهم أمروا بما ذكرنا ولم يبلغنا عن أحد منهم أنه جادلهم بدلائل العقل أو أمر بذلك وقد كانوا إلى عهد رسول الله ﷺ أقرب وقد شاهدوا الوحي والتنزيل وعدلهم الله في القرآن وشهد لهم بالصدق وشهد لهم النبي ﷺ بالخيرية في الدين وكانت طاعتهم أجل وقلوبهم أسلم وصدورهم أطهر وعلمهم أوفر وكانوا من الهوى والبدع أبعد ولو كان طريق الرد على المبتدعة هو الكلام ودلائل العقل والجدال معهم لا شغلوا به وأمروا بذلك وندبوا إليه.

وإنما ظهرت المجادلات في الدين والخصومات بعد مضي قرن التابعين ومن يليهم حين ظهر الكذب وفشت شهادات الزور وشاع الجهل واندرس أمر السنة بعض الاندراست وأتى على الناس زمان حذر منه النبي ﷺ والصحابة من بعده.

ولقد صدق إبراهيم النخعي حيث يقول: إن القوم لم يؤخر عنهم شيء خبيء لكم لفضل عندكم وإنما كان غايتهم التبري وإظهار المجانبة والأمر بالتباعد.

والمشهور عن ابن عمر أنه لَمَّا بلغه قول أهل القدر قال: أبلغوهم أني منهم بريء ولو وجدت أعوانا لجاهدتهم.

وقال ابن عباس: لو رأيت بعضهم لضربت رأسه.

وأتى رجل على بن أبي طالب فقال: أخبرني عن القدر؟ قال: طريق مظلم فلا تسلكه قال: أخبرني عن القدر؟ قال: بحر عميق فلا تلجّه قال: أخبرني عن القدر؟ قال: سر الله

وقال عمر بن عبد العزيز: ينبغي أن نتقدم إليهم فيما أحدثوا من القدر فإن كفوا وإلا استلّت ألسنتهم من ألفتهم استلاباً.

فهذا طريق القوم في أمر البدع وأهلها قال رجل من أهل البدع لأيوب السخيتاني: يا أبا بكر أسألك عن كلمة.. فولى وهو يقول: ولا نصف كلمة، وقال ابن طاووس لابن له وتكلم رجل من أهل البدع: يا بني أدخل إصبعيك في أذنيك ثم قال: أشدد أشدد، وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل. وقال رجل للحكم بن عتيبة: ما حمل أهل الأهواء على هواهم؟ قال: الخصومات. وقال معاوية بن قرة وكان أبوه من أصحاب النبي ﷺ: لا تجالسوا أصحاب الأهواء أو قال: أصحاب الخصومات ولا تكلموهم فإني لا آمن أن يغمسوك في ضلالتهم أو يُلبسوا عليكم بعض ما تعرفون.

ودخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالوا: نقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال لا، لتقومان أو لأقومن.

وكانوا يقولون: إن القلب ضعيف وإنا نخاف إن استمعت منهم شيئاً أن يميل قلبك إلى قولهم.

وقال إسحق بن إبراهيم الحنظلي: اعلّموا أن اتباع الكتاب والسنة أسلم والخوض في أمر الدين بالمنازعة والرد حرام والاجتناب عنه سلامة وأرجو أن يجوز القياس على الأصل الثابت من العالم الفطن المتيقظ ولا تكاد تجد شيئاً من تأويل الكتاب مخالفًا لسنة النبي

إذا صحت الرواية وعامة تاركي العلم والسنة وأصحاب الأهواء والرأى والمقاييس لثقل السنة عليهم ولا أعرف حديثين يخالف أحدهما الآخر ولكل ما روى من الأحاديث المختلفة معان يعلمها أهل العلم بها فهذا الذي نقلناه طريقة السلف وما كانوا عليه.

واعلم أن الأئمة الماضين وأولى العلم من المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام وهذا النوع من النظر عجزاً عنه ولا انقطاعاً دونه وقد كانوا ذوى عقول وافرة وأفهام ثاقبة وقد كانت هذه الفتن قد وقعت في زمانهم وظهرت وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنها وعلموه من سوء عاقبتها وسيئ مغبتها، وقد كانوا على بينة من أمورهم وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم الله بنوره وشرح صدورهم بضياء معرفته قرأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته وتوقيف السنة وبيانها غناء ومندوحة عما سواها وأن الحجة قد وقعت وتمت بهما وأن العلة والشبهة قد أزيلت بمكانها.

فلما تأخر الزمان بأهله وفترت عزائمهم في طلب حقائق علوم الكتاب والسنة وقلت عنايتهم بها واعترضهم الملحدون بشبههم والطاعنون في الدين بجدهم حسبوا أنهم إن لم يردوهم عن أنفسهم بهذا النمط من الكلام ودلائل العقل لم يقووا عليهم ولم يظهروا في الحجاج عليهم فكان ذلك صلة من الرأى وخدعة من الشيطان لو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف لوجدوا برد اليقين وروح القلوب ولكثرت البركة وتضاعف النماء وانشاحت الصدور وأضاءت فيها مصابيح النور.

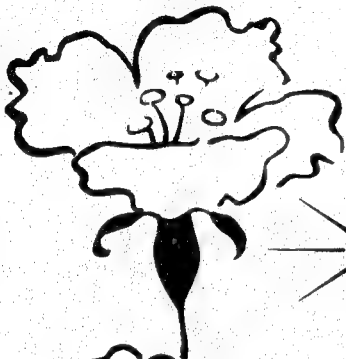
وإنما وقعوا فيما وقعوا فيه عن أهل الحق بعد ما تدبروا وظهر لهم بتوفيق الله سبب ذلك وهو أن الشيطان صار اليوم بلطيف حيلته يسوّل لكل من أحس من نفسه زيادة فهم وفضل ذكاء وذهن يوهمه أنه إن رضى في عمله ومذهبه بظاهر من السنة واقتصر على واضح بيان

منها كان أسوة العامة وعدّ واحدا من الجمهور والكافة وأنه قد ضل فهمه واضمحل عقله وذهنه فحركهم بذلك على التنطع في النظر والتبدع لمخالفة السنة والأثر ليمتازوا بذلك عن طبقة الدهماء ويتبينوا في الرتبة عمن يرونه دونهم في الفهم والذكاء فاخذعهم بهذه المقدمة حتى استزلمهم عن واضح الحجة وأورطهم في شبهات تعلقوا بزخارفها وتاهوا عن حقائقها ولم يخلصوا منها إلى شفاء نفس ولا قبلوه بيقين علم ولما رأوا كتاب الله ينطق بخلاف ما انتحلوه ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه ضربوا بعض آياته ببعض وتألولوها على ما يسنح لهم في عقولهم واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ ولسته الماثورة عنه وردوها على وجوها وأسأوا في نقلها القالة ووجهوا عليهم الظنون ورموهم بالتزويد ونسبواهم إلى ضعف المنة وسوء المعرفة بمعاني ما يرونه من الحديث ولو أنهم أحسنوا الظن بسلفهم وآثروا متابعتهم وسلموا حيث سلموا وطلبوا المعاني حيث طلبوا واجتهدوا في رد الهوى وخداع الشيطان لانشرحت صدورهم وظهر لهم من برد اليقين وروح المعرفة وضياء التسليم ما ظهر لسلفهم وبرز لهم من أعلام الحق ما كان مكشوفاً لهم غير أن الحق عزيز والدين غريب والزمان مفتن :

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

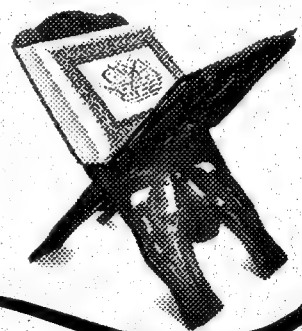




الحمد لله الذي



والحمد لله



الفصل الأول

أدوات الجدل

بعد عرضنا لما يجب أن يكون عليه المجادل من مقدرة علمية وثقافية بقى أن نعرض للأدوات التي يجب أن تتوفر لدى من جلس للجدال والنزال وأولى هذه الأدوات (الاجتهاد) لأن المجادل من حيث الواقع هو (مجتهد) فيما لا نص فيه أو غير مقطوع به أو مظنون وهو مؤهل لتكوين فكر ثاقب ورأى صائب يستطيع به النفاذ إلى العقول والقلوب ولكن مرتبة (المجادل) أعلى من حيث الوازع والتكليف إذ يأخذ (الاجتهاد) حيزاً من الوقت أما الجدل ففيه أعمال البديهة وسرعة الإجابة ولهذا فإن (آلياته وأدواته) سلاح ماضٍ لتعزيز موقف (المجادل) المنوط به الدفاع والرد وتمثل في الآتى :

أولاً: أن يكون عالماً بالعربية :

حدد الإمام الغزالي القدر الواجب^(١) من الإمام باللغة العربية بقوله: (إنه القدر الذى يفهم به خطاب العرب وعاداتهم فى الاستعمال حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه.. ومنطوقه ومفهومه وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ فى اللغة درجة الاجتهاد) وفى موطن آخر يقول: (إذا فرضنا مبتدئاً فى فهم اللغة العربية فهو مبتدئ فى فهم الشريعة.. أو متوسطاً فهو متوسط فى فهم الشريعة.. والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية فإذا انتهى إلى الغاية فى العربية كان كذلك فى الشريعة فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة.. فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم.. وكل من قصر فهمه لم يكن حجة ولا كان فيه مقبولاً) والعلم بالعربية يساعد على استخراج

الأحكام وإدراك ما اشتملت عليه من ألفاظ لها مدلولات كلفظ (القرء): بمعنى الحيض وبمعنى الطهارة وإيراد الأحكام الشرعية المترتبة على كلٍّ ، وتجويز اللغة لهذا التفسير، وكذب من قال: إن العلم بالعربية ليس شرطاً من شروط المناظرة لاسيما وأن ترجيح المعاني اللفظية بعضها من بعض يفتح مجال المحاوره.

ثانياً: أن يكون حافظاً وعالماً بالخطاب القرآني :

وذلك لما تضمنته آيات القرآن الكريم من بيان الأحكام والتشريعات الإلهية وبيان الناسخ والمنسوخ وهو أداة (جدلية) مفحمة للخصم وقاطعة للحكم وكما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : (قال العلماء إنه يجب أن يكون عالماً بدقائق آيات الأحكام في القرآن وهي نحو خمسمائة آية وعلمه بها يوجب أن يكون محصلاً لمعانيها.. عارفاً للخاص والعام فيها - وبيان السنة لها - وأن يكون عالماً بما نسخت أحكامه منها على فرض أن فيها ناسخاً ومنسوخاً.. وأنه مع علمه الخاص بآيات الأحكام يجب أن يكون عالماً إجمالياً بما عدا ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم غير منفصل بعضه عن بعض).

وقد قال الأسنوى : إن تمييز آيات الأحكام من غيرها يتوقف على معرفة الجميع بالضرورة ، ولم يشترط العلماء بخصوص الحفظ أن يكون محفوظاً كله.. بل يكفي العلم والمعرفة بمواقع آيات الأحكام حتى يمكن الرجوع إليها في وقت الحاجة والضرورة الملحة ورأى البعض أن يكون (المجادل) حافظاً للقرآن حفظاً كاملاً فاهماً لمعانيه دارساً ما اشتمل عليه من أحكام ودراسات تفصيلية تعينه على إفحام الخصم ، وقد عنى الجصاص والقرطبي رضي الله عنه بدراسة آيات الأحكام ومدلولاتها ومعرفة زمانها ومكانها والغرض منها.

ثالثاً: أن يكون عالماً بالسنة ومراميها :

والسنة قولية وفعلية وتقريرية والمجادل العالم بها والدارس لها يستطيع استيعاب الجزئيات من الكليات فمن المعروف أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع السماوي وما جاء في القرآن الكريم مجملاً جاء فيها مفصلاً.. ويجب العلم بكل السنة التي تشتمل على

الأحكام التكليفية بحيث يكون المجادل فاهما لها مدركا لمراميها عالما بقوة الرواية وطرقها وطرق الرواة وأحوال رواة الأحاديث من حيث الجرح والتعديل لأن المجادل لا يكفيه الحذق والبداهة ولكن - أيضا - يلزمه حسن الضبط والدراية ودراسة السنة بشكل عام وشامل فيه نوع إحاطة وإجادة إذ قد تعطى الأحاديث بعدا دينيا مختلفا من حالة إلى حالة أخرى ومن موقف إلى موقف آخر ، وفي القرآن الكريم إشارات تفسرها السنة وهذا واضح في قول الله تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: ٧].

ومن المفيد تتبع أفعال النبي ﷺ وموقفه من أصحابه والوفود التي كانت تتوالى عليه ومواقفه مع أهل الكتاب وبيان أن الرسالة الخاتمة جاءت جامعة ومفصلة رسمت جميع الأحكام ووقفت عند كل الحدود وفصلت كل مجمل وأحكمت كل متشابه ، واستخراج الأحكام من السنة القولية والفعلية كاستخراجها من القرآن الكريم ، ولم يشترط العلماء حفظ ما يتعلق بالأحكام بل اشترطوا معرفتها ومعرفة مواضعها - أي السنة - وطرق الوصول إليها والعلم بدرجة الحديث ولقد بُذِلَ جهدٌ كبير ومخلص في شرحها وتفنيدها والتفقه فيها والمرجعية في صحيح البخاري ومسلم وسائر كتب الصحيح.

رابعا: أن يكون قوى الحجة والاستنباط :

بديهي أن يكون المجادل عالما بالأصول، ذا قدرة على الاستنباط من النصوص المبينة للأحكام بقدر يمكنه من أن يختار من هذه الأحكام أقربها للموضوع الذي يجتهد فيه ويتعرف حكمه والمعيار المناسب لهذا الحكم والعلل التي لها تأثير في أحكام هذه النصوص.. كما يجب معرفة القياس وضوابطه ومعرفة أوصاف العلة التي يبنى عليها القياس الذي يستوعب جميع الأصول والفروع وضرورة التعرف على منهج السلف الصالح في حسن استنباطهم للأحكام وإقامة الحجج التي تستخرج بها الأحكام لإسكات

الخصوم ومثال ذلك: رد أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله على جواز قضاء الحاكم في حق من حقوق العباد قبل ولايته أو في غير محل ولايته بأن الحاكم قبل ولايته كان شاهدا لا حاكما وشهادة الفرد لا تقبل وصار كما إذا علم بالبينة العادلة ثم وَلِيَ القضاء فإنه لا يعمل بها.. وقد يستوحى المجادل من كلام الخصم ما ينبهه ويزيد من دائرة فكره والإلمام بالقضية المطروحة حتى يستوفيها ثم يعرض رأيه.

خامساً: أن يكون ملماً بالتاريخ:

وذلك لأن رصد الأحداث تاريخياً ورصد الاختلافات الزمانية والمكانية المتعاقبة ترسخ مفهوم القواعد الخلافية عند المجادل فيعلم أن الأحكام العامة والمفاهيم العامة تدرجت في بعض الأقطار أو تمازجت في أقطار أخرى.. واعتبار التاريخ شاهداً على الحضارات المختلفة التي كان يصلح فيها ما لا يصلح في غيرها وتفاوت الردود بين مجادل ومجادل آخر خلال وجود الأمم المتعاقبة واستدراك الخلل الحاصل من السابقين لتنقيته ودرء المفسد عنه وتقديمه بمعاصرة وواقعية وإقناع.

سادساً: أن يكون عارفاً بالأصول والفروع:

إن مما أوقع الناس في الحرج والشطط هو عدم فهمهم لروح الدين والشريعة فقد يبالغون ويتشددون فيما يجدر فيه اللين وقد يفرطون فيما يجدر فيه الحزم والإمساك، ومعرفة المجادل بكل ما يتصل بالدين - أصوله وفروعه - تقوى جنابه وتؤيد رأيه فما أقره الكتاب وفصلته السنة وحث عليه الشارع فهو الملتزم وإلا فلا.. فالتمسك بالكتاب دون السنة أو السنة دون الكتاب أو تجاهل الإجماع أو عدم إقرار القياس يؤدي إلى الشطط ويوقع في الجهالة ويحذر النبي ﷺ من هذا فيقول «ألا يوشك رجل شبعان على أريكته - السرير الفاخر - يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من

حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله ^(١).

ويقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» رواه الشيخان ^(٢).

ولقد نهى الإسلام عن اختيار العبادات الشاقة على الإنسان ولم يأمر بها كدوام الصيام والقيام والتبتل وترك الزوج أما إذا اشتبه الأمر على المجادل لتعارض الروايات فعليه أن يلتزم بالأحوط والأيقن فيما فيه فسحة ويسر في دين الله قال ﷺ: «يسرُوا ولا تعسُّروا وبشُّروا ولا تنفُّروا» ^(٣)، ويقول أيضاً: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» ^(٤).

كما روى كذلك أنه ﷺ قال: «لن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه» ^(٥)، والأحاديث مروية في البخاري ومسلم.

سابعاً: أن يكون عالماً بمقاصد الشريعة :

يجب على المجادل أن يعرف المصلحة الإنسانية التي يقدرها الشارع لمصلحة المسلمين باعتبارها أصلاً من الأصول المقررة الثابتة لكي يفرق بين المصالح الوهمية والمصالح الحقيقية ، وما يسعى الإسلام إلى إقراره من أمور نافعة ، أو محاربه من أمور ضارة ويوازن بينهما فيقدم ما يدفع المضرة على ما يجلب المصلحة وما ينفع عموم الناس على ما ينفع

(١) حديث صحيح : رواه أبو داود (٣٩٨٨) ، وكنز العمال (١ / ١٧٤) ، والطبراني في مسند الشاميين

(١٠٣١) ، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٦٣) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٦٩٧١) .

(٣) صحيح : رواه البخاري (٦٩) ، وكنز العمال ، السنن الكبرى للنسائي ، والمعجم الكبير للطبراني .

(٤) حسن : أخرجه أحمد (١٣٠٥٢) ، وقال الألباني : حسن [صحيح الجامع (٢٢٤٦)] .

(٥) صحيح : رواه البخاري (٣٩) ، والنسائي (٥٠٣٤) وابن حبان .

خواصهم.. والمجادل في كل حالاته: (عالما بأحوال الناس ومميزا لأعرافهم وقوانينهم والشرعية الغراء لا ينقصها شيء أبدا لأنها تستطيع التعامل مع كل الظروف والطوارئ.. ففى عام الرمادة لم يُقَمَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحدود على من اشتهى طعاما أو ثمرة فسرقتها ليسد جوعه وهذه عدالة الإسلام إذ أن المضطر لا يعاقبه الشرع ولا المكروه ولا الناسى وتلك هى الرحمة العامة التى كفلها الله تعالى لعباده فمقاصد الشريعة: بعث الطمأنينة ونشر الفضيلة وحفظ النفس والمال والعرض، وغايتها: تحقيق آمال البشر فى الحياة الطيبة والتعايش السلمى تحت راية الاعتصام بحبل الله المتين وإقامة الفرائض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. والمجادل هنا هو الحامى لهذه المقاصد بتبصير الناس وتوعيتهم وهو المكلف بحراسة الثوابت الدينية، من منطلق دراسته وفقهه وقدرته ومقاصد الشرع مرسومة ومبينة ومنصوص عليها فى الكتاب والسنة وتفهم من مجموع النصوص ولا تقف عند نص واحد أو جزئية معينة، وفهم الغرض فى الجزئيات يتوقف عليه فهم النصوص التى تكون فى الكليات. كما أن للعرف قوة - أى قوة - على المجادل أن يضعها فى الاعتبار ويبحث لها عن مناسب.

ثامنا: أن يكون مميزا و عالما بالمنطق :

ويعتبر هذا من أدوات الجدل الناجحة إذ على المجادل أن يكون قادرا على تمييز زيف الآراء من جيدها وغثها من سمينها وقويها من ضعيفها يقول الأسنوى: (يشترط أن يعرف شرائط الحدود والبراهين، وكيفية ترتيب مقدماتها، واستنباط المطلوب منها ليأمن الخطأ فى نظره) فالمجادل يناظر مجادلا آخر يسعى إلى تحقيق الظفر والنصر وله أدوات يستخدمها هو أيضًا وله معارفه وقواعده التى يجيد منها اصطياذ الخصم عند نقطة بعينها أو رأى بعينه لذلك كان التمييز بين الفروق أمرا جوهريا فى الخطاب الجدلى.. وكذلك يشترط دراسة علم المنطق لأنه العلم الذى يعرف به الحدُّ والرَّسم والبرهان ومقدماته وإن كان بعض العلماء لم يجعلوه شرطاً حيث إنهم رأوا فقهاء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وصلوا إلى المراتب العالية فى الاجتهاد والطلب ولم يكونوا على علم به ولا دراية وقال بعضهم: إنه مكروه

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى تبغيضه وأنه لا جدوى فيه؛ ولكن الأصح أنه مطلوب لكونه في ثقافة الخصم ويعد من أدواته وهو يثقف العقل ويميزه وهو ميزان ضابط يفيد عند المناظرة والمجادلة ويدفع بالحقائق أمام الباطل فيقيد الانحراف، ولكنه مع هذا كله - أى المنطق - لا يعتبر الجاهل به عاجزاً عن المناظرة والمجادلة بل يكفى فيه أن يكون قادراً على استنباط الحقائق الشرعية وتمييزها من بعضها وأن يكون حسن الفهم نافذ البصيرة واسع الإدراك ليتحقق له الغرض من هزيمة الخصم وفرض إرادته العلمية التي لا تتخاذل ولا تتهاون.. بل تسيطر وتهيمن على كل المواقف.

تاسعاً: أن يكون صحيح الاعتقاد؛

إن صحة الاعتقاد تجعل القلب مستنيراً بنور الله تعالى حتى يستطيع النفاذ إلى لبّ هذا الدين الحنيف، ويعرف طريقه إلى الحق حتى يخلص إليه فيرزق الإخلاص والحكمة ويهتدى إلى أنوار الشريعة ويُلهم إشرافات المقربين ووصل المحيين المخلصين، أما من فسد اعتقاده وأظلم فؤاده - والعياذ بالله - واندس في أهل البدع والخرافات وانغمس في الخطايا والآثام وغلب عليه هواه فهذا يسيطر على تفكيره ما يمنعه من الاستنباط الصحيح مهما كانت قوة عقله وفكره لأن النية ما دامت قد أصابها الاعوجاج فإن الفكر يتبعها في هذا الاعوجاج بالطبع ولذلك نجد أعلام المسلمين الذين ورثوا العلم جيلاً بعد جيل كانوا يشتهرون بالورع والتقوى قبل اشتهارهم بالعلم والفقه، والإخلاص مبدأ أعظم يقرب الحقائق لطالبيها وراغبها فتقع في القلوب دون تعصب أو تنصل، والمجادل على كل حال لا يفرض أن يكون خصمه هو المخطئ دائماً - وأنه وحده المحق وعليه اتباع مقولة أهل العلم والدراية: (قولنا صواب يحتمل الخطأ.. وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب) وهذا واقع يرى المجادل على حسن الطلب والاكتراث بالخصم دون استهزاء به أو تحقير من شأنه - فالخصومة الشريفة تجعل الفرد مؤمناً برسالته فيريها ويصقلها ويدعمها وقد قام على الحق فلا بد وأنه سيبحث عنه في كل مكان وحيثما وجد ووجد علماءؤه وصحة الاعتقاد تخلص

النفس من الرياء والنفاق وتعمق الإيثار في قلوب البشر لاسيما وأن الجدال رسالة يريد المجادل إرساء قواعد لها للدفاع عن الحق وليس غير الحق.

عاشراً وأخيراً: أن يكون ذاهمة وحرص:

وهذا شأن من جادل ليرفع بجداله حقاً ويمحو به باطلاً ويثبت به شريعة فعن شريح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إليه:

(إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتك عنه الرجال فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة رسول الله ﷺ ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم فتقدم وإن شئت أن يتأخر فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك).

وعن الأوزاعي قال: (كتب عمر بن عبد العزيز أنه: لا رأى لأحد في كتاب الله وإنها رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمض فيه سنة من رسول الله ﷺ ولا رأى لأحد في سنة سنّها رسول الله ﷺ).

وعن قتادة قال: (حدث ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي ﷺ، فقال الرجل قال فلان: كذا وكذا فقال ابن سيرين: أحدثك عن النبي ﷺ وتقول: قال فلان كذا وكذا).

فالحرص يمنع المجادل من سرعة التدخل لأن المناظرة قائمة على أساس من الكتاب والسنة والإجماع وهذا في مقام المناظرة قوة دافعة لإثراء الحوار واختصار الكلام وإيقاف الخصم عند حده وقد روى عن ابن عباس وعطاء ومجاهد ومالك بن أنس رضي الله عنهم أنهم كانوا يقولون: (ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ جعلنا الله تعالى من ذوى الهمم والحرص).



الفصل الثاني

أدوات الحذر

التهاون والتحريف داء مستمر في بنى آدم حتى تقوم الساعة وشأن ذلك أن يهدم كل بنيان ويأتى على كل فضيلة وقيمة فيستأصلها من الجذور لاسيما إذا كان من سادة القوم وكبرائهم وأصحاب الكلمة فيهم على حد وصف الله تعالى في شأن هؤلاء:

قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [٥٩] ﴿[مريم: ٥٩].

وفى هذا عدم اهتمام بإشاعة الدين تعلما وتعلিما وعملا والمتهاونون لا يأمرهم بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فتكون رغبة الطبائع على خلاف رغبة الشرائع لذلك وضع علماء الإسلام بعض المحاذير التي تحفظ الدين والشريعة الفراء من الضياع على ما يأتى:

أولاً: التنزه عن الأغراض^(١) الفاسدة الحاملة على التأويل الباطل كطلب مرضاة الملوك في اتباعهم الهوى لقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

ثانياً: شيوع المنكرات وترك العلماء النهى عنها وهو قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنِ الْفَسَادِ فِي

الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ
وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ [هود: ١١٦].

وقول النبي ﷺ : « لما وقعت بنوا إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسهم في مجالسهم وأكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ». رواه البخاري ومسلم.

ثالثاً: التعمق: وحقيقته أن يأمر الشارع بأمر وينهى عن شيء فيسمعه رجل من أمته ويفهمه حسبما يليق بذهنه فيعدّي الحكم إلى ما يشاكل الشيء بحسب بعض الوجوه أو بعض أجزاء العلة أو إلى أجزاء الشيء ومظانه ودواعيه وكلما اشتبه عليه الأمر التزم الأشد عند التعارض ويجعله واجبا ويحمل كل ما فعله النبي ﷺ على العبادة والحق إنه فعل أشياء على العادة فيجهر بأن الله تعالى أمر بكذا ونهى عن كذا. وهو على خلاف الشرع من ناحية الواقع.

رابعاً: تقليد غير المعصوم: يعنى غير النبي ﷺ الذى ثبتت عصمته وحقيقته: أن يجتهد واحد من علماء الأمة فى مسألة فيظن متبعوه أنه على الإصابة قطعاً أو غالباً فيردوا به حديثاً صحيحاً... وهذا التقليد غير ما اتفقت عليه الأمة المحروسة فإنهم اتفقوا على جواز التقليد للمجتهدين من العلم بأن المجتهد قد يخطئ ويصيب.. ومع الاستشراف لنص النبي ﷺ فى المسألة والعزم على أنه إذا ظهر حديث صحيح خلاف ما قلد فيه ترك التقليد واتباع الحديث قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى:

﴿ اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

(إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً اسحتلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه).

خامساً: من المحاذير ترك الأخذ بالسنة وفيه يقول عليه السلام: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدكم بیده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». رواه البخاري ومسلم^(١).

سادساً: الابتعاد عن الخلط والجدل حيث قال عليه السلام: «ما ضل قول بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، إذ الضلال هو الذي تسبب في الجدل من هذه الناحية وفي الخلط قوله عليه السلام: «لمن أراد الخوض في علم اليهود: «أمتهم كون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي»^(٢) والمتهوكون: المتحIRON والمترددون.

سابعاً: الاستحسان وفيه يقول النبي عليه السلام محذراً: «من أحدث من أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أي من جاء في ديننا بشيء لا يتفق مع أصوله فهو مردود عليه... إلا إذا قبل أهل العلم العمل بأحد وجهين:

الأول: الرواية صريحا. الثاني: الرواية دلالة.

فإذا استنبطوا وأخبروا بالمستنبطات وعملوا بالشرع فاهتدى الناس بهديهم المتوقف

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (١٨٨)، وأحمد، وكثر العمال، وشعب الإيمان للبيهقي.

(٢) حديث حسن: رواه أحمد (١٤٦٢)، وكثر العمال (١ / ١٠٠)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد،

انظر مشكاة المصابيح رقم (١٧٧).

على اتباع النبي ﷺ قبل ذلك.

ثامناً: انتحال غير عقيدة السلف أو عمل دون أعمالهم قال ﷺ: «لا تجتمع هذه الأمة على الضلالة»^(١) وقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله.. ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(٢)، من تشديد وتجاوز لحدود الشرع وزعم أن ذلك من الدين.

تاسعاً: ترك الكذب والمراء لقوله ﷺ: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣)، وقوله كذلك: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده في النار»^(٤).

وقوله ﷺ: «المراء في القرآن كفر»^(٥) والمراء هو: الجدل الذي لا يبغي الوصول إلى الحق.. ويحرم الجدل في القرآن بردّ الحكم المنصوص عليه بشبهة يجدها في نفسه.. والله أعلم.



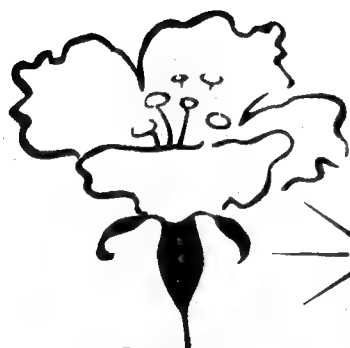
(١) انظر: تلخيص الخبير في تخريج أحاديث (٣ / ٢٩٩).

(٢) حديث صحيح: رواه البزار في مسنده (٩٤٢٣)، ومجمع الزوائد (٦٠١)، ومشكاة المصابيح للألباني حديث رقم (٢٤٨).

(٣) حديث صحيح: رواه البخاري (١٢٢٩)، ومسلم (٤)، والطبراني في الكبير (٤٩١٥)، انظر صحيح الجامع رقم (٧٤٣٤).

(٤) حديث ضعيف: رواه الترمذي (٢٨٧٦)، والطبراني في الكبير (١٦٥٠)، انظر مشكاة المصابيح رقم (٢٣٤)، والسلسلة الضعيفة والموضوعة (٤ / ٢٦٥)، وضعيف الجامع (٥٧٣٦).

(٥) حديث صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٥)، وأحمد (٧٩٧٦)، والنسائي رقم (٨٠٣٩)، انظر صحيح الجامع (٦٦٨٧).



الحب الطاهر الحلي



الأمير الأمير



الفصل الأول

﴿وَأِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ ١٩..

لم تهدأ أحقاد خصوم الإسلام يوماً من الأيام ولم يستطع أحد من الخصوم أن يمتنع عن إظهار عداوته وحقده الدفين منذ قديم الزمن وثارت ثائرتهم على القرآن والطعن فيه وكان لابن الراوندى صولات في هذا الشأن لدرجة وصلت به إلى الزندقة والعياذ بالله وقد تعرض له العالم العلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي على نحو ما ذكرنا آنفاً - وسوف نعرض رأيه ومؤلفاته لنرى ما طبع عليه من حقد وما تطاول به من كلام لا يليق بدين أو قرآن - مما مهد بعد ذلك وحتى الآن للملحدين والطاعنين للنيل من القرآن والسنة - حفظها الله - وابن الراوندى^(١) هو: أبو الحسن أحمد بن إسحاق الراوندى نسبة إلى راوند قرية من قرى قاشان بنواحي أصفهان وكان قد اشتغل بعلم الكلام حتى نبغ فيه وحتى لم يكن في زمنه أحذق منه بالكلام ولا أعرف بدقيقه وجليله منه وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام وقد انفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه في كتبهم..

وكان في أول أمره من الفضلاء في عصره حسن السيرة جميل المذهب كثير الحياء ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له ولأن علمه كان أكثر من عقله!

حكى عن نفسه فقال: مررت بشيخ جالس ويده مصحف وهو يقرأ: «ولله ميزاب السماوات والأرض» فقلت: وما معنى ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذى ترى فقلت: ما يكون التصحيف إلا إذا كان مثلك يقرأ يا هذا إنها هو:

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

(١) وضح البرهان: في مشكلات القرآن للعلامة محمد بن أبى الحسن النيسابورى ت: ٥٥٥ هـ تحقيق صفوان

فقال: اللهم غفرنا ، من أربعين سنة أقرؤها وهى فى مصحفى .. وكان هذا قبل انقلابه وزندقته .. أما السبب فى زندقته وما صار إليه أن الحمية والأنفة أخذته بسبب جفاء أصحابه وتنحيهم إياه من مجالستهم ، وصار يجالس أبا عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ويؤلف الكتب له واستغل هذا اليهودى وضعه وجفاء أصحابه له فأغراه بالمال على تأليف الكتب التى تحمل الكفر والطعن فى الدين والقرآن فهذا ديدن اليهود وعاداتهم وقد بلغت مصنفاته نحواً من مائة وأربعة عشر كتاباً منها عدة كتب فى الطعن فى القرآن ومن ذلك كتاب (التاج) وقال المعرى عن (التاج): وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً! وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة: أفّ وتفّ وجوربٍ وخفّ! قيل: وما جورب وخف؟ قال: واديان فى جهنم ، ولا بن الراوندى كتاب أسماه: (قضييب الذهب) حاول أن يثبت فيه أن علم الله تعالى بالأشياء محدث وأنه كان غير عالم حتى خلق لنفسه علماً - تعالى الله عن ذلك وجلّت عليه - وقد نقض هذا وغيره عليه أبو الحسين الخياط والجبائى والهمدانى، ويقول المعرى: وأما القضييب فمن عمله أخسر صفقة من قضييب ، وخير له من إنشائه لو ركب قضييباً عند عشائه.

وله كتاب (خلق القرآن) وغير ذلك ونذكر الآن بعض الاعتراضات والأقاويل التى ذكرها ابن الراوندى والإجابة عليها.

قال الفخر الرازى: وقد ذكر ابن الراوندى آيات زعم أنها متناقضة وأجاب عنها الشيخ القاضى عبد الجبار الهمدانى فلنذكر بعض ذلك ليستدل على جهل المعترض وركاكة عقله فقد زعم أن قوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْتَهُمُ﴾ [الجاثية: ١٧] مناقض لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

فأجاب الشيخ: بأن المراد بالعلم في الآية الأولى (القرآن) والأدلة دون العلم نفسه لأنه تعالى أطلق العلم ولم يقيده - وقد تسمى الحجة علما والكتاب علما يقال: عِلْمُ أُنَى حَنِيفَةٍ وَعِلْمُ الشافعي وإذا احتمل ذلك زال التناقض^(١) ومنها قوله: إن قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى: ٤٤].

يناقض قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]

فأجاب الشيخ: بأن قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ المراد في الآخرة عند إذلال الله لهم بالعقوبة وأراد بقوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ في الدنيا وتقسيده بذكر اليوم يدل على ذلك وأيضا: إن كان المراد في وقت واحد لم يتناقض لأن المراد فما لهم من وليٍّ ينفع ويضر، وكون الشيطان لهم وليا لا يقضى أن ينفع ويضر ومنها: ما ادعاه من أن قوله تعالى:

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] يناقض قوله تعالى:

﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩] وقوله:

﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

زعم أن من يستحوذ عليه وعلى قلبه ويصدّه عن دينه كيف يكون ضعيفا...!

أجاب الشيخ:

إن المراد بأن كيد الشيطان ضعيف أنه لا يقدر على أن يضر وإنما يوسوس ويدعو فقط فإن اتبع لحقت المضرة وإلا فحالته على ما كان فهو بمنزلة فقير يوسوس لغنى في دفع ماله

إليه وهو يقدر على الامتناع فإن دفعه إليه فليس ذلك لقوة كيد الفقير لكن لضعف رأى الملك.

ومنها: ما ادعاه المتحير من تناقض قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) ﴿[ق: ٣٨]

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ (١٠) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢) ﴿[فصلت: ٩: ١٢].

وزعم أن ذلك إذا عُدَّ زاد على الستة لأنه ذكر أنه خلق الأرض في يومين وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام وقضاها من سبع سموات في يومين وذلك يبلغ ثمانية أيام...؟.

أجاب الشيخ: أنه تعالى أراد بقوله: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

إلى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ مع اليومين المتقدمين ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ذكره وهذا كما يقول الفصيح: (سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام) ، و(جزت إلى الكوفة في ثلاثة عشر يوماً) ولا يريد سوى

العشرة بل يريد مع العشرة ثم قال تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وأراد سوى الأربعة.

وهذا إذا حصل لم يكن مخالفا لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال: ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠).

[النازعات: ٢٧: ٣٠].

فرعم أن الآية الأولى تقتضي أن يكون خلق الأرض من قبل السموات وفي الثانية يوجب أن يكون خلق السموات قبل خلق الأرض؟

أجاب الشيخ: إنه تعالى أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاهها وقد كان خلقها من قبل وإنما أراد بقوله: (دحاهها) أنه بسطها فقد كان تعالى خلقها مبسوطة قبل خلق السماء ثم بسطها بعد خلق السماء يقول المؤلف: وبلغ من جهل ابن الراوندي بأشعار العرب ومحاسن التشبيه أن قال: ما في بَيَضِ النعام من محاسن الحال حتى يصير موضع تشبيهها به؟! والعرب تناقلت ذلك والقرآن على لسانهم.

قال الراجز في الجاهلية:

كَأَنَّ لَوْنَ الْبَيْضِ فِي الْأَدْحَىٰ لَوْنُكَ إِلَّا صَفْرَةَ الْجَادَىٰ

وقال عروة:

كَأَنَّهُمْ وَقَدْ حَسَرْنَ لَوَاغِبًا بَيَضٌ بِأَكْتَافِ الْخَطِيمِ مَرَكَمٌ

وقال الفرزدق:

فجئت إلى لم يطمثن قبلي وهن أصح من بيض النعام
فجاء المؤلف بثلاثة أبيات تشهد للمعنى وأكد فيه عدم اطلاع ابن الراوندى الواسع
على لغة العرب وأشعارها.

وقال القاضي أبو على التنوخي:

كان ابن الراوندى ملازم أهل الإلحاد فإذا عوتب في ذلك قال: إنما أردت أن أعرف
مذاهبهم، ويقال: إن أباه كان يهودياً فأسلم هو.. وكان بعض اليهود يقول للمسلمين: لا
يفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه علينا التوراة^(١).. لكن حججه انقلبت عليه وطعنه
جاء في صدره وأفحمه العلماء بأجوبتهم وردودهم.. ويذكر المؤلف ردوداً على الطاعنين في
القرآن على اختلافهم ويحكي عن بعض العلماء ردوداً في ذلك.. فمنه ما قاله أبو عبيدة:

لقيني ملحد مرة فقال: يا أبا عبيدة: ﴿الَّذِي آتَىٰ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١: ٢].

وهو هذا الكتاب فأى شيء ذلك من هذا؟ فقلت: إن قبلت الحجة العربية؟ قال:
هات.. قلت: قول خفاف بن ندبة:

فإن تك خيلي قد أصيب صحيحها فعمدا على عين تيممت مالكا
أقول له: والرمح ياطر متنه تأمل خفافا إننى أنا ذلكا
وكذلك عند قوله تعالى:

﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ زَيْدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

يقول المؤلف قال بعض الطاعنين: إن صاحب الأجنحة لا يطير لزوال الاعتدال
ويكون كالجادل الذي أحد جناحيه مقصوص وأجاب الجاحظ عنه: إنه قريب معقول في
الطيران إذا وُضِعَ على غير هذا الوضع يصير ثلاثة أجنحة وفق تلك الطبيعة ولو كان

الوطواط في تركيبه كسائر الطير لما طار بلا ريش ويزيد المؤلف على جواب الجاحظ فيقول:

وكل إنسان فإنما ركبته في رجله، وذوات الأربع ركبها في أيديها والإنسان وكل سبع فكفه في يده، الطائر كفه في رجله ويجوز أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين فيكون

عوناً لهما وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ (٨١)

[الزخرف: ٨١].

قال: من عبد: إذا أنف.. فسرّه بعض علماء البصرة فقال له ملحد: وما يشبه الأنف من العابد؟ فقال: إنما أنزل القرآن على العرب.. وهذا كلامها قال خفاف بن ندبة:

وأعبد أن أسبهم بقومي وأترك دارما وبنى رياح
أولئك إن - سبيت - كفاء قومي وأجدر أن أعاقب بالنجاح
والطعن في القرآن أمر قديم وفي كل عصر يخرج بعض الزنادقة ليطعن في القرآن
فيهيئ الله تعالى رجالا للرد عن كتابه وتلقيم النابحين حجارة في أفواههم لتبقى معجزة
القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ولقد كشف علماء الإسلام زيف وضلال خصوم الإسلام بما يناسب علومهم
ودراساتهم ومجالات بحوثهم ولقد تعالت أخيرا أصوات (قبيحة) تطالب بإلغاء السنة
والاكفاء بالقرآن وجدوا في طعن السنة وطالبوا بطرحها من التشريع الإسلامي وقد
تصدى لهم العلماء بالرد فقالوا:

السنة هي^(١) الأصل الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها وهي مفتاح القرآن الكريم والنبراس الذي يهتدى به إلى كشف حقائقه
والوقوف على دقائقه وقد اتفق الفقهاء على أن كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل

(١) تاريخ التشريع الإسلامي: د/ علي محمد قاسم - د/ علي محمد الصياد - د/ علي علي تفاعلة - د/ شعبان
الكومي فايد ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م من ص ٩٤.

أو تقرير في شأن من شئون التشريع أو شئون الرئاسة والقضاء ونقل إلينا نقلاً متواتراً بسند صحيح يكون حجة على المسلمين ومصدراً تشريعياً يستنبط المجتهدون منه الأحكام الشرعية العلمية المتعلقة بأفعال المكلفين وقد استدلل الفقهاء على أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع بنصوص من القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع.

أولاً: القرآن الكريم:

تعددت الآيات الكرييات التي تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتحث على الاقتداء به في أقواله وأفعاله، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٧) [الحشر: ٧].

٢- قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢) [آل عمران: ١٣٢].

٣- قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (٨٠) [النساء: ٨٠].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) [آل عمران: ٣١: ٣٢].

٥- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) [النساء: ٦٥].

والطبراني في الكبير .

بوجه فوعظنا موعظة بليغة وَجَلَّتْ منها القلوب وذرفت منها العيون فقال رجل: يا رسول الله: كأن هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا؟ فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»^(١).

٣- عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدم بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحُمُر الأهلية ولا كل ذى ناب من السباع ولا لُقْطَة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقْرَوه «يضيّقوه» فإن لم يُقْرَوه فله أن يعقبهم بمثل قِراه»^(٢).

قال الإمام الخطابي: «أوتيت الكتاب ومثله» يحتمل وجهين: أحدهما: أن معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو.

والثاني: أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي من البيان مثله أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرح ما فى الكتاب فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن.

٤- تحدث النبوة - بما أوتيت من الغيب - على من رد السنة فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «يوشك رجل منكم مُتَكِي على أريكته يحدث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (١٦٥٢)، وكثر العمال (١ / ١٧٤)، والطبراني في الكبير (١٥٠٢١)،

انظر مشكاة المصابيح رقم (١٦٥)، والسلسلة الصحيحة (٢٧٣٥).

(٢) متفق عليه وسبق تخريجه.

الرَّكِعِينَ ﴿١٣﴾ [البقرة: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ تَنَقُّونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ٩٧].

فجاءت سنة رسول الله ﷺ مبينة لهذا الإجماع قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤].
فلو لم تكن هذه السنن البيانية حجة على المسلمين واجبة الاتباع، ما أمكن تنفيذ أوامر القرآن وفرائضه.

شبهات والرد عليها:

ورغم هذه الأدلة التى سقناها على حجية السنة واعتبارها المصدر الثانى للتشريع إلا أننا نرى رءوساً تطل بين الفيتة والأخرى من ماتت ضمايرهم وأعمى الله بصائرهم ينكرون السنة جملة وتفصيلاً وسوف نكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الشبه مقتصرين على ما يتوهمون أنه الأقوى ثم نقوم بالرد عليها.

الشبهة الأولى:

قالوا: بأن القرآن الكريم هو مصدر الأحكام الشرعية ويجب الاقتصار عليه وحده مستدلين بمثل قوله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فهذه الآيات تبين أن القرآن الكريم قد احتوى على كل الأحكام الشرعية ونص عليها بدلالاته المختلفة وبالتالي فيجب الاقتصار عليه وحده.

ويرد على هذه الشبهة بعدة أجوبة :

الجواب الأول: أنها شبهة واهية فإن اتباع السنة اتباع للقرآن فقد أمرنا الله باتباع الرسول ﷺ وبين أن طاعته من طاعة الله ﷻ حيث قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠] ؟.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

أما ما ذكروه من آيات فالمراد بها أن القرآن الكريم فيه تبيان لأمر الدين ، إما بطريق النص ، وإما بطريق الإحالة على السنة ، وإلا لتناقضت هذه الآيات مع قوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وتعالى الله علوا كبيرا عن أن يكون في القرآن الكريم أى تناقض.

الجواب الثاني: أن المراد من قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هو إكمال ما يحتاج الناس إليه من أصول الحلال والحرام والقواعد التي تقوم عليها شئون الحياة في جوانبها المختلفة أما تفصيل هذه الأحكام كالصلاة وكيفيتها والزكاة ومناسك الحج فهو مبين في السنة وقد تأتى بأحكام مستقلة غير موجودة في القرآن الكريم كما سيأتى تفصيل ذلك.

الجواب الثالث: لا نسلم أن المراد من لفظ (الكتاب) الوارد في الآيات الكريمة هو القرآن الكريم وإنما المراد منه اللوح المحفوظ إذ هو الذي سطر فيه كل شيء ودون فيه ما كان وما يكون.

الجواب الرابع: سلمنا أن المراد من لفظ (الكتاب) هو القرآن الكريم ولكن لا نسلم أن القرآن الكريم قد دل على جميع الأحكام تفصيلاً فتناول بنصوصه جميع الجزئيات على سبيل التفصيل وإنما دل عليها بطريق الإجمال فإنه أرشد إلى القواعد العامة وبين العلل والمعاني التي يلزم من اعتبارها جلب النفع والخير للناس ودفع المفسدة عنهم فثبتت بعض الأحكام بنصوص القرآن مباشرة وثبت البعض الآخر بالسنة.

الشبهة الثانية:

قالوا: لو كانت السنة حجة لأمر النبي ﷺ بكتابتها كما أمر بكتابة القرآن الكريم وإنما ثبت عنه النهي عن كتابتها حيث قال: «لا تكتبوا عني ومن كتب غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ويرد عليها: بأنها شبهة واهية لأن نهي ﷺ عن كتابة السنة في بداية الدعوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (٧٧٠٢).

١- خوفاً من التباسها بالقرآن الكريم لاسيما وأن القرآن الكريم كان ينزل منجماً آية آية وسورة سورة فمن الجائز جداً أن يلتبس الأمر على كثير من الصحابة فيضعوا الحديث مكان الآية والعكس ولا يخفى ما في هذا من خلط كبير.

٢- انصراف الناس بالسنة عن القرآن الكريم حتى تكون للقرآن المنزلة الأولى والسنة مؤكدة له أو مبينة أو تأتي بأحكام مستقلة عنه.

٣- أن الكتابة لم تكن شائعة فيهم ولم يتقنها إلا عدد قليل منهم انحصرت همتهم في كتابة القرآن الكريم والرسائل النبوية إلى الملوك علاوة على أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة بكثرة حيث كانت على قطع متفرقة من الجلد والحجارة والعظام فلو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنة لوقع الناس في حرج كبير.

على أنه قد جاء الإذن منه ﷺ بكتابة السنة لما كثر عدد الذين يكتبون وتمرست النفوس على قراءة القرآن وأمكن للصحابة تمييز القرآن الكريم عن السنة.

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن الصحابة قالوا له: إنك تكتب عن رسول الله ﷺ كل ما يقول ورسول الله ﷺ قد يغضب فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «اكتبوا عني فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق».

كما جاء الإذن منه ﷺ بالكتابة فقال للصحابة: «اكتبوا لأبي شاة» وهو رجل من اليمن يعني خطبته ﷺ يوم فتح مكة بعد أن قال الرجل: اكتبوا لي يا رسول الله.

أضف إلى ذلك أن بعض الصحابة قد اتخذ صحائف له منها ما هو مشهور كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي تسمى بـ (الصادقة) لأنها أخذت من الفم ولم يكن بينه وبين النبي ﷺ واسطة وقد ذكر أهل السير أنها تشتمل على ألف حديث كما اتخذ علي بن أبي طالب لنفسه صحيفة أيضاً.

روى البخاري عن أبي جحيفة قال: (قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب

الله أو فَهْمُ أُعْطِيَهِ رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر) وروى أحمد عن طارق بن شهاب قال: (رأيت عليا على المنبر يخطب فسمعته يقول: والله ما عندنا كتاب نقرأه عليكم إلا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة فيها فرائض الصدقة) كما روى أحمد عن أبي الطفيل: سئل على عليه السلام هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما خصنا إلا ما كان من قراب سيفي هذا فأخرج صحيفة كتب فيها: لعن الله من ذبح لغير الله.

فكل هذا لا يقدح في نبيه ﷺ كتابة السنة في بداية الدعوة ثم صدر الإذن منه ﷺ بالكتابة لبعض الناس لما زالت أسباب النهي.

الشبهة الثالثة:

قالوا: إن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ فيها الضعيف الذي لم يثبت عنه والموضوع المكذوب عليه ﷺ وهذا من شأنه رفع الثقة عن الأحاديث جميعا والاقتصار على القرآن الكريم فقط.

ويرد على هذه الشبهة:

بأنها ساقطة لأن علماء الإسلام الموثوق بهم في رواية الحديث والدراية بالرواية لم يتركوا شيئا من الأحاديث إلا وبينوا منزلته من القبول والرد وأفردوا لذلك فتا خاصا به سمي (علم مصطلح الحديث) درس فيه تاريخ الرواية ومعرفة الصحيح والمردود منها وبالتالي فليس هناك أدنى شك في الاحتجاج بالسنة واعتبارها المصدر الثاني للتشريع.

الشبهة الرابعة:

ذهب المستشرقون وعلى رأسهم شيخهم اليهودي المجرى (جولد تسيهر) إلى أن السنة لم تدون إلا بعد أن اشتد النزاع بين الأمويين وخصومهم من آل البيت والزبير بن العوام على السواء فاخترع كل فريق من الأحاديث ما يدعم به رأيه وما يكون حجة ضد خصمه

واستغل الأمويون - بدهائهم - الإمام الزهري في ذلك ولم يقتصر الأمر على وضع أحاديث سياسية لصالح البيت الأموي بل تعداه في أمور العبادات.

ويرد على هذه الشبهة:

بأن هذا اتهام كاذب للخلفاء الأمويين ولعلماء الإسلام جميعاً يناقضه الواقع الذي عرف عنهم فبعد الملك بن مروان: الذي كتب الإمام الزهري السنة في عهده ذكر ابن سعد وغيره من أصحاب السير عنه أنه كان صاحب نسيك وتقوى منذ نعومة أظفاره حتى كان الناس يلقبونه بحماسة المسجد وفي عهده تمت الفتوحات الإسلامية العظيمة.

علاوة على أن الإمام الزهري وغيره من العلماء لم يكونوا لعبة في يد حاكم بل عرف عنهم من التقوى والاعتزاز بالإسلام ما يؤكد أن أحدا منهم لم يَتَّخِذْ مطية لهوى سلطان يكتسب به رضاه ويوئس بسخط من الله.

قال سفيان بن عيينة في شأن ابن شهاب الزهري: لم يكن في الناس أحد أعلم بالسنة من الزهري، وقال يحيى بن سعيد القطان: ما بقى عند أحد من العلم ما بقى عند ابن شهاب.

وكان ابن شهاب الزهري أول من سبق إلى تدوين السنة وجمعها بعد أن كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالمدينة أبي بكر بن حزم وإلى ولاته بالأمصار أن يجمعوا سنة رسول الله ﷺ فإن أبا بكر بن حزم لم يجمع إلا جزءاً يسيراً أما الذي ثابر على الجميع وتوافر عليه وعرف عنه ذلك فهو الزهري.

وقد أجمع علماء الجرح والتعديل على توثيقه وأمانته وجلالة قدره في الحديث وما زعمه (جولد تسيهر) من صلته بالأمويين واستغلاله في وضع أحاديث موافقة لأهوائهم فمحض افتراء لا يليق برجل كالزهري في أمانته وورعه فإذا اتصل بالخلفاء أو اتصلوا به فلا يؤثر هذا الاتصال عليه إلا بالقدر الذي يقوم به نحوهم من النصح في الدين والتذكير بحقوق الأمة عليهم وما ألقاه الله على عاتقهم من واجبات لرعايتهم وما يقوم به كذلك من تأديب لأولادهم حتى يكونوا أسوة حسنة لغيرهم.

الشبهة الخامسة :

هذه الشبهة خاصة بالطعن في أحد الصحابة وكثرة روايته للحديث مع كونه أمياً وهو الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه فقد تحامل بعض الكتاب ولا سيما المحدثين منهم كأحمد أمين في كتابه (فجر الإسلام) وأبي رية في كتابه : (أضواء على السنة المحمدية) وقالوا : إنه أكثر الصحابة حديثاً ولم يكن يكتب بل كان يحدث من ذاكرته وأنه لم يكن يقتصر على ما سمع من رسول الله ﷺ بل كان يحدث عنه بما سمعه من غيره وأن بعض الصحابة قد انتقده وشك في صدقه وأنه كان محتقراً متهماً في إسلامه متشيعاً لبنى أمية.

وترد هذه الادعاءات :

بأن كثرة روايات أبي هريرة ترجع إلى ما آل إليه أمره من قوة الذاكرة فقد كان في بداية إسلامه - كما روى أئمة الحديث - سىء الحفظ فشكاً ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له : «افتح كساءك» فبسطه ثم قال له : «ضمه إلى صدرك» فضمه فما نسى حديثاً بعده قط.

قال ابن حجر بعد سياقه للحديث : (والحديث المذكور من علامات النبوة فإن أبا هريرة كان أحفظ الناس للأحاديث النبوية في عصره).

أضف إلى ذلك أن أبا هريرة كان أكثر الصحابة ملازمة لرسول الله ﷺ فاطلع على ما لم يطلع عليه غيره من أقوال الرسول ﷺ وأعماله.

قال الإمام الشافعي فيه : (أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره) وقال الحاكم : (كان من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وألزمهم له صحبة).

وأما كونه لم يكن يكتب الحديث بل كان يحدث من ذاكرته فذلك شأن عامة الصحابة إلا قليلاً منهم كعبد الله بن عمرو بن العاص ممن كان يكتب لنفسه فإن العرب قد استعاضت عن الكتابة في السطور بالحفظ في الصدور.

وأما أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ ما سمعه من غيره فهذا لم ينفرد به أبو هريرة بل

شاركه فيه صغار الصحابة ومن تأخر إسلامه فإنهم أسندوا إلى رسول الله ﷺ ما سمعوه من صحابته ولم يجدوا حرجا في ذلك لأن الصحابة كلهم عدول ولذا فقد ذهب العلماء إلى صحة الاحتجاج بمرسل الصحابي وأنه يأخذ حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ .

وأما ما روى من أن بعض الصحابة قد انتقده وشك في صدقه فإنه لم يصح شيء من ذلك وقد أجمع السلف على تعديل الصحابة ولم يعرف عن أحد منهم أنه كان يكذب الآخر أو يشك في صدقه والذي صح في ذلك أنه إن دل على شيء فإنما يدل على التعجب من كثرة ما رواه أبو هريرة من أحاديث والتعجب من الأمر لا يكون تكذيبا له أو تشكيكا في صحته.

روى مسلم في صحيحة أن أبا هريرة قال: (إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ والله الموعود كنت رجلا مسكينا أخدم رسول الله ﷺ على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق (البيع والشراء) وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم).

وأما ما ذكره أبو ريرة من أنه كان محتقرا اختلفوا في اسمه، متها في إسلامه متشيعا لبني أمية فإنه محض افتراء وتشويه للحقائق فإن الاختلاف في اسم الرجل لا يحقر من شأنه فالمرء يقدر بعلمه لا باسمه ولقبه وقد اختلف المؤرخون في أسماء كثيرة من الصحابة ولم يغض ذلك من شأنهم ولم يحط من قدرهم.

وكان إسلام أبي هريرة إسلاما خالصا لله كإسلام سائر الصحابة حيث لازم رسول الله ﷺ وانقطع للعلم ولا يضيره أنه كان فقيرا أو أنه كان من أهل الصفة الذين يأوون إلى المسجد حيث لا مال لهم ولا أهل في المدينة فقد كان هؤلاء من كرام الصحابة.

وأما ما قيل من تشيعه لبني أمية فإن كل ما ورد في هذا الموضوع لم يرد في كتب الأخبار الموثوق بها وإنما ورد في كتب الأدب وكتب الشيعة التي تتعصب لآل البيت وتحمل على كثير من الصحابة، والثابت الصحيح في هذا الأمر أن أبا هريرة لم يشترك في الفتنة بين سيدنا على ومعاوية ولم يمسه شررها من قريب أو من بعيد.

الانتقاء ووسائل التضييل :

هل ما زال التاريخ يعيد نفسه؟ أعتقد أن هذا هو الحاصل فإذا كان الإسلام قد ووجه في مبتدئه بصلف ألى جهل و غطرسة الوليد ومكر اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة ومحاولات المنافقين من إثارة للفتن وبلبله للعقول وما لاحق الإسلام أيضا من مواجهات - بعد ذلك على يد أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ثم همجية التتار وسعار الصليبيين الأوربيين ثم ما نراه اليوم من مواجهات خطيرة أيضا تشوه الإسلام وتزيف الحقائق وتدبر المكائد باستمرار ضد المسلمين من دول معروفة ليجعلنا نتمسك بعقيدتنا وديننا ونذود عن حمى إسلامنا بأرواحنا فكما كان يصنع أبو جهل في صدر الإسلام من تخويف سادات العرب من الإسلام إلى الانتقاء المبتور فيجعل من قيمة المساواة التي يدعوا إليها الإسلام قيمة تسقط عن ذوى الشرف شرفهم وتدعوا إلى مؤازرة الفقراء لفقرهم حتى أصبح يجرى على ألسنة الكثيرين أن الإسلام يدعو إلى عدم احترام الأشراف ويتملق الفقراء والعبيد والمستضعفين.. كما كان يصنع أبو جهل وأمثاله يصنع اليوم أولئك الداعون إلى مناهضة الإسلام بشعارات مضللة وإطلاقات تافهة وتجنيد - خونة - يتملقونهم ويقدمون لهم أنفسهم قرايين!!!

فلقد أثارت إحدى الأمريكيات وهى ناضرة بالمدارس الثانوية حفيظة المسلمين

حينما ادعت أنها تحولت عن الإسلام إلى المسيحية لهذه الأسباب :

الأول: لأنها وجدت أن القرآن كرم العذراء مريم وفضلها على نساء العالمين وهى

تصدق القرآن وتنجذب إلى ابنها المسيح ﷺ؟! والآية التى تفضل السيدة مريم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ [آل عمران: ٤٢].

والرد هو :

أنها إذا صدقت بهذا المنزل في القرآن أفليس الإيذان بما أنزل عليه القرآن وهو محمد صلوات الله عليه من باب أولى؟! خاصة وأنه جاء بما أكد الإيذان بجميع الأنبياء والرسل حيث :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الثاني: وأنها وجدت أن المعجزات التي قدمها السيد المسيح عليه السلام والتي عرفتها من القرآن معجزات لم يأت بها أى نبي آخر! ومن أجل تلك المعجزات المتفردة تحولت عن الإسلام؟!.

والرد هو :

أنها كشفت انتقائيتها الضالة المضلة فتكون كمن يتلقى قول الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣].

فينتقى منه ما يوافق هواه فيقول: إن القرآن ينهى المؤمنين عن الصلاة؛ لأن القرآن ذاته والذي تصدقه أثبت المعجزات العظيمة والتي تفوق الحصر والعدد ولا حول ولا قوة إلا بالله؟! وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿أَفْتَوْهُمْ مَنْ يَبْعِثُ الْكِتَابَ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

الثالث: وأنها وجدت أن الإسلام لا يحترم مشاعر المرأة وأباح تعدد الزوجات بينما المسيحية تحترم تلك المشاعر وهذا الرباط المقدس ، ولا تسمح بتعدد الزوجات؟!.

والرد هو :

أن الإسلام أباح ذلك لمصالح عليا وحكم بالغة وحفظ للأعراض والأنساب والنوع وتأکید للتوازن الإنساني وشرط ؛ لذلك شرطا بقوله:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

وَحَثَّ عَلَى الْعَدْلِ الْمَطْلُوقِ أَوْ الْمُمْكِنِ يَقُولُ:

﴿ وَلَنْ مَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

وخير للمرأة في أشد الحالات أن يكون لها ربع رجل خير من أن تكون مشاعا للرجال.

الرابع: وأنها وجدت أن الإسلام منح الرجل حق التطليق للمرأة وفي هذا إهدار لكرامتها...؟!.

والرد هو :

أنها لم تعرف شريعة الإسلام ولكنها اعتمدت على افتراءات المبشرين والمستشرقين والمتعصبين ولم تعرف أن الإسلام أحاط الزوجة بسياج الرحمة وأحاط الأسرة بكامل العناية وجعل الطلاق آخر الحلول عند تعسرها وأنه أبغض الحلال إلى الله ﷻ قال تعالى:

﴿ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠].

[النساء: ١٣٠].

الخامس: وأنها وجدت أن الإسلام يجعل للرجل ضعف ما للأنتى في الميراث مما يعد إجحافاً بالمرأة؟!.

والرد هو :

ألم يكن في إدراك المرتدة أن تفكر قليلاً في الحكمة من ذلك لتعلم أن الرجل هو المسئول عن المرأة من كل الوجوه ومنها وجه الإنفاق ولو أنه ورث من أبيه مثلاً ستة آلاف جنيه وله أخت شقيقة فأخذ ضعفها وهو أربعة آلاف جنيه وأخذت هي ألفى جنيه وأراد هو أن يتزوج أفليس هو الذى سينفق على زواجه من هذا المال على من ارتضاها - أما إذا زوّجت أخته أفليس زوجها هو الذى سينفق عليها من ماله ويبقى لها كامل الميراث - عجباً؟!.

السادس: وأنها وجدت أن الإسلام (حقّر) من شأن المرأة فجعل شهادتها نصف شهادة الرجل؟!.

والرد هو :

أن هذا رحمة لها إذ أن الشهادة تتطلب المشاهدة والمعاينة وهذا متاح للرجل ويشق على المرأة أيضاً فإنها تحيض وتحمل وترضع مما يتسبب في إضعاف قوتها وتحملها ما لا تطيق فعافاها الإسلام من هذا الجهد المضنى؟! مع أن الإسلام حفظ لها حق الشهادة بما يتناسب مع حالها فقال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ قَرَّبُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

السابع: وأنها وجدت: أن القرآن يحث على الغزوات وقتل البشر لمجرم عدم انتماء إلى الإسلام حتى انتشر الإسلام بحد السيف أما المسيحية فتدعو إلى التسامح والهدوء الرسول عندما حاول رفع سيفه للدفاع عن المسجونين قبل

والرد هو :

أنه ليتها قبل ترديد هذه الأكاذيب والشبهات راجعت بعض ما كتبه المنصفون من مفكرى الغرب والشرق المسيحيين في هذا الموضوع لتعرف أن الإسلام حث على الجهاد للدفاع عن الدين والنفس حيث قال تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]

أين ما قيل عن نشر الإسلام بحد السيف والقرآن يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٦١].

وبلغ بها الأمر أن سوغت لنفسها اتهام الإسلام بفرض الجزية على غير المسلمين بينما لا يفرضها على المسلمين: - وغرقت بذلك في بحار جهلها وتردّيها - ولو أدركت لعلمت أن الجزية كالضريبة التي تتعامل بها الدول لحماية (الأقليات) التي تعيش في كنفها وهى أمور سائدة ولها شروطها وظروفها وأحكامها؟! ثم زعمت: أن حديث الجنة يكسر عن الجنس والخور والغلمان؟! وجهلت - ولها عذرهما - أن هذا من النعيم الذى فضل الله به من رضى عنهم ورضوا عنه غير كثير ممن ينتظر المطيعين فى الجنات!! وما ينتظره أمثالها من العذاب فى النار؟!.



الفصل الثاني

تعليق عام

عندما نراجع ما كتبه الاستشراق عامة نجد أن هناك إجماعاً على الوقوف في وجه القرآن الكريم وإنكار مصدره الرباني والقول بأنه من عمل محمد ﷺ. ويحيى هذا الرأي تعصبا ضد القرآن ونبيه أو عجزاً عن فهم الوحي في تقدير الباحثين الذين يعتمدون النظرية المادية أو في التشابه مع موقف الفكر المسيحي الذي يرى أن الإنجيل ليس كتاباً من السماء وإنما هو من عمل الرسل والشك في إلهية القرآن هو ما رددته المستشرقون وتأثر به كثير من الكتاب والباحثين العرب أمثال طه حسين، وزكي مبارك، وغيرهما، ثم هم يذهبون إلى القول بأن النبي استقى مادة القرآن، ولا سيما قصصه من الأحبار والرهبان الذين كان يلقاهم أو يتصل بهم في مكة؛ ولكن هذه الشبهات سرعان ما تتبدد عندما نقارن بين روايات التوراة والإنجيل ورواية القرآن لقصة من القصص حيث يبدو عمق الخلاف نجد في القرآن صياغة على نسق عال من البيان والحكمة وبيانات أعمق وأوسع هي فارق بين البيان الرباني وبين القصص البشري.

أولاً: القرآن يتميز بالصدق المطلق ويتميز بالتماس العبرة والبعد عن التفصيلات الأسطورية ويرتفع عن سذاجة العرض إلى قدر من الحكمة يتفق مع النظم القرآني الذي بدأ به دخول البشرية في عصر الرشد الفكري وعصر الرسالة الخالدة وما يردده المستشرقون ليس جديداً فقد رددته في كل عصر خصوم الإسلام وقيل في عهد النبي ﷺ نفسه عرض له القرآن وأشار إليه وكشف زيفه، وكان مشركوا مكة يزعمون أن القصص الذي جاء بها القرآن إنما تعلمها محمد من نصراني أعجمي اللسان كان بمكة وقد رد القرآن على زعمهم في سورة النحل.. ويردد هذا المعنى (جولد تسيهر) المستشرق اليهودي (وبلاشير) في كتابه (معضلة محمد) وغيرهم وجميعهم يشيرون إلى ما جاء في العهد القديم أو الإنجيل ويشيرون

إلى رحلات النبي ﷺ إلى الشام وغيرها ويردون إليها ما ورد في القرآن من قصص.

ثانياً: حاول (جولد تسيهر ، ونولدكه) الادعاء بأن القرآن حُرِّف بعد وفاة محمد

ﷺ فيدعون أن اسم الرسول ﷺ قُسم أو قُتامة ثم أُبدل وصار محمداً لتيسير وضع

الآية: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ولقد كان للرسول ﷺ أسماء كثيرة ولقد التقط هذا الاسم مما جاء في الروايات

التي تروى عن محاولة جده عبد المطلب في إطلاق اسم قُسم عليه قبل اختيار اسم (محمد)

وتشير روايات المستشرقين المبطلّة إلى ما كان يجهد له النبي ﷺ في حالة الوحي فيصورون

هذا بأنه نوبات من الصرع فيقولون: أنه كان عليه الصلاة والسلام يفقد وعيه ويسيل منه

العرق وتعتريه التشنجات وتخرج منه الرغوة فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه

ما يزعم أنه وحي من الله.

ولا ريب أن مسألة الاتصال البشري في الرسول بالملائكى في جبريل إبان الوحي من

الأمر الخطيرة التي تحدث عنها العلماء والباحثون والتي يعجز عنها مفهوم العلم المادى فإذا

أضيف إلى ذلك التعصب والتحيز والتماس العيب للبراءة كانت على هذه الصورة التي

يردها بعض متعصبى المستشرقين.

ثالثاً: ذهب بعضهم إلى البحث عن الحروف المفردة في أوائل بعض سور القرآن وقال

نولدكه: إنها اختصارات لأسماء مالكى النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في

مصحف واحد وهو استتاج باطل وساذج وذهب أدوارد جوستر إلى أن هذه الحروف

المقطعة ليست إلا اختصارات للأسماء القديمة للسور ولا ريب أنها لو كانت أسماء السور

لوجب أن توضع قبل البسملة لا بعدها ولو كانت كذلك لعرضها المفسرون الأوائل

وأشاروا إليها وواضح أن المحاولة ترمى كلها إلى هدف واحد هو اعتبار هذه الحروف

المقطعة ليست من الوحي وأنها عمل متأخر عن زمن الرسول والواقع غير ذلك تماماً وأن

هذه الحروف هي من صلب القرآن الكريم وأن هذه الحروف قد وردت على لسان النبي ﷺ ومن صميم الوحي وقد ادعى لويس جارديه والأب قنواي في كتابهما (فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام) أن عثمان بن عفان أقبل إلى القرآن في خلافته فقسمه إلى سور وآيات ورتب السور وراء بعضها حسب طولها فأطولها أولاً ثم ما دونها طولا وهكذا وهذا القول ينسب إلى سيدنا عثمان ما ليس واردا بالتحقيق ؛ لأن ترتيب سور القرآن الكريم أمر توقيفي تم في عهد النبي ﷺ ولم يحدث تغيير له أو تبديل له من بعد ولقد حاول بعض المستشرقين ترتيب القرآن ترتيباً آخر يختلف عن الترتيب القرآني الأصل ومنهم وليم موير، وفيل ورودويل وقد باءت محاولتهم بالفشل وهناك من حاول أن يشكك في لغة القرآن ذاتها وحاول أن يرميها بأنها لا تتميز بالعصمة واستند في ذلك إلى بعض روايات حاول استخراجها من الروايات الضعيفة حاول بها إثارة الشبهة بأن هناك فقرات لم يتفق أصحاب النبي ﷺ فيما بينهم عليها ولا ريب أن هذه محالات باطلة لا يعتد بها.

رابعاً: هناك محاولة القول بأن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للإصلاح اتجه إليها النبي نتيجة لما رآه من فساد النظام الطبقي عند قومه في عصره وأنه من أجل ذلك لجأ إلى التخويف بيوم القيامة لكي يرغب المعارضين في الإصلاح ومن ذلك الحديث عن المطففين والهمزة واللمزة ونهيه عن قهر اليتيم ونهر السائل وأن محمداً قد تأثر بالوضع الاجتماعي في مكة تأثراً شديداً ولا ريب أن هذه المحاولة باطلة في أساسها إذ أن هذا النظام الكامل الجامع الذي جاء به القرآن الكريم وحيا من الله إلى رسوله محمد ﷺ حين يدرس دراسة عميقة فإن الباحث المنصف يجد فيه منهجا متكاملا جامعاً رباني المصدر بما لا يقدر بشر على تنسيقه على هذا النحو وهو في قدرته على البقاء غصاً طرياً مع تغير الأزمنة والبيئات وعطائه المتصل في كل عصر وبيئة وعدم اصطدامه بالمتغيرات والتحويلات ليؤكد كذب الادعاء بأنه من صنع بشر ومهما قال المستشرقون في تأثر النبي ﷺ بتعاليم اليهود والنصارى وهو ما لم يحدث لسبب أساسي هو أن النبي ﷺ كان لا يعرف القراءة

والكتابة فإن التوراة والإنجيل لم يرد في أحدهما مثل هذا النظام الذى قدمه القرآن وأن القرآن الكريم فى مفهومه للتوحيد الخالص يختلف معها فضلا عما قدمه من مناهج: منهج المعرفة، ومنهج السنن الكونية و سنن الحضارات والأمم فإن ذلك كله لا يوجد منه شىء فى كلا الكتابين المدعى أن الرسول محمدًا ﷺ قد اطلع عليها.

خامسًا: فساد القول بأن القرآن أسير السجع والقافية كما يقول (لويس مارسيه) فإن فى القرآن أساليب متعددة وأسلوب السجع واحد منها والقرآن له طابع خاص معجز مختلف أشد الاختلاف عن التأثير بسجع الكهان فى الجاهلية ويختلف عن الشعر كلية حتى قيل عنه: (والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة).

ثم كانت ترجمة القرآن من خيوط المخطط الذى بدأه الغرب المسيحي بعد الحروب الصليبية تحقيقًا لتوصية (لويس التاسع) وفى محاولة لتحطيم رأى العام الذى أخذ يتكون فى أوربا نتيجة لمقولة العائدين من المعارك فى الشرق والذين تحدثوا عن سماحة الإسلام فى التعامل مع الغزاة وعظمة الإسلام فى الأداء الحضارى مما أزعج الكنيسة ودفعها إلى العمل على مقاومة ذلك عن طريق ترجمة القرآن وتفسيره على النحو الذى يثير التكذيب لرسوله والتشكيك فى سلامته بقول أحد الباحثين أنه بعد الغارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية بل على العكس قد نتج عنه أن تركت حضارة المسلمين ومقوماتهم وطرق معيشتهم تأثيرا ملموسا فى الصليبيين وعند ذلك قامت الأصوات تدعو إلى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية فى محاربة الإسلام وفى مقدمة هؤلاء بطرس المحترم سنة ١٧٥٦ الذى أوفد إلى أسبانيا وسنحت له الفرص للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا الذين يرون أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومن أجل معرفة آراء الخصم جيدا تقرر ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية وتعد أول طبعة لنص القرآن تلك التى نشرها (باجانيتى) فى البندقية عام ١٥٢٠، وقد أحرقت جميع نسخها فى الحال بأمر من البابا بولس الثالث ثم أصدر البابا إسكندر الرابع

أمرا بمنع طبع نص القرآن وترجمته وحتى عام ١٦٦٧ لم يحسر القس الألماني إبراهيم هيكلمان على طبع ترجمته التي نشرت ١٦٩٤ والتي قال في مقدمتها: إنه من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية في الشرق وهكذا نجد أن المنطلق في ترجمة القرآن كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الغربيين القدرة للتعرف على الجوانب التي يستطيعون منها مهاجمة الإسلام ومجادلة المسلمين. ومن هنا نجد أن جميع المستشرقين الذين كتبوا بعد ذلك أبحاثهم اعتمدوا هذه الوجهة وهذه الطريقة وكانت منطلقاتهم جميعا الإدعاء بنصرانية الأصل أو يهودية الأصل الذي جاء منه القرآن وماذا اقتبس محمد من التعاليم اليهودية وأن الإسلام من بنات أفكار محمد وأن القرآن من تصميم محمد هكذا نجد كتابات (بوهل) عن مادة محمد في دائرة المعارف الإسلامية (وتويني) في بحث التاريخ (ووارنر وجايجر وبوري) كلهم يجرون في طريق واحد لا يصدر عن أسلوب علمي؛ ولكن عن هوى وتعصب قوامه الزعم بأن القرآن من تأليف محمد وأن الرسول أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بهما ويقول بروكلمان: إن النبوة كانت أمرا يتوقعه الرسول والذي كان يكلمه هو صديق له. واتفاق المستشرقين في ذلك كله ليس عفويا بل هو استنتاج متفق عليه على حد تعبير محمد أسد حين يقول: يظهر من بحوثهم وكأن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع من البحث العلمي، بل أنه متهم يقف أمام قضائه، وقد رد مفكرو الإسلام على هذه الشبهات جميعا وزيفوها ومما قالوا: أنه لو كانت التوراة والإنجيل مصادر للقرآن كما يزعمون لكان اليهود أعرف الناس بهذا وهم من هم خبثا وحقدا على كل نبي ورسول ولقد كانت صداقتهم بالمشركون فرصة لمساعدتهم في الطعن بوحى القرآن وبيان مشابهته للتوراة لو كان ذلك به أدنى ذرة من الصحة بل لقد شهد بعض كتاب الغرب بفساد رأى الاستشراق يقول العالم أرتست في كتابه (الإسلام والمسيحية الحقيقية): أن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الأناجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله إن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين المسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء (بولس) ذلك المارق اليهودى المسيحى وشرحه

الصحف المقدسة على طريق التجسيم وأن (بولس) هو واضع ذلك المزيج من القصص والأحاديث المتعارضة ومن هنا فإن هناك اختلافاً أساسياً من حيث الأسلوب لأن لكل إنجيل كاتباً (لوقا - متى - يوحنا - مرقس - برنابا) ومن هنا جاء القرآن الكريم مخالفاً لهذه الأناجيل والتوراة مادة وأسلوباً.

أما الذين يدَّعون بأن القرآن مصدرًا من الإنجيل والتوراة فإنهم يجهلون ما أورده القرآن الكريم من أصول جديدة لم ترد في الكتابين ومن تفاصيل في بعض الأحداث لم يعرفها اليهود والنصارى فقد أخبر القرآن الكريم بأشياء ما كان يعلمها أحد حتى أهل الكتاب أنفسهم مع أنها تتعلق بصميم مسائل دينهم فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن كفالة زكريا للسيدة مريم بعد ولادتها كذلك فقد أخبر القرآن الكريم بأشياء كثيرة تحققت تحقفاً تاماً بعد الإخبار بها منها إخباره عن انتصار الروم بعد انخراطهم وكان الفرس قد غلبوا الروم عام ٦١٠ وأن دولة الروم كانت مختلة مضطربة بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلبة ومع ذلك فقد أخبر القرآن الكريم بانتصار الروم في بضع سنين - والبضع ما بين الثلاث والتسع - كذلك فإن القرآن الكريم أخبر بأمور ما عرفت إلا في العصر الحديث وما كان أحد يعرفها أو يؤمن بها إلا المسلمون ولم يرد بها أى إشارة من علم في التوراة أو الإنجيل ومن ذلك إخباره بانخفاض الضغط الجوى في أعلى الجو:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٢٥] (الأنعام: ١٢٥).

وكذلك الإخبار عن اهتزاز الأرض عند نزول المطر عليها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]

وفي القرآن الكريم أمور لا يمكن أن تنسب إلى الرسول ﷺ ؛ لأنها تحوى معاتبته

على تصرف من التصرفات وما كان للرسول أن يكتب القرآن ثم يعاتب نفسه وذلك في أمر إطلاق أسرى بدر وفي مسألة الأعمى وفي مسألة الصلاة على المنافقين وفي مسألة زينب بنت جحش أما الزعم بأن النبي ﷺ أخذ من التوراة والإنجيل وتأثر بأسلوبهما فأبسط الرد عليه أن ما في القرآن الكريم مخالف للتوراة والإنجيل مخالفة تامة وهناك أمور فيها مخالفة جوهرية وذلك شأن مريم وعيسى ومعارضة القرآن للتثليث والصلب والخطيئة أما الزعم بأن النبوة أمر كان يتوقعه الرسول ﷺ ويرغب فيه وبأن النبي كان له صديق يكلمه فإن الأخبار الثابتة الصحيحة لم ترد مطلقاً بأن النبي كان يرجو أن يكون النبي المنتظر ولو كان لدونه المحدثون والمؤرخون كما دونوا عن أمية بن أبى الصلت بل لقد صرح القرآن الكريم:

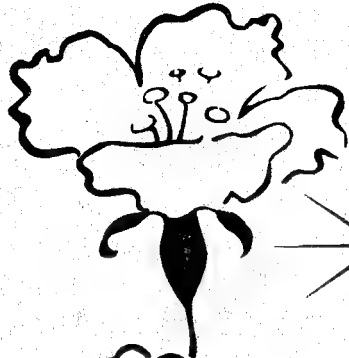
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ [القصص: ٨٦].

وقد شهد أعداؤه جميعاً له بالصدق وخاصة أبو جهل ولو كان شيء من ذلك صحيحاً لكان كفار قريش أدرى به من (بروكلمان) ومن شايعه وكان يكون من أكبر الحجج بين يد المشركين والمنافقين واليهود كذلك فقد برأ القرآن الكريم الرسول من أن يكون له من يعلمه:

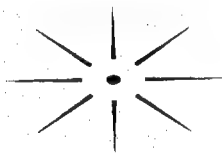
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ [النحل: ١٠٣].

كذلك فقد كشف الباحثون مقطع الأمر في قضية المفردات الأجنبية التي التقطها المستشرقون ليلمزوا القرآن بأن عريته ليست كاملة فهذه الكلمات التي تبدو أجنبية وهي ليست كذلك إنما جاءت عن طريق الاشتراك في أصل اللغات العربية القديمة أو اتصلت عن طريق النقل والتعريف بالتجارة والأسفار والمجاورة واستعملت في اللغة استعمالاً جارياً وفق قوانينها ولهذا استعملها القرآن الكريم وخاطب بها ربنا العظيم عباده بلسانهم لأنه لا يعقل أن يستعمل القرآن الكريم كلمات غير عربية وغير مفهومة عند العرب ثم يخاطبهم القرآن بها ويسميه عربياً مبيناً ليكلفهم بعد هذا كله شيئاً لا يفهمونه.

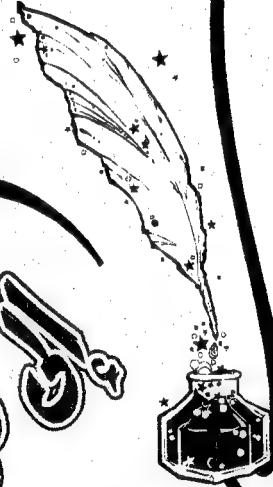




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمد لله رب العالمين



الفصل الأول

حتمية الدفاع..!

إن المهجوم الشرس والاعتداء الظالم على الإسلام والمسلمين من قبل أعدائه لم يعد قسراً على اليهود وشركائهم ولكنه تعدى إلى الملحدّين المتأسلمين الذين شايعوا خصوم الإسلام وقدموا لهم كل العون والمدد فطعنوا في عقائده وشرائعه وأحكامه ورموزة وطعنوا كالعادة في القرآن الكريم وأعلن بعضهم أن الالتزام بالآيات الصريحة يؤدي إلى الظلم والفوضى والفساد وأن الخروج عليها ومخالفتها أمر ضروري؟ كما أعلنوا طعنهم في السنة وزعموا أنها لم تعد تصلح لشيء وأن الرسول ﷺ على حد قولهم لم يثبت عنه سوى ستة عشر حديثاً فقط!! وأن كل كتب السنة بما فيها البخاري ومسلم مزورة ومكذوبة ولا يصح منها شيء؟

وبالتالي تم توجيه الطعن للشريعة الإسلامية والطعن في الصحابة رضوان الله عليهم وقال أحدهم بكل بداءة وصلف: إن أبا بكر من وُضَّاع الحديث الذين لا دين لهم ولا خلق! وأن عبد الله بن عباس قد سرق أموال المسلمين من بيت المال!! وعمل الطاعنون بجدية على تزوير التاريخ وتغييره كذبا وبهتاناً لصالح مخططاتهم الشريرة والمعلنة وغرضهم من ذلك تقويض الدين الإسلامي كله عن طريق تشويه صورته وتدعيم الاتجاهات المنحرفة عنه!! وقالوا: إن التاريخ الإسلامي ما هو إلا أوهام ويجب تحريره من تلك المقدسات غير المقدسة؟! وأن التاريخ الإسلامي يتناقض مع موجبات العقيدة الإسلامية؟ وأن التنفيذ العملي لقيام المجتمع الإسلامي كان يوجد بينه وبين العقيدة الإسلامية تناقضات كثيرة؟!..

ماذا يبقى إذن؟..!

أصبح من المحتتم - أن ندافع نحن المسلمين - عن ديننا وأن نُجمع أمرنا للتصدي والدفع؟ فلقد بات الأمر واضحاً والنوايا واضحة؟ وذاكرة التاريخ لا تنسى صحابة

رسول الله ﷺ الذين ذادوا عن حمى الإسلام وصيانتها؟ ذاكرة التاريخ لا تنسى التابعين الذين ذبوا أعداء الإسلام؟ ذاكرة التاريخ لا تنسى ذوى الهمم العالية والقيادات الراشدة المؤمنة الواعية!! يقول الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ويقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣].

لم تعد الشعارات وحدها تكفى لحماية الأمة بل إن النزول إلى الميدان ومواجهة الواقع والتمسك بالشعائر وإبراز السلوكيات الإسلامية وتجميع القوى ودفع الطاقات وبذل المهج هو الدافع الأول لإسكات (الملاحدة وأعوانهم) فليس في القرآن الكريم آية واحدة فيها ذكر الإيمان إلا وأشار إلى العمل ، وهو في الإسلام يعنى كل شئ يقوم بالحياة وتقوم به الحياة فهو حركة وتفاعل ، هو قوة وعلم ، وهو جهاد ونضال ، وهو البحث عن الحق؟!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

يسمى بـ : (المراجعة والمواجهة) وتولد عن هذه المغالطة مذاهب وأفكار زادت في تعميم الحقيقة ويظهر أن التحقيب الملائم لتاريخ نزول الإسلام ومن ثم لتاريخ جذور المواجهة - حسب السياق القرآني هو التحقيب الثلاثي البارز.

الحقبة الأولى: حقبة الإسلام الفردي وتبتدئ بنزول آدم عليه السلام إلى الأرض وانتقال الرسالة منه إلى أبنائه وأحفاده من بعده.

الحقبة الثانية: حقبة الإسلام القومي وفيها بعث عدد من الرسل إلى أقوامهم فأرسل نوح إلى قومه.. وهود إلى قومه.. وشعيب إلى قومه.. وإبراهيم إلى قومه.. وموسى إلى قومه.. وهكذا.

الحقبة الثالثة: حقبة الإسلام العالمي وهي التي أرسل فيها محمد عليه السلام إلى العالمين كافة.. فكان آخر الرسل وخاتم النبيين.

ما تميزت به كل حقبة :

١- تميزت حقبة الإسلام الفردي بظهور العصيان والتمرد على أوامر الله عز وجل كما شخصها النقاش الذي دار بين ابني آدم عليه السلام (هابيل وقابيل) عندما خاطب المؤمن منهما أخاه العاصي بقوله: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

فالمؤمن منهما لم يكن ضعيفا وإنما كان خائفا من الله رب العالمين فالخوف هو الذي منعه من الظلم ومن عصيان ربه فاختر أن يموت قتيلا بدل أن يعصى الله ويعتدى على نفسه بالقتل، هذا المشهد العجيب والمثل الرائع في الخشية من الله يحدد لنا أن المواجهة بدأت بالعصيان.

٢- تميزت حقبة الإسلام القومي بالتطور التالي:

* ظهور الكفر صراحة على شكل قوة مذهبية (إيديولوجية) منظمة (لها قيادة) ومواجهته للرسول والمؤمنين الأولين والإعلان عن عداته الشديدة لهم.

تدخل الحق سبحانه مباشرة وبدون واسطة بشرية لتدمير وإبادة سلطة الكفر وقوته وتنظيمه (فمنهم من أباده بالطوفان ومنهم من أباده بريح صرصر ومنهم من أباده بالرجفة... إلخ).

* ظهور بوادر قوة بشرية في شكل تنظيم إسلامي ومواجهتها للقوة الكافرة (التنظيم الكافر) لأول مرة في التاريخ وهي القوة أو التنظيم الذي قاده طالوت ضد تنظيم جالوت ، ويشير هذا الحدث الأول للمواجهة بين التنظيمين أن التنظيم الإسلامي كان أنقن بناء وأحكم تنظيمًا ويشير إلى عنصر القوة في هذا البناء والتنظيم في وقته وهي عناصر: العلم والقوة البدنية (المادية) والقوة المالية والتشبع بالإيمان ثم الطاعة ثم التوكل ثم الصبر هي العناصر السبعة التي كونت مُركَّب القوة وأسقط القرآن ببراعة هائلة عنصر الكم العددي فلم يحسبه من عناصر القوة مطلقاً عندما أشار ﷺ بقوله:

﴿فَسَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فتبين أن طالوت كان على رأس تنظيم قليل العدد وجالوت كان على رأس تنظيم (جيش) كثير العدد هذا إلى جانب عنصر التخطيط في المعركة الذي هو طبعاً من أهم عناصر القوة وبذلك انتصر طالوت بقلته على جالوت بكثرته وكان الحاسم في هذا النصر هو التفوق بعناصر القوة الحقيقية وليس بالحكم العددي لهذا نرى طالوت يجرى آخر اختباراً على تنظيمه ويقوم بمراجعته قبل الدخول في المعركة مع الخصم عندما اختبرهم

بالنهر ومنعهم من الارتواء منه إلى حد الكفاية ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ وكان هذا الاختبار بالنهر أمراً ربانياً ولذلك معناه الكبير في تنبيه القرآن الكريم لنا إلى

معرفة عناصر القوة والعمل بها واختبار هذه القوة.

كانت هذه مرحلة تمهيدية لظهور العالمية الإسلامية التي تغير معها قانون المواجهة بين الإسلام والكفر حيث لم يعد يستند على تدخل القوة الربانية وحدها اتكالا دون الأخذ بالأسباب الدافعة لهذه القوة والمنظمة لها وأصبح يستند على القوة البشرية المؤمنة المنظمة ولعل ذلك يرتبط بقانون العالمية الإسلامية نفسها و(بقانون التطور في نفس الوقت) وفي إطار هذا المتغير الجديد الذي أصبحت فيه مسؤولية إخضاع الكفر على كاهل المسلمين تحدد قانون العمل بمبدأ إنشاء الأمة التنظيم عند مجيء العالمية الإسلامية لأنه من غير المعقول أن تكون أمة رسالية وتكون أمة قائمة على مبدأ التشتيت الفردية فالإسلام نظام التنظيم ومن عرفه غير ذلك فقد جهله.

٣- تميزت الحقبة الثالثة : من تاريخ نزول الإسلام بمجىء العالمية الإسلامية واختار الله ﷻ لهذه العالمية:

(أ) الإسلام ديناً: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] والآيات كثيرة.

(ب) وعهد نبياً ورسولاً: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [النساء: ٧٩] والآيات كثيرة.

(ج) القرآن الكريم كتابا: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ [البقرة: ٢].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: ١٧].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾

[الفرقان: ١] والآيات كثيرة.

كما تميزت الحقبة العالمية هذه بإعلان القرآن الكريم عن تنظيم بشري إسلامي لأول مرة في التاريخ يتحمل مسؤولية نقل رسالة الإسلام إلى الناس كافة في جميع العصور:

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويحدد القرآن الكريم الصفة التنظيمية الحركية صراحة في المرحلة التي كان يتأسس فيها هذا التنظيم فيقول ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢].

ويحدد بعد ذلك مباشرة أن الإيمان الحق هو الذي يتجلى في الصورة التنظيمية الحركية النضالية فيقول:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

هكذا تحدد هذه الآيات الكريمة بوضوح كامل العناصر التي يقوم عليها هذا التنظيم الإسلامي الجديد إنها: الإيمان - الهجرة - الإيواء - النصر - الجهاد بالمال - الجهاد بالنفس. ويشير قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

إلى مضمون التنظيم وعلاقته كسنة ربانية بالنصرة باعتباره شرطا أساسيا في تحقيق النصر، وبالتالي يقدم لنا القرآن الكريم التنظيم كشرط قانوني في النصر وبينها بالنتيجة إلى ضرورة العلم بذلك كما يبينها أحيانا إلى أن المسلمين لا يجب عليهم أن يدخلوا في المواجهة مع الكفر حتى يصبح عددهم عشر التنظيم الكافر على الأقل:

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾﴾ [الأنفال: ٦٥]

أما إذا أصبحوا يكونون نسبة بالنصف فتلك نسبة مريحة تفرض عليهم التصرف وفق هذه النسبة.

وبينه القرآن الكريم كذلك أن البذل (الجهاد بالمال) في المرحلة التأسيسية للتنظيم والتي هي أصعب مرحلة في المواجهة أى في المرحلة ما قبل النصر (الفتح) ما قبل الاستخلاف: هو البذل الحقيقي المطلوب؛ لذلك استحق صاحبه أعظم درجة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

كل هذا وغيره يؤكد أن العالمية الإسلامية تأسست على قانون جديد هو قانون الأمة التنظيم باعتبارها تأسست منذ البداية أمة رسالية مسؤولة عن نقل الإسلام إلى شعوب العالم (كما أنها مسؤولة عن حماية هذا الإسلام) وأن قانون التنظيم الذي نشأت عليه هو قانون أبدي ما دام على الكرة الأرضية كافر واحد وما دام يحدث في المجتمع الإسلامي غفلة تسيطر فيها الشهوات والغرائز على المبادئ وتصيب الإسلام بالتدمير.

(هـ) تميزت هذه الحقبة كذلك بتأسيس العالمية الإسلامية على مبدأ (القوة) (التطور بالقوة) فالقوة مبدأ وتطويرها مبدأ يقول ﷺ:

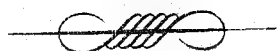
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالإعداد والاستطاعة يتطوران بالتطور بالقوة مبدأ وهو يحمل مضمونا بأن تنظيم الكفر سيتطور في القوة وبالقوة فجاء مبدأ التطور بالقوة في صيغة الأمر ليكون التطور بالقوة واجبا حتى لا يحدث خلل في التوازن وينعكس ذلك على وضعية الإسلام وعلى نقله إلى العالم فمبدأ القوة ومبدأ تطور القوة ركن من الأركان التي تأسست عليها العالمية الإسلامية.

انطلاقاً من هذه المبادئ الخمسة التي تأسست عليها العالمية الإسلامية وقعت المواجهة واستمرت إلى الآن وستستمر مصداقاً لقوله ﷺ:

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ ۖ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۖ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝﴾ [البقرة: ١٢٠].

وعلى الأمة أن تظل في صحتها من حتمية الدفاع.



الفصل الثاني

القادمون من الخلف؟!

في مطلع القرن العشرين ازداد خروج وانتشار رؤساء جنود التنفيذ ورؤساء القوافل في كل مكان توجد فيه كثافة سكانية مسلمة يركزون على الأماكن التي يقشوا فيها الفقر والجهل لعل صيدهم يكثر وسط هذه العوامل المشجعة وعقدت مؤتمرات التنسيق المحلية والعالمية وكانت بمثابة غرفات عمل عسكرية لتدبير الأمور وقد عقد في مدينة (جلين ايرى) في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨ م مؤتمر تنصيري موسع يحمل عنوان: (التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي).

وجاء في وصف المؤتمر قول بعضهم: (انتهى هذا المؤتمر بعد أن امتلأت قلوب الملايين بروح الأمل وشجعهم على السير قدما نحو هدفهم الأكبر وهو العمل على تنصير ٧٤٠ مليون مسلم - وقتها-) ولما لم يفتن المسلمون بدعاوى المبشرين والمنصرين صدرت الأوامر إلى جنود التنصير تقول: (استمروا في عملكم ضد المسلمين وليس بلام عليكم أن تخرجوا المسلم من دينه إلى النصرانية ولكن يكفي أن تجعلوه مشغولا عن دينه حتى يصبح بلا دين...!!).

وأعداء الإسلام يذهبون إلى جميع المواقع البشرية المسلمة في العالم لتحقيق كل المكاسب المتاحة: الدين والإباحة والثروات والفتن! ومن المعروف أن أعمال التنصير لا يقوم بها أفراد ولا منظمات دينية فقط بل تسهم في تمويلها الحكومات الغربية..!

والغرب الصليبي يركز دائما على جذب انتباه الشرق الإسلامي لبحوث يسميها

تصورية تتمثل في:

- ٢- إبلاغ الكتاب المقدس إلى المسلمين.
 - ٣- استمالة المسلم إلى النصرانية عن طريق سيرة المسيح.
 - ٤- كنائس مقدسة لمن يتم تنصيره من المسلمين.
 - ٥- صراع القوة في عملية تنصير المسلمين.
 - ٦- الظرفية والتحول من الإسلام إلى النصرانية.
 - ٧- مقارنة بين وضع الإسلام والنصرانية في تركيا.
 - ٨- منطلقات لاهوتية جديدة في عملية تنصير المسلمين.
 - ٩- تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب الإسلامية.
 - ١٠- تدعيم ثقافة المسلم المنصّر.
 - ١١- وسائل الإعلام الموجه للمسلمين.
 - ١٢- الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين.
 - ١٣- تطوير أدوات جديدة تساعد على تنصير المسلمين.
 - ١٤- بناء شبكة من مراكز الأبحاث واستراتيجية للتخطيط.
 - ١٥- كيفية الوصول إلى الذين لم يصلوا إليهم من الشعوب الإسلامية.
- وما زال الغرب الصليبي يقوم بهذه الأعمال التخريبية ويحفر لنا قبورنا وإذا التمسنا لنا عذرا في الإحجام عن الدفع بالقوة.. فلا عذر لنا أن نقف أمواتا أمام هجمات التنصير العاصفة...!!؟

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (١١١) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ

إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣٠﴾ [البقرة: ١١٩: ١٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا عن الغرب الصليبي فماذا عن منفذي المؤتمر المشبوه من العرب والمنعقد في القاهرة كنانة الله في أرضه في شهر يوليو ٢٠٠٣م وحمل عنوان: (نحو خطاب ثقافي جديد من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل) حول هذا المؤتمر المشبوه كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى مقالا بالغ الأثر فند فيه النوايا وقرأ الأحداث قراءة متأنية وعلمية أقف فيه عند بعض النقاط الهامة والتي يحاولون من خلالها هدم الإسلام كتب يقول: (تلك الخدعة أن المؤتمر يحمل عنوانا هو: تجديد خطاب ثقافي ثم تحولت كل واقعياته إلى: نحو تجديد الخطاب الدينى وليس الثقافى ولم يلتزموا بحرفية العنوان (الثقافى) موضوع الخدعة وقاموا بحصر معنى الدين فى الدين الإسلامى وحده وفى هذا كثير من المكر السيئ الذى يحاك ضد الإسلام ومعناه مرة أخرى أنهم وصلوا لأهدافهم الخبيثة بتأشيرة دخول مزورة!!

أو كما جاء فى الحديث الشريف: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وأجمل الأستاذ الجليل ما حاولوه وكسروا للوصول إلى أهدافهم القذرة فيما يأتى :

أولاً: السخرية من الوحي (القرآن) :

والذى تولى كبره فى هذا الموضوع قسيس سورى سابق يعمل شاعرا تظاهر بدخول الإسلام ودعا إلى: إعادة تفسير القرآن على منهج حدائى تفقد فيه مفردات اللغة وتراكيبها دلالاتها الوضعية والمجازية ولا يستقر معنى واحداً للكلمة.. بل لكل إنسان أن يفهم من المفرد أو من التركيب ما شاء من المعنى.. وله أن يفهم معنى كلمة الآن ثم يفهم منها معنى

آخر غدا..؟! انظر كيف تجرأ هذا المخلوق على الخالق وسخر من قرآنه ووصفه بأنه يخلو من كل أنماط المعرفة - ثم دعا كذلك.. إلى إعادة النظر في الدين أصلا؟ ليتاح له التحرر من سلطانه ويتمكن من الإبداع والانفتاح على العالم المتحضر فالقرآن عنده وعند الداعين إليه وعند أعضاء المؤتمر يخلو من المعرفة..؟!

قَالَ تَمَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ثانياً: فصل الدين عن الدولة :

ومقترح هذه الفكرة - الملعونة - أحد العلمانيين وهذا قولٌ كثيراً ما تردد على ألسنة - أمثالهم - واعتبر هذا بالطبع هديانا وتخطاً ولم يرق من قريب أو بعيد إلى أى مستوى من مستويات الإقناع أو الاحترام وقد أغلق هذا الباب: ويحار الإنسان كثيرا أمام هذا التبجح واللا دينية التي ولدتها الأحقاد على الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: إلغاء السنة والفقه :

وطعنوا في الحديث النبوى والسنة وطلبوا بإلغائها وكذلك طالبوا بإلغاء المذاهب الفقهية الكبرى الأربعة واقترحوا أخذ الأخكام مباشرة من القرآن وحده.. وأسهم أحد الأعضاء بسهم وافر في هذا المؤتمر وادعى قدرته على الاستنباط واستخراج الأحكام من القرآن مباشرة.. هكذا..!! ورأوا أن محو الفقه الإسلامى ضرورى لتحرير الدعوة الإسلامية من الحلال والحرام.. وكفى..؟!.

رابعاً: إلغاء المؤسسات الدينية :

كما دعوا إلى إلغاء المؤسسات الدينية كالأزهر والهيئات التابعة له والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وربما وزارة الأوقاف نفسها لأنها مؤسسة وربما أيضاً المساجد لأنها

الفتوى..!؟..

خامساً: إلغاء اللغة العربية:

الإسلامي وإلغاء جميع المؤسسات الدينية والخيرية على نحو سافر ومقيت..!!

وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٩﴾ [التوبة: ١٣٩].

أى هدف حتى الآن ولن يتحقق:

﴿مَادَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨].

يقول أحد المارقين: (إن أعظم عقبة في سبيل تحقيق وحدتنا القومية وفلاحنا القومي هي تعلق المؤسسات الدينية بالسلطة الزمنية وتشبث المراجع الدينية بوجوب كونها مراجع السيادة في الدولة وقبضتها على زمام سلطاتها أو بعض سلطاتها على الأقل والحقيقة أن معارك التحرر البشرى الكبرى كانت تلك التي قامت بين مصالح الأمم ومصالح المؤسسات الدينية المتشبثة بمبدأ الحق الإلهي والشرع الإلهي في حكم الشعوب والقضاء فيها وهو مبدأ خطر استعبد الشعوب للمؤسسات الدينية استعبادا أرهاقها هذه هي الوجهة الدنيا من الدين ، هي الوجهة التي كان الدين ولا يزال يصلح لها حين كان الإنسان لا يزال

في طور بربريته أو قريبا منها أما في عصرنا الثقافي فإنه لم يعد يصلح).

لقد رصد القرآن الكريم حركات هؤلاء جميعا - رسدا كاملا - وأحاط بها يدور في ضمائرهم إحاطة جعلتهم في حالة من - اليأس الشديد - بسبب عالمية القرآن الكريم وعالمية الرسالة المحمدية الخالدة!

قَالَ تَعَالَى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة: ٣٢: ٣٣].

وقال عليه السلام: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب - وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء - أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (١).

إن العواصف الهوجاء التي يحتاج الآن كل ما يحمل اسم الإسلام والمسلمين لم يعد أمرا خافيا على ذي لب وعلم!

ولم يعد الجدل مع الملاحدة وخدمهم - ترفا - أخلاقيا وكلاميا..؟ بل إنه أصبح فرضا دينيا ملزما لتحرير القيم والفضائل ثم سيطرة الملاحدة ومحاولاتهم الجادة لتقديس الإسلام كقربان يحققون به أغراضهم وغاياتهم المقيتة! لقد جر علينا - جهلنا - بقيمتنا وقدراتنا

الويل وزعم الزاعمون من كل حذب وصوب - ماديّين وعلمانيّين وحاقدين - أن القرآن الكريم والسنة لم يصبحا ملاذا يلوذ به طالبوا الحياة الدنيا..!

واجتمعوا وللأسف في خندق واحد تحت راية الشيطان! القادمون من الخلف قدّموا بالمال وبالفكر وبالحياة وجندوا كل مرتد وكل حاقد وكل مهين؟! ولا حل لنا إلا بالعودة إلى منهج الله ورسوله فيها الملاذ الذي يلوذ به المؤمنون ويقبل عليه الموحدون وهما الطريق الوحيد للنجاة..! أقول لم يعد الجدل كلمة ورأيا بل أضحي علما وضرورة قصوى لصد هذا الهجوم الضاري على الإسلام واكتساح هذه الفلول الضالة من المرتزقة والمتاجرين بكل قيمة وشرف ودين؟!

وحتى نوقف - نحن المسلمين - زحف هجوم القادمين من الخلف فعليّنا أن نحفظ القرآن الكريم وأن نحفظ السنة ونقيم الشريعة كما أراد الله لها أن تكون! لقد واجه المسلمون قديما وحديثا كل التحديات وقمعوا كل الفتن وأزهقوا كل باطل فقد واجهوا الصليبيين بعد أن اندفعت حملتهم الأولى واستطاعت دخول بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ ميلادية.

وواجهوا التتار عام ٦٥٨ هـ ١٢٦٠م مما تسبب في انحسار الموجة التتارية.. وواجهوا الصهبيونية في عصرنا الحديث عام ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٣م وما كان ذلك إلا بدوافع إيمانية و يقينية وعملية استنبطت من القرآن الكريم والسنة المطهرة .

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨].

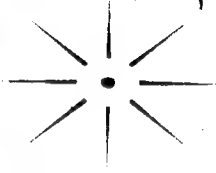
ويقول: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ويأتي بعد ذلك تحذير النبي ﷺ لنا من السلبية والتسليم فيقول: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها قلنا: أو من قلة بنا يومئذ؟ قال أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون كغناء السيل - ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن - قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت» (١)، وفي رواية أخرى: «حب الدنيا وكراهية الموت» فالقرآن يرفع الأمم ويرقيها هذا هو الحق ولا حق سواه...!!

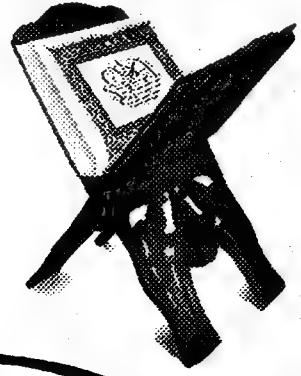
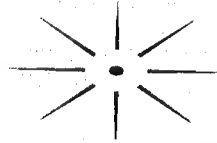
يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥) ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) [القصص: ٨٣: ٨٨].

ويقول تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨) [آل عمران: ٢٨]. والله أعلم.

(١) حديث صحيح: رواه أحمد في مسنده (٢٢٤٥٠)، البيهقي في شعب الإيمان (٩٨٨٧) الطيالسي في مسنده حديث رقم (٩٩٢)، انظر حديث رقم (٨١٨٣) في صحيح الجامع.



الطبعة العشرة



من خلال عرضنا لموضوع :

[الإعجاز الجليل في القرآن الكريم]

تحقق لنا الوقوف على كثير من الحقائق والمفاهيم والتي أسفر أعداء الدين فيها عن وجوههم القبيحة وألستهم البديئة ومنطقهم الحاقد، وطفا ذلك على سطح الواقع في كل المواقع رغم أنهم لبسوا مسوك الضأن من اللين وهذا تصوير للبعد النفسى والأخلاقى لهم سنعرضه من خلال سرد بعض الافتراءات والرد عليها فقد كتب أحد سدنهم يقول في إحدى رسائله:

(لم يقتصر^(١) القرآن على الأمر بحسن مجادلة أهل الكتاب بل أكثر من هذا: إنه وضع القراء في مركز الإفتاء في الدين فقال:

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].
وقال أيضاً: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧].

وللرد على ذلك نقول: لقد جوز صاحب الرسالة على الرسول ﷺ الشك في دينه وجعل الذى يزيل شكه ويشفيه منه هم أهل الكتاب كما جوز أن يكون القرآن غير وافي لشئون المسلمين وإن صاحب الرسالة قد جاء بكبرى الكبائر حيث ادعى أن نبينا محمداً ﷺ كان يتلقى دينه عن الله وعن جماعة أهل الكتاب وأن أهل الكتاب كانوا له بمثابة دار الإفتاء ومجلس التشريع الذى يسانده ويفتيه فيما احتاجوا إليه من أمور الدين ومعدلاته

(١) رد افتراءات المبشرين على آيات القرآن الكريم - د/ محمد جمعة عبد الله - جامعة أم القرى بمكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م من ص ١٥٨ وما بعدها بتصرف.

﴿سُبْحَنَكَ هَذَا يُهْتَنُّ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وقبل التعرض للآيتين اللتين جاء بهما ظاناً أن فيهما دليلاً على ما ادعاه نسوق هذه الحقائق الدامغة والقاطعة لهذا الادعاء بأن الرسول ﷺ لم يستفت أحداً من أهل الكتاب في أمر دينه فقد كان على بينة من ربه ويقين من أمره فنقول:

أولاً: إن الله لا يختار رسله ارتجالاً وإنما يختارهم على علم بأهليتهم للرسالة والقيام بأعبائها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهم في الذروة علماً بشئون الرسالة وديننا وخلقا وكما لا في جميع نواحيهم.

ثانياً: رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - معصومون من التلبس بأي أمر يتنافى مع قداسة الرسالة لأنهم القدوة الحسنة والمثل العليا لأمتهم.

ثالثاً: رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - يتلقون أمور دينهم وما يبلغونه لأمتهم عن الله وحده ولا يتلقون شيئاً من ذلك عن أحد من البشر ويبلغونه كما أوحاه الله إليهم.

رابعاً: ومن المقطوع به أن الرسول ﷺ لم يستفت أحداً من أهل الكتاب في شئون دينه وإنما كان يتلقى تعليماته عن الله وحده كما قال تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ

الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣: ٥].

وهذا شأنه وشأن غيره من الرسل جميعاً قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾

الإنجيل في القرآن

والأولى يافتاء الرسول ﷺ في شئون دينه هو جبريل الأمين ﷺ عن رب العالمين، فضلا عن أن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وغيروا في كتبهم قال الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

خامسًا: تعهد الله تعالى لرسوله ﷺ بجمع القرآن في قلبه وبيانه فقال:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ

فَأَلْبِصْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ [القيامة: ١٦: ١٩].

كما أنه تشريع شامل قال الله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

سادسًا: أخبرنا الله تعالى أن أهل الكتاب الذين لم يسلموا يحبون الشر للمسلمين

ويكرهون الخير لهم فقال تعالى:

﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ

عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فكيف نستفتيهم إذن؟

سابعًا: كيف يكون الاستفتاء وهم يعملون على تكفيرنا بغيا علينا وحسدًا لنا قال الله

تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ

كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا

وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

[البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ٦٩].

وقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٢٠﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثامناً: أثبت القرآن أن أهل الكتاب قد ضلوا طريق الحق ويسعون إلى إضلالنا لنكون مثلهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].

كيف بعد ذلك يدعون أن الله تعالى أمرنا باستفتائهم كما أن أهل الكتاب أنفسهم اختلفوا فيما بينهم في كتابهم اختلافاً بينا تبعوا لأهوائهم وأنهم كانوا في شك شديد قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿١١٠﴾ [هود: ١١٠].

تاسعاً: ثبت أن أهل الكتاب كذبوا على رسول الله ﷺ وكذبوا أمامه فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال:

أشهد أنك رسول الله وأنت جئت بحق وقد علمت يهود ابن سيدهم وابن أعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت - وكان قد أنكر عليهم إسلامه - فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا في ما ليس في فأرسل نبي الله ﷺ إليهم فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم ﷺ: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون إني رسول الله حقا وأنى جئتكم بحق فأسلموا»، قالوا: ما نعلمه! قال: «فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفرايتم إن أسلم؟» قالوا: حاش لله ما كان ليسلم، قال: (ثلاثاً)، قال: «يا ابن سلام اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق، فقالوا له: كذبت فأخرجهم رسول الله ﷺ - رواه البخارى في إسلام عبد الله بن سلام^(١).

وقد نهانا رسول الله ﷺ عن سؤال أهل الكتاب فى شىء من أمور الدين فقال ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى»^(٢).

عاشراً: بين لنا الله تعالى أن فى القرآن ما يغنيا عن غيره من الكتب فعن ابن جرير وابن أبى حاتم والدارمى فى مسنده من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبى ﷺ: «كفى بقول الضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم»

فترلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾

(١) صحيح البخارى فى (١٦٢/٥).

(٢) رواه أحمد والبزار واللفظ له عن جابر - المنار ١٠/١٠٤.

قائمة المراجع

الرقم	المراجع	المؤلف
١	القرآن الكريم	
٢	السنة النبوية المطهرة	
٣	دائرة معارف القرن العشرين	د/محمد فريد وجدي
٤	مقدمات العلوم والمناهج	الأستاذ/أنور الجندى
٥	علم الإنسان	فوزية رمضان أيوب
٦	أحكام الجان	الإمام/بدر الدين أبي عبد الله الشبلى
٧	الجامع لأحكام القرآن	أبي عبد الله محمد الأنصارى القرطبى
٨	حاشية الجمل	سليمان بن عمر العجيلى / الجمل
٩	تنوير المقياس فى تفسير ابن عباس	لأبي طاهر بن يعقوب الفيروزابادى
١٠	مختصر الطبرى	أبو يحيى التجيبى الأندلسى
١١	حجة الله البالغة	العلامة الدهلوى
١٢	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن	محمد فؤاد عبد الباقي
١٣	البرهان فى علوم القرآن	الزركشى
١٤	الوعى الإسلامى	العدد ٤٥٧ عام ٢٠٠٢
١٥	القاموس المحيط	للفيروزابادى
١٦	الإتقان فى علوم القرآن	السيوطى

١٧	تاريخ الجدل	الإمام/ محمد أبوزهرة
١٨	روح المعاني	للألوسي
١٩	التفسير الكبير	الفخر الرازي
٢٠	في ظلال القرآن	الشهيد / سيد قطب
٢١	السيرة السلفية	للشوكاني
٢٢	الخوارج	د/ عبد القادر البجراوي
٢٣	صون المنطق والكلام	جلال الدين السيوطي
٢٤	مجلة منار الإسلام	العدد ٢٤٢ عام ٢٠٠٢
٢٥	التبيان في تفسير القرآن	للإمام / الطوسي
٢٦	الطبيعة في القرآن الكريم	د/ كاصد الزيدي
٢٧	التصوير الفني في القرآن	الشهيد / سيد قطب
٢٨	تاريخ المذاهب الإسلامية	الإمام / محمد أبوزهرة
٢٩	مذاهب فكرية معاصرة	الأستاذ / محمد قطب
٣٠	ركائز الإيمان	الشيخ / محمد الغزالي
٣١	مجلة الإسلام ووطن	العدد ٢٠٣
٣٢	وضح البرهان في مشكلات القرآن	النيسابوري
٣٣	نهاية الإعجاز	الرازي
٣٤	تاريخ التشريع الإسلامي	د/ محمد علي قاسم
٣٥	رد افتراءات المبشرين	د/ محمد جمعه عبد الله
٣٦	أصول التشريع الإسلامي	الشيخ / علي حسب الله

الإعجاز في القرآن الكريم

٣٧	ترجمات معاني القرآن الكريم	جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
٣٨	المصحف المرتل	د/ لبيب السعيد
٣٩	إعجاز القرآن	الأستاذ/ مصطفى صادق الرافعي
٤٠	مقالات من مجلات الأزهر	كبار علماء الأزهر
٤١	إحياء علوم الدين	حجة الله الغزالي
٤٢	أحكام القرآن	لابن العربي
٤٣	حول إعجاز القرآن	د/ علي العماري
٤٤	الحيوان	للجاحظ
٤٥	ميثاق النبيين	عبد الوهاب عطية
٤٦	الكتاب المقدس	دار الكتاب المقدس
٤٧	إظهار الحق	رحمت الله الهندي
٤٨	المسيحية الحقّة كما جاء بها المسيح	علاء بكر
٤٩	القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم	د/ موريس بوكاي
٥٠	اقتباسات كتاب الأنجيل من التوراة	د/ أحمد حجازي السقا
٥١	إنجيل برنابا	د/ خليل سعادة / مترجم
٥٢	مجلة الوعي الإسلامي	العدد ٤١٢ / ٢٠٠٠م
٥٣	الملل والنحل	لشهرستاني
٥٤	ضحى الإسلام	أحمد أمين
٥٥	إعجاز القرآن	رسالة دكتوراه بأصول الدين
٥٦	(الله) ونشأة العقيدة الإلهية	الأستاذ/ عباس محمود العقاد

فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	٥٧	لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
إعلام الموقعين عن رب العالمين	٥٨	ابن قيم الجوزية
لسان العرب	٥٩	لابن منظور
المفردات في غريب القرآن	٦٠	للاغب الأصفهاني
أصول الدين	٦١	دار الكتب العلمية
مقالات الإسلاميين	٦٢	للأشعري
شرح الأصول الخمسة	٦٣	رسالة
الإنصاف	٦٤	الباقلائي
الاقتصاد في الاعتقاد	٦٥	حجة الإسلام الغزالي
مفاتيح الغيب	٦٦	للرازي
شرح السنة	٦٧	للبغوي
الشفاء بتمريف حقوق المصطفى	٦٨	القاضي عياض
تفسير البيضاوي	٦٩	للإمام البيضاوي
تفسير ابن كثير	٧٠	للاحافظ ابن كثير
تفسير أبي السعود	٧١	للامامة أبي السعود
الفصل في الملل والنحل	٧٢	ابن حزم الظاهري



الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٤	مقدمة
٦	الباب الأول : موه القرآن الكريم
٧	تعريف القرآن
٨	الفصل الأول : أهداف القرآن
١١	الفصل الثاني : إعجاز القرآن
١٨	الفصل الثالث : تأثير العربية
٣٠	الفصل الرابع : روايات منصفة قيلت في القرآن
٣٤	الباب الثاني : الجدول والمناظرات
٣٥	الفصل الأول : معنى الجدول
٣٨	الفصل الثاني : مشتقات اللفظ (جدل)
٤١	الفصل الثالث : هل المناظرات من الجدول ؟
٥٣	الفصل الرابع : سبب ذلك
٥٥	الفصل الخامس : صور من المناظرات الجدلية
٦٦	الفصل السادس : المعارضات
٧٤	الباب الثالث : (وجادلهم بالنوع حتى يحسنوا)
٧٧	الفصل الأول : هل من ضرورة للجدل ؟
٨٥	الفصل الثاني : وهل الجدول علم ؟
٨٨	الفصل الثالث : كيف تكون مجادلاً حاذقاً ؟

الفصل الأول : دراسة مقارنة بين : القرآن - التوراة - الإنجيل

مَسْحُوحٌ لِلَّهِ